تاريخ دول المغرب العربي

ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب - موريتانيا

٢٠٠٠

تأليف الأستاذ الدكتور
محمود السيد
أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية المعلمين
المدينة المنورة - سابقًا

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة
تليفاكس: ٤٨٣٩٤٧٢ إسكندرية

تاريخ دول المغرب العربي

(ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب - موريتانيا)

تأليف

أ.د. محمود السيد

استاذ التاريخ الإسلامي (كلية المعلمين)

المدينة المنورة (سابقا)

٢٠٠٠

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور/ مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٧٤٢ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين

صدق الله العظيم

(ال عمران آية ١٣٨)

المقدمة

يمتد العالم العربى، بين غرب آسيا وشمالى أفريقيا من خليج البصرة شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا، ومن جبال طوروس شمالا إلى حدود المنطقة الاستوائية جنوبا. وتقدر مساحته بنحو عشرة ملايين كيلو متر مربع.

وينقسم العالم العربى جغرافيا إلى قسمين، قسم فى غرب آسيا، والقسم الآخر فى شمال أفريقيا ويشمل القسم الأول جزيرة العرب والعراق والشام. والقسم الآخر ويشمل مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا . وهذا القسم هو موضوع هذا الكتاب بداية من ليبيا.

يشغل العالم العربى مركزا مرموقا فى جغرافية العالم. وقد لعب العرب دوراً هاماً فى تاريخ البشرية. وأقاليم الوطن العربى يكمل بعضها بعضا، فهى تكون وحدة جغرافية واقتصادية وطبيعية تامة. ففيها المناطق الحارة والمناطق الباردة وفيها مايصلح ليكون أحسن المشاتى وفيها مايصلح للاستغلال الزراعى الخاص بالبلاد الحارة. كما فيها مايصلح للاستغلال الخاص بالبلاد الباردة.

وفيها الغابات التى تشغل فى بعضها قسما كبيراً من مساحتها كما هو حادث فى بلاد الشام والسودان وشمال أفريقيا. كما تطل على المحيط الأطلسى فى أقصى المغرب.

وقد حدت العوامل الطبيعية والاجتماعية مثل الجفاف والقحط وقلة الكلأ والمنازعات القبلية الهجرة من الجزيرة العربية فانساح إلى الأقطار

المجاورة جنوباً وشمالا عدد كبير من السكان ثم ظلت هذه العوامل تعمل عملها قبل الاسلام وبعده. فيكون هذا التلاحق المتواصل المتحد فى طبيعته دوافعه الدليل على وحدة الأصل والجنس والمنشأ بين سكان الجزيرة والأقطار المجاورة لها. ويكون فيه وسيلة مستمرة إلى توثيق الصلات والروابط والوحدة بين القلب والأطراف، وتجديد دم الجنسية العربية وطابعها مما لايكاد يوجد له مثيل فى العالم.

وقد أخذت بلاد الشام منذ خمسين قرنا تعمر بالموجات الكبرى التى جاءت من الجزيرة العربية والتى عرفت بأسماء الكنعانيين، والفينيقيون فرع منهم، والعموريين والأراميين ، وبالموجات الصغرى التى كانت تنساح من وقت إلى آخر كنتيجة لهذه الموجات الكبرى وتابعة لها.

وهؤلاء جميعا صهرتهم بوتقة العروبة ذات اللهجات غير الصريحة فى عروبتها.

ثم جاء الفتح الإسلامى الكبير فقوى من عملية التكامل حتى صارت العروبة طابع هذه البلاد.

لقد كان المغرب مهجر موجة عربية وهى الموجة الكنعانية الفينيقية التى قدمت إلى سواحل بلاد الشام حيث مارست الملاحة والتجارة.

وكان البحر الأبيض المتوسط ميدان نشاط وأنشئت عدة مراكز ملاحية وتجارية.

وفى القرن العاشر قبل الميلاد تأسست الدولة التجارية البحرية الكبرى المعروفة بدولة قرطاجنه.

ومن هذه الحقائق التاريخية يتضح حقيقة تسرب الدماء العربية إلى بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة، ثم أصبحت مهجرا للموجات العربية الصريحة فى عهد مبكر من ظروف الفتح الإسلامى حيث سير عمرو بن العاص حملة عربية إلى ليبيا.

ثم سير عبد الله بن سعد فى عهد عثمان بن عفان حملة عربية إلى تونس. ثم أخذت الموجات العربية تترى إلى بلاد المغرب فى عهد الأمويين حيث أتمت توطيد السلطان العربى فى جميع أنحائها قبل انتهاء القرن الأول الهجرى السابع الميلادى.

ولم تنقطع الموجات العربية عن الانسياح فى بقية عهد الدولة الأموية، ثم فى عهد الدولة العباسية والفاطمية حيث ظلت تتلاحق وتملأ جنبات بلاد المغرب حتى أصبح طابع العروبة بارزا عليها.

ومما سبق يتضح أن الوحدة الجنسية متوفرة بعمق وقوة فى الوطن العربى الكبير منذ أقدم الأزمنة. وقد أصبحت العروبة طابعه الخالد منذ الفتح الإسلامى، بفضل الإسلام العربى والقرآن العربى.

وترجع أصول سكان أفريقيا عدا من هاجروا إليها من العرب والآسيويين وغيرهم، هم البشمان والزنوج (النجرو) والحاميون الشرقيون والليبيون والساميون. أما أفراد قبائل البشمان قصار القامة لونهم ضارب إلى السمرة وحرفتهم الصيد كانوا يسكنون المناطق التى على الحدود الشرقية والجنوبية لصحراء القلاهارى منذ حملهم على الذهاب إليها اعتداءات الهتنتوت والبانتو. وكانت البشمان قبل هذا تسكن ناحية بحيرة تنجانيقا شمالا، وإلى جانبهم قبائل الهتنتوت رعاة البقر وأفرادها يسكنون

قديما بلاد الكاب.

ويبدو أن الهتنتوت جاءوا ثمرة الاختلاط بين عناصر البشمان والزنوج الحاميين.

أما الزنوج (النجرو) فهم يسكنون المناطق التى بين جنوب الصحراء الكبرى وأعالى النيل إلى الكاب عدا الحبشة والجاللا والسومال.

أما القبائل المتنقلة فهى ثمرة امتزاج النجرو بالليبيين فى الشمال والساميين العرب والحاميين على الساحل الشمالى الشرقى والشرق.

على أن الامتزاج الذى تم بين الفولا غرب السودان وبين الباجيما فى فيكتوريا والعناصر الليبية والحامية أوضح من الامتزاج الذى تم بين العنصر الزنجى وغيره.

أما الليبيون أو البربر فهم بيض البشرة وسكان شمالى الصحراء الكبرى.

أما فى الشمال الشرقى فيختلط الحاميون بالساميين ذوى البشرة السمراء.

ويبدو أن البشمان والزنوج دون العناصر الثلاثة الحامية والسامية والليبين هما وحدهما أصلا سكان أفريقيا.

وقد تناول هذا الكتاب عرضا لتاريخ وجغرافية دول المغرب العربى وهى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. تلك الدول التى تكون وحدة جغرافية وعنصرية وتاريخية ودينية فطبيعة أرضها واحدة فارتبطت

مصالحها برباط واحد منذ القدم وقربت بينها وحدة الآلام والآمال.

كما تناول هذا الكتاب تاريخ السودان لارتباطه بالدور الذى لعبته القبائل المغربية والعربية فى دخول الإسلام إلى بلاد السودان ثم انتشاره بين ربوعه خاصة السودان الغربى فلزم الحديث عن السودان باعتباره امتداداً لحركة الجهاد الإسلامى العربى كما كان امتداده من مصر إلى شمال السودان منذ بداية الفتح الإسلامى وخلال العصور الإسلامية فى مصر وخاصة العصر المملوكى.

لقد كونت دول المغرب العربى وحدة تاريخية واحدة كانت هى الدافع لتقديم هذا الكتاب الذى تحتاجه المكتبة العربية اليوم.

الباب الأول

ليبيا

الفصل الأول

ليبيا من الفتح العربى إلى العهد الموحدى

* الوصف الجغرافى.
* السكان.
* الفتح العربى فى ليبيا وتوقفه.
* الموقف فى أفريقيا البيزنطية فى ظروف الفتح العربى.
* عودة العرب لمواصلة الفتح.
* المذاهب والعقائد.
* العباسيون والأباضية.
* الأباضية والأغالبة.
* ليبيا فى العهد الفاطمى.
* الهجرة الهلالية من مصر إلى بلاد المغرب العربى ونتائجها.
* العرب والمرابطون.
* العرب والموحدون.

يعد شمال أفريقيا منذ فجر التاريخ وحدة تاريخية واحدة، ويمتد من ليبيا شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا.

وقد كان الرومان حين أخضعوا هذه البلاد لحكمهم يقسمونها إلى ثلاثة أقسام هى أفريقيا ونوميديا وموريتانيا.

كما أن العرب رأوا صحة هذا التقسيم الرومانى حيث أن لكل قسم منها طابعه المميز جغرافيا فأطلقوا عليها أفريقيا والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى وهو يشمل حاليا ليبيا وتونس والجزائر ومراكش أما موريتانيا فكانت تضم فى عهد الرومان موريتانيا والمغرب الأقصى معا.

وتقع موريتانيا فى الشمال الغربى من أفريقيا جنوبى المغرب الأقصى، والجزائر التى تقع أقصى شمالها الشرقى من الصحراء الغربية، ويجاورها من الغرب المحيط الأطلسى وفى الجنوب منها دولة مالى، وفى الجنوب منها السنغال.

وأما السودان فهو فى جملته سهل أو هضبة فسيحة تنعزل عن شمال وادى نهر النيل بصحراء يجرى فى وسطها النيل.

وتحد السودان من الشرق المرتفعات التى تمتد بطول ساحل البحر الأحمر إلى الشمال .

أما من الغرب فيدور النطاق المجدب حول الوادى الذى يجرى فيه النهر وروافده.

وفى الجنوب الشرقى يسير خط الحدود مع حافة هضبة بحيرة رودلف مجتازا أراضى وعرة ويقطع مستنقعات عالية عند اقترابه من البحيرة

وتركه لها. ثم يتابع خط الحدود مع حافةالهضبة الحبشية ثم الهضبة الأريترية إلى البحر الأحمر وتمتد مع البحر الأحمر شمالا نحو خمسمائة ميل إلى الحدود الجنوبية لمصر. ويشترك السودان في بداية الحدود السياسية مع مصر شمالا. ومع أريتريا والحبشة في الشرق وأوغنده والكنغو في الجنوب ومع دول تشاد وليبيا في الغرب.

ليبيا:

يحد ليبيا شمالا البحر الأبيض المتوسط . ومصر والسودان شرقا، وتونس والجزائر غربا وتشاد والنيجر جنوبا.

وليبيا هضبة صخرية رملية بها تلال متوسطة الارتفاع ليس بها مجارى مائية، وبها بعض الواحات التى تفصل بينها بقاع واسعة جرداء.

ويقسم سطحها إلى سهول ومرتفعات وهضاب وهى:

السهل الساحلى:

ويمتد على طول الساحل ويختلف عرضه بين ميل وعشرة أميال ويختفى فى بعض الجهات فتصل إليه الصحراء مثل إقليم سرت. وقد امتاز ساحل البحر فى منطقة طرابلس بين زوارة ومصراته بالازدهار والنشاط البحرى للأسطول الليبى طوال العصور القديمة والوسطى.

وفى سهل طرابلس عدد من الواحات، أما فى الجنوب فيوجد سهل الجفارة. وهو صالح للزراعة فى جهة الشرق أما فى جهة الغرب فهى جدباء. ويحيط بالجفارة من الجنوب حافة الهضبة وتعرف بجبل نفوسة، وجبل ترهونة وغالبية التربة كلسية وهى شبه خالية من المواد الصالحة

لظهور النبات.

سهل برقة:

تقع برقة بين صحراء مصر الغربية شرقا وطرابلس غربا وتمتد جنوبا حتى السودان وأفريقيا الاستوائية. وأكثر تلك المنطقة صحراء مجدبة. ويتكون الجزء الشمالى منها من سلسلة تلال كلسية وسهول خضراء خصبة، وتمتاز منطقة الجبل الأخضر بجودة أرضها وطيبة هوائها، وتغذى هذا الجزء مياه الأمطار الموسمية فضلا عن جداول وعيون متفجرة مما جعلها صالحة للزراعة، فتزرع بها الأشجار المثمرة وكذا الحبوب.

كما يصلح فى بعض أراضى برقة مزاولة حرفة الرعى للماشية وهى حرفة يتداولها السكان البرقيون فى غالبيتهم.

وتوجد فى المناطق الصحراوية فى الجنوب بعض الواحات التى يظهر فيها النخيل، ويزرع بها الخضروات.

ومع أن المياه الجوفية فى برقة بعيدة عن سطح الأرض إلا أن الأمطار تعوض هذا النقص فى مياه الآبار. فضلا عن انخفاض حرارة الجو لإرتفاع السطح وقربه من البحر.

ويمتد السهل الساحلى لبرقة بحيث يمكن تقسيمه إلى منطقة ضيقة فى الوسط من غرب درنة إلى شرق طوكر من ناحية الجبل الأخضر الذى يطل على البحر.

ويضيق الساحل ويتسع قليلا عند سوسة ثم يتسع عند برقة حتى يصل إلى عشرات الأميال ويمتد حتى يجتمع بالصحراء فى الجنوب ويمتد إلى

السودان وأفريقيا الوسطى.

أما فى الشرق من درنة وهى مدينة صغيرة فى طرف الجبل الأخضر تكتنفها أشجار النخيل والزهور وحتى الحدود المصرية، فهى أرض شبه صحراوية تصلح للرعى وزراعة الشعير.

وأما برقة البيضاء والحمراء:

فتمتد إلى الجنوب من بنى غازى، وتتوسطها السلوق وأجدابيه وفيها مناطق تصلح للشعير والرعى وأحيانا القمح. وتعتمد برقة على مراعيها من الأغنام والمواشى ومنتجاتها.

وتستورد برقة المصنوعات المعدنية والأرز والشاى والأقمشة بأنواعها.

درنة:

وهى مدينة (درنيس اليونانية) لجأ إليها عرب الأندلس الفارين من الاضطهاد الدينى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى. ودرنة تأتيها المياه من وادى درنة ويوجد بها أشجار النخيل والفواكه مثل التين والموز.

والمرج: وهى مدينة (بركة اليونانية) وعرفت باسم برقة ثم أطلق أسمها على الإقليم فهو إقليم برقة وهى ذات طابع مميز فى الإقليم ويزرع بها أشجار الصنوبر والسرو.

أما طبرق: وتقع طبرق بين درنة والبردية على شاطئ برقة، وفى الشتاء تسقط الأمطار وتنبت الأعشاب وتكثر الأغنام والأبقار والماعز فى

تلك الأراضى التى تعرف بساحل البطنان (جبل عقبة أو مرمريكا) . وهو لايمتد كثيرا فى إتجاه الجنوب ثم تبدو الأرض صحراء قاحلة.

وسوسة : وقد قدم إليها مهاجرين من كريت فى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى.

واجدابية: وتقع فى الجنوب من سوسة، عمرت بالعرب بعد الفتح.

بنى غازى [١] : ويمتد السهل من بنى غازى إلى طوكره وهى أرض مكشوفة مستوية من الحجرالجيرى والحصى وتغطى بعض أجزائها صلصالة حمراء تكونت من تفتيت الصخور وتنتشر بها بعض البحيرات العذبة، أما غرب بنى غازى فتغلب عليه الطبيعة الرملية.

ويشتغل الأهالى فى بنى غازى بالزراعة البسيطة وبالتجارة فتستورد المصنوعات القطنية والجلدية وتصدر لمصر الماشية.

وكانت القوافل التجارية تتجه إلى بنى غازى وتنتقل بين المدن البرقية مثل درنة وطبرق فى الشمال وواحاتها فى الجنوب ، كفره وأوجلة وفزان، حيث كان لإقليم برقة نشاط تجارى مع السودان منذ العهد اليونانى.

وفى العهد الرومانى فى نهاية القرن الأول الميلادى تمت السيطرة على اقليم برقة وطرابلس، ثم غزا الوندال ليبيا فى منتصف القرن الخامس الميلادى وعاثوا فى البلاد وأفسدوا حتى ظهرت بيزنطة عليهم وغلبتهم وصارت السيطرة لهم قرب منتصف القرن السادس الميلادى.

بنى غازى :سميت بهذا الاسم العربى الحديث، ويرجع ذلك إلى سيدى غازى المدفون فيها، أما أصلها فى القديم يوسفريدس ثم صار برينى فى عصر البطالسة، وقد هجرت تلك المدينة زمانا حتى أعادها مهاجرون عرب من تجار طرابلس فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

وتحولت ليبيا فى العهد البيزنطى إلى التبعية لمصر، باستثناء إقليم طرابلس الذى أخضعته قرطاجة لها، وبقى الأمر كذلك حتى الفتح العربى.

أما السهل الساحلى لخليج سرت فهو سهل متسع تمتد مساحته بمحاذاة الخليج ولكنه خال من النماء.

وأما عن المرتفعات الساحلية فى ليبيا فتقع على جانبى خليج سرت. ففى الغرب من الخليج توجد المرتفعات الساحلية لطرابلس وتعرف باسم الجبل وهو يحد سهل الجفارة من الجنوب ويمتد من تونس إلى الخمس بالساحل ويعرف باسم جبل نفوسة فى الغرب. أما الشرق فهو جبل ترهونة وأما فى برقة فتشمل المرتفعات بها الهضبة المعروفة باسم الجبل الأخضر، وهى على شكل هلال وتحاذى الساحل. ويقع وادى درنة بين الجبل الأخضر غربا وهضبة مرمريكا (البطنان) فى الشرق.

وتقع جنوبى الجبل (نفوسه وترهونه) الهضبة الداخلية، وتعرف بإقليم حماده وهو محصور بين التلال الساحلية ومنخفض فزان، وفى الجنوب الشرقى من اقليم حماده يوجد جبل السودة وهو من صخور جيرية ورملية ويتشعب هذا الجبل شرقا إلى شعبتين وهما حروج الأسود وحروج الأبيض وإقليم الهضبة الداخلية كثير المنخفضات التى تكثر بها الواحات أهمها أوجله وجالو، وفى منخفض أوجله ومنخفض الكفره الذى يقع جنوب أوجله مجموعة من الواحات أهمها تازربو وبوزيما وربيانه.

ومن أكبر اقاليم الواحات فى ليبيا منخفض فزان. ويقع بين الجزائر وتونس غربا وبرقة طرابلس شمالا ويهذا الأقليم بعض الواحات منها سبها ومرزق وغداس وتقع غرب الحدود التونسية الجزائرية وهى محاطة بغابة

كثيفة من النخيل ومحطة للقوافل (طرابلس ـ تالوت ـ غدامس) .

****

الشعب الليبى:

السكان: يتكون الشعب الليبى من بدو رحل وهم اكبر سكان الهضاب والصحارى مثل لواته فى إقليم برقه، ونفوسه فى إقليم طرابلس. وحضر يقيمون فى المدن وهم البرانس سكان المدن الشمالية مثل هواره ونفزاوة.

ولما قدم الفينيقيون واستقروا فى ليبيا وشاركهم القرطاجيون، وقدم اليونانيون فى برقة، ثم ظهرت الرومان، وبسطوا سلطانهم على كل ليبيا.

كما قدم إلى ليبيا جماعات من اليهود فى القرن الثالث قبل الميلاد فى عهد القرطاجيين، بعد طردهم وهدم المعبد اليهودى فى القدس الفلسطينية فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى.

كما قدم إليها الوندال فى القرن الخامس الميلادى. كذلك وفدت إلى ليبيا رهبان من القبط المصريين لخدمة الكنيسة بها.

أما فى إقليم فزان فقد كان الزنوج يقيمون فيه بكثرة للخدمة فى الرعى والزراعة فى مختلف العهود السابقة.

فكأن شعب ليبيا قد تمثلت فيه أجناس من أنحاء آسيا وأوربا وأفريقيا. وقد اندمجت تلك العناصر فى البربر الذى ظلوا العنصرالرئيسى فى البلاد. فلما قدم العرب بعد الفتح شكل كل من العرب والبربر وحدة متماسكة حين اندمج بعضهم ببعض حتى صاروا شعبا واحدا له ملامح واحدة.

الفتح العربى فى ليبيا:

فتح العرب مصر لتأمين حدودهم فى الشام، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى برقة لتأمين مركزهم فى مصر، فبعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح مصر مباشرة اتجه بقواته إلى برقة خشية أن يهاجم الروم مصر من برقة بالمسير إليها وباعتبارها الخطوة الأولى للاستيلاء على أفريقيا وبقية اقاليم المغرب كذلك.

وفى عام ٤٢ هـ / ٦٤٢ م غزا عمرو طرابلس. على أن فتح برقة بعد خاتمة لفتح وادى النيل كله.

وقد شغلت قبيلة لواته الصحراء من أرض مصر إلى برقة وطرابلس.

بعث عمرو بالسرايا للاستطلاع واستكشاف ميدان القتال، والتعرف على المنطقة وأوضاعها، ثم بدأ عمرو فى التوجه إلى برقة وحصارها، وتم الاستيلاء عليها فأسلم بعض أهلها. ثم أعاد عمرو تنظيم جيشه فجعله قسمين أحدهما اتجه إلى طرابلس لفتحها بقيادة عمرو والقسم الآخر يقوده عقبة بن نافع اتجه إلى الواحات الجنوبية نحو فزان.

اتجه عمرو إلى طرابلس فوجدها مدينة حصينة محاطة بأسوار عالية، وظل عمرو يحاصر المدينة، حتى واتته الفرصة وتمكن من إقتحامها بجنوده بعد أن استكشف نقط الضعف فيها، وأتم فتحها وفرض عليها الجزية.

ثم بعث بجزء من جيشه إلى صبرته وفاجأ المدينة بقواته فدخلها من أبوابها دون مقاومة، إذ أن عنصر المفاجأة قد لعب دوره، وقد بلغت يقظة

المسلمين الغاية فلم يضيعوا الفرصة منهم وقد غفل أهل المدينة عن الاستعداد واليقظة فسقطت مدينتهم دون عناء.

كما بعث عمرو برجاله إلى فزان فى جنوب طرابلس وإلى ودان وعقد معاهدة مع أهلها من قبائل نفوسه.

ولما أرسل عمرو طلائعه إلى قابس - وهى تابعة لإقليم طرابلس فى ذلك الحين - وأدرك تعذر فتحها قبل أن يتزود بالرجال والعتاد لقوة دفاعها، فبعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب السماح له فى مواصلة الفتح، إلا أنه لم يجد من الخليفة عمر استجابة لرغبته، فاضطر عمرو إلى التوقف عن الفتح، وانصرف عائدا إلى مصر وقد خلفه فى ليبيا عقبة بن نافع.

وفى عام ٢٥هـ /٦٤٥ م وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان عزل عمرو من منصبه وتولى عبد الله بن أبى سرح ولاية مصر وأفريقيا.

الموقف فى أفريقيا البيزنطية فى ظروف الفتح العربى.

فى بداية القرن السابع الميلادى، أحست بيزنطة بالأخطار الخارجية المحدقة بالدولة البيزنطية من جانب أعدائها من الفرس واليهود والصقالبة، وحاول الأباطرة البيزنطيون تدارك تلك الأخطار الخارجية. إلا أن الأخطار الداخلية أخذت فى الظهور هى الأخرى ولم ينقذ الدولة البيزنطية من هذه الأخطار إلا ظهور الامبراطور هرقل ابن حاكم قرطاجة الأفريقية البيزنطية واستيلائه على العرش عام ٦١٠ م وظل الامبراطور هرقل يقاوم الأعداء فلما تكاثرت عليه المشاكل وتعذر عليه مواجهتها، فكر هرقل إزاء كل تلك الكوارث المتتالية أن يترك القسطنطينية فعلا ويعود إلى قرطاجة عاصمة

الولاية البيزنطية ويجعل منها مركزا لما ينظمه من مقاومة ضد الأخطار.

وعندئذ تقدم سرجيوس بطريرك القسطنطينية إلى الامبراطور هرقل وقدم له كل ماديه من كنوز ونفائس ليستعين بها الأمبراطور على محاربة أعدائه. وقد تمكن الامبراطور هرقل من التغلب على الصعاب التى واجهته. إلا أن الموقف قد تغير تماما بعد ظهور الخطر العربى، لقد اندفع المسلمون إلى أراضى الدولة البيزنطية فى فلسطين بعد موقعة أجنادين فى عام ١٣ هـ /٦٣٤ م ثم موقعة اليرموك عام ١٥هـ/٦٣٦م فاستولوا على بيت المقدس فى عام ١٦هـ/٦٣٧ م.

ثم واصل العرب فتوحاتهم بعد ذلك فاستولى عمرو بن العاص على مصر عام ٢٢هـ/٦٤٢م ثم واصل العرب تقدمهم فى شمال أفريقيا واستولوا على برقة وطرابلس.

وهنا أخذ جريجورس الحاكم البيزنطى فى قرطاجة وهو يتتبع أخبار الغزو العربى في بلاده، ويعمل على حماية نفسه من الوقوع فى أيدى الأعداء فعول على الانسحاب من مقره فى قرطاجه إلى سبيطله التى أقام حولها التحصينات تحسبا لهجوم وشيك عليها، كما حصن مدينة قابس.

وبعد انسحاب عمرو من ليبيا وعودته إلى مصر ظلت برقة على حالها من الاستقرار والتبعية لمصر.

أما طرابلس فقد أعلنت راية العصيان بعد أن وصلتها الامدادات من بيزنطة.

بعث عبد الله بن أبى سرح إلى الخليفة عثمان بن عفان ليواصل فتح أفريقا وفقا لخطة تأمين مصر من الخطر البيزنطى المحتمل.واستجاب الخليفة عثمان وبعث بالامدادات العسكرية التى سارت من المدينة عاصمة الدولة العربية الإسلامية فى الحجاز متجهة إلى مصر.

وفى مصر تولى عبدالله بن أبى سرح قيادة الجيش الذى بلغ تعداده عشرون ألف مقاتل ومن قبط مصر وبربر من أفريقيا، وقد أخذوا طريقهم إلى أفريقيا.

وصل عبد الله بن أبى سرح إلى برقة، وتقابل فيها مع عقبة بن نافع فى جماعة من المسلمين وواصل سيره حتى وصل طرابلس وهو يبعث أمامه بالسرايا للاستطلاع ورأى أن يصرف اهتمامه عن طرابلس - التى تحصن أهلها خلف الأسوار - كسبا للوقت وفعل ذلك عند قابس. ثم واصل سيره بجنده إلى سبيطلة.

ولما وردت الأنباء إلى الحاكم البيزنطى جريجوريوس فى قرطاجة بتحرك جيش المسلمين من مصر متجهين إلى أفريقيا. اتخذ الإجراءات فى تحصين مدينة سبيطله وبعد أن وصل المسلمون إلى قمونيه على بعد أميال من سبيطله. وبعد فشل المفاوضات بين الجانبين، بدأت المفاوضات العسكرية ولكن دون جدوى.

وجاءت الامدادات بقيادة عبد الله بن الزبير الذى عرض خطة حربية جديدة هى تقسيم الجيش العربى إلى قسمين قسم يقاتل والقسم الآخر يأخذ قسطا من الراحة فإذا أصابه الإرهاق من القتال. فوجئ العدو بالقسم الذى لم يقاتل فلا يقوى العدو على مواصلة القتال وينهزم وينتصر المسلمون. وقد

كان وانتصر المسلمون وقتل القائد البيزنطى وفتح المسلمون سبيطله واستولوا عليها.

ثم واصل المسلمون السير فى نواحى أفريقيا ووصلوا إلى قفصه ثم تفاوض الجانبان على أن يدفع القرطاجيون مبلغا كبيرا من المال مقابل الانسحاب من البلاد وقبل سعد العرض.

ثم رأى عبد الله بن أبى سرح أن يعود أدراجه إلى مصر وذلك لخوفه من استعدادات البيزنطيين فى البحر للتدخل لإنقاذ البلاد خاصة بعد سقوط سبيطله فى أيدى العرب. وكذلك خوفه على الأموال والذخائر التى غنمها، فقامت المفاوضات مع البيزنطيين وانتهت بالاتفاق على عودة عبد الله بن أبى سرح نظير مبلغ من المال يدفعه البيزنطيون وتأمين عدوة جنده، على أن من أسباب عودة عبد الله بن أبى سرح هو خوفه من أن يقطع العدو خط الرجعة فيفقد جنده وماحصل عليه من الغنائم.

عاد عبد الله إلى مصر وتوقف النشاط العسكرى فى بلاد المغرب، حيث وقعت أحداث سياسية بالعاصمة الاسلامية المدينة انتهت بالثورة على الخليفة عثمان ومقتله، وتولى الإمام على بن أبى طال منصب الخلافة. ثم بدأ الصراع المسلح بين على ومعاوية بن أبى سفيان الذى انتهى باستشهاد الإمام على وتولى معاوية بن أبى سفيان خلافة المسلمين.

تولى معاوية الحكم بعد استقرارالأمور وعادت الفتوح إلى سيرتها الأولى، وتولى عمرو بن العاص ولاية مصر لمعاوية للمرة الثانية وبدأت الحملات الحربية تخرج من مصر إلى أفريقيا، وهى حملات محدودة، فاتجهت إلى الواحات مثل فزان فى ليبيا. وفى عام ٤٤هـ/٦٦٤م توفى

عمرو بن ا العاص.

وفى عهد معاوية تحولت أفريقيا من تبعيتها لوالى مصر إلى ولاية مستقلة تابعة للخليفة نفسه لأهميتها.

تولى حكم مصر عقبة بن عامرالجهنى. وتولى معاوية بن حديج قيادة أفريقيا وولايتها، وفى نفس الوقت الذى كان فيه عقبة بن نافع حاكما فى ليبيا فى نواحى فزان وواحاتها والأحوال مستقرة بها من أيام عمرو بن العاص حتى عام ٣٥هـ/٦٥٥م وخاصة فى اقليم برقة حيث استجاب الأهالى وأقبلوا طواعة للدخول فى الدعوة الإسلامية لما عرفوا من سماحة الإسلام.

خرج معاوية بن حديج الذى ولى رويفع بن ثابت الأنصارى على طرابلس فى جماعة من الجند، وسار حتى بلغ قمونية التى انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين، ثم هاجموا مدينة حلولاء وانتصروا على جندها وغنموا جميع مافيها ، ثم أقام معاوية بن حديج مساكن فيها.

وفى عام ٥٠هـ/٦٧٠ م ولى معاوية بن أبى سفيان عقبة بن نافع على أفريقيا، فدخلها وهو له سابق خبرة بأرض ليبيا وخاصة إقليم برقة وإقليم فزان وواحاتها المتعددة وكان له بها سياسة حكيمة ساعدت على استقرار الأحوال فيها، لاتباعه تعاليم الاسلام. فأقبل البربر من أهالى برقة وفزان على الاسلام بعدما لمسوا سماحته ومساواته بين جميع المسلمين من عرب وبربر.

بلغ عدد جيش عقبة عشرة ألاف مقاتل وسارفى طريقه مستخدما

أسلوب السرية فى تحركاته حتى يكسب معركته مع العدو بأيسر سبيل.

وقد تمكن فعلا من التقدم حتى وصل إلى غدامس فى أقصى الغرب من فزان.

ثم اتجه بعد ذلك متقدما ناحية الغرب إلى منطقة اختارها لتكون مقراً للقيادة العربية ومستقرا وأطلق عليها اسم القيروان. وشرع المسلمون فى بناء المسجد وبناء المساكن حول المسجد واستمرت حركة البناء فى القيروان التى لم تبعد عن الساحل غير ثلاثين كيلو متر وهى كافية لأعطاء الأمان للمدينة من العدو القادم من البحر، وهى فى نفس الوقت على طرق المواصلات الرئيسية بالأقليم.

وفى عام ٥٥هـ/٦٧٤م عزل عقبة من منصبه فى ولاية أفريقيا. وكان مسلمة بن مخلد قد تولى الإمارة على مصر والمغرب عام٤٧هـ/٦٦٧م ومسلمه هو الذى رشح أبا المهاجر دينار لولاية أفريقيا عام ٥٥هـ/٦٧٤م.

بدأ أبو المهاجر دينار حملته للجهاد يقود حملة كبيرة لرفع راية الإسلام ففتحت شريك وهى جزيرة تقع بين سوسة وتونس ثم اتجه إلى تلمسان وحارب قبيلة أوريه من البرانس وزعيمها كسيله الذى وقع فى الأسر ثم أعلن اسلامه. وقد استخدم أبو المهاجر سياسة المهادنة مع البربر وأحسن معاملتهم مما شجع الكثيرين على الدخول فى الاسلام. وقد اعتمد أبو المهاجر دينار على المرونة السياسية فى تعامله مع ابربر دون القوة العسكرية، ونجح فى سياسته التى أثمرت فانضم البربر وزعيمهم كسيله إلى العرب ضد البيزنطية فقوى بهم العرب بعد مادخلوا فى الإسلام، واندفع العرب والبربر إلى تلمسان ففتحوحا وبذلك سيطر العرب على المغرب

الأوسط حتى تلمسان.

وفى عام ٦٢هـ/٦٨١ م عزل أبا المهاجر من ولايته وحل محله عقبة بن نافع فى ولاية أفريقيا للمرة الثانية فى عهد الخليفة الأموى يزيد الأول.

أنشأ عقبة بن نافع القيروان فى فترة ولايته الأولى لأفريقيا ونمت القيروان حتى أصبحت قاعدة حربية يتوسعون منها جنوب المغرب لاستكمال فتحه. وفى الفترة الثانية من ولاية نافع انطلق متجها عبر الطريق الداخلى بعيدا عن الساحل واشتبك مع الروم حتى اضطرهم إلى الفرار وتمكن من فتح حصون باغاية وأذنه قاعدة الزاب وغنم الكثير منها.

ثم اتجه إلى الساحل ليصل إلى بلاد المغرب الأقصى. فأصبح أول من وطأ بقدمه أرضه ثم اتجه إلى طنجة فرحب به يليان حاكم المدينة وقدم فروض الطاعة.

ثم اتجه عقبة بعد ذلك إلى مدينة وليلى ثم إلى درعة والسوس وحارب البربر وهزمهم، ثم واصل مسيرته حتى بلغ المحيط. ولم تشغله حروبه عن بناء المساجد لكى تكون مركز اشعاع دينى بين الأهالى من البربر وتعليمهم قواعد الدين الجديد.

وجعل العرب للمغرب نوعا من الوحدة السياسية تقودها القيروان، تلك القاعدة الإسلامية التى صارت قبله سكان المغرب جميعه يتجهون إليها طلبا للعلم ومشاركة لها فى يسرها ورخائها.

فلقد لعبت القيروان دورا نشطا فى تاريخ المغرب وتوجيهه فقد كثرت مواردها وتعددت كما كانت لها موانيها المطلة على البحر المتوسط. فقد

كان لها موقعها الجغرافى الممتاز وقربها من طرق المواصلات.

إلا أن حركة عصيان تزعمها كسيله بن لمزم الأوربى ضد المسلمين فتربص بعقبة بن نافع بقصد الايقاع به بسبب سوء معاملة عقبة لكسيله وهو زعيم فى قومه فارتد عن الاسلام، وتقابل مع عقبة وهو فى جيش كبير وعقبة فى كتيبة صغيرة ووقع القتال بينهم واستشهد عقبة فى مكان يقال له تهوده وأقاموا بها مسجدا ضم رفاته وعرفت المنطقة باسم سيدى عقبة.

وتولى بعد استشهاد عقبة بن نافع زهيرين قيس، وهو من كبار القادة، وحاول دفع المسلمين للاستمرار فى المقاومة والهجوم إلا أن الرأى المعارض تغلب فى النهاية واضطر زهير إلى الانسحاب من القيروان عائدا بالجيش إلى برقة ويقى بها انتظارا للتعليمات.

على أن الأعمال الحربية للمسلمين توقفت مدة خمس سنوات نتيجة لاضطراب الأحوال فى المشرق..

وفى خلافة عبد الملك بن مروان صدرت التعليمات من الخليفة عبد الملك إلى زهير بن قيس وهو فى برقة لتولى القيادة استعدادا لمواصلة القتال واستعادة القيروان، وبعث الخليفة بالامدادات الحربية من الخيل والجنود. وجمع زهيرالمقاتلين الذين معه وانضم إليهم من جاء من مصر وتجهزوا جميعا لقتال كسيله ومن معه من البربر والبيزنطيين، وهنا أسرع كسيله بالخروج من القيروان بعد مابلغه من أنباء الامدادات والحشود الاسلامية فى برقة متجها إلى ممس وهى على بعد قليل من القيروان وقريبة من الجبال فضلا عن كثرة المياه بها، وجعلوا من الجبال حصنا لهم فى حالة

الهزيمة.

خرج المسلمون من برقة بقواتهم واتجهوا إلى القيروان وبقوا بها أياما للإستعداد للمعركة القادمة، ثم اندلق الجيش يقوده زهير إلى ممس مقر كسيله، وبدأت المعركة واشتد القتال بين الفريقين وسقط كثير من الجانبين ثم انهزم العدو وقتل كسيله. فضعف جنده وفروا من ميدان المعركة. وقد استرد المسلمون قوتهم وارتفعت معنوياتهم بعد هذه المعركة.

أما برقة فقد أدرك البيزنطيون خلوها من الجند وأسرعوا بالدخول إليها عن طريق البحر، ولم تستطع المدينة المقاومة مما لحق بها من اعتداء إلا أن كثرة جموع المهاجمين تغلبت على القلة المدافعة وسقط زهير شهيدا فى المعركة .

بعد استشهاد زهير كلف الخليفة عبد الملك بن مروان القائد حسان بن النعمان لولاية أفريقيا وقيادة جيوشها ووصل حسان إلى أفريقيا يقود جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل.

وفى عام ٧٤هـ/٦٩٣م وصل حسان إلى القيروان وبدأ بجمع المعلومات حتى علم أن البيزنطيين قد حشدوا جموعهم فى قرطاجة فى الطرف الشمالي من (تونس حاليا) وهى عاصمتهم فى أفريقيا. فأعد حسان عدته لقتالهم فى مركز تجمعهم واشتبك معهم فى قتال عنيف اضطر كثير منهم إلى الانسحاب من المدينة فرارا إلى البحر.

وتمكن المسلمون من دخول المدينة فاتحين ثم تتبعوا من انسحب منهم فى نواحى البلاد فاتجهوا إلى بنزرت، وتغلبوا على من بها من المدافعين

من البيزنطيين والبربر.

وبعد فترة هدوء واستجمام أعد المسلمون أنفسهم لمواجهة شرسة مع البربر الذين تزعمتهم الكاهنة وهى من قبيلة جراوة من البتُر، عرفت هذه المرأة بالبراعة فى فنون السحر وبلغت حد الزعامة التى دامت نحو خمسة وثلاثين عاما فى جبل أرواس مقر إقامتها.

التقى المسلمون والبربر تقودهم الكاهنة فى وادى مسكيانه وتقاتل الفريقان وتكاثر البربر وتمكنوا من التغلب على المسلمين وهزيمتهم واضطر حسان إلى الانسحاب بجنوده واستمر فى الانسحاب حتى مجانه فأقام بها ثم تركها واتجه إلى مكان آخر يتحصن به، ثم تقابل الفريقان مرة أخرى فى مسكيانه واقتتلوا جميعا فانهزم المسلمون وأسرعوا إلى الانسحاب بعد أن تمكنت الكاهنة من أسر جماعة من المسلمين.

عمدت الكاهنة إلى خطة جديدة لها بقصد إضعاف المسلمين وإرغامهم على الانسحاب من جميع البلاد. فقامت بحركة تخريب للمزروعات وخلع الأشجار وهدم ا لحصون.

إلا أن الكاهنة لم تصل إلى ماهدفت إليه بفعلها السلبى فى الهدم والتخريب إذ أن ذلك أصاب الأهالى بالفزع واضطروا إلى اللجوء إلى المسلمين يستنجدون بهم لما وقع عليهم من أضرار بالغة وقد استفاد المسلمون من تحول موقف سكان تلك البلاد من صفوف الكاهنة إلى صفوف الفاتحين.

وبدأ حسان يعمل على الاستعانة بأهل البلاد واتجه بعد ذلك إلى قابس

وعين عليها واليا يتبعه ورحب به أهلها.

ثم اتجه إلى قفصة واستولى عليها وعلى قسطيليه ونفراوه ووردت الأمدادات من مصر بعد تلك المعارك وجمع حسان جنوده واتجه إلى لقاء الكاهنة مرة أخرى ووقعت معارك ضارية انتهت بمقتل الكاهنة عند بئر عرف باسم الكاهنة بعدها.

مكنت هذه المعركة التى انتهت بمقتل الكاهنة المسلمين من القضاء على مقاومة البربر فى أفريقيا جميعها كما قضت على مقاومة البيزنطيين من قبل. واستقامت لحسان البلاد.

ثم بدأ حسان حركة تعمير فأسس مدينة تونس على بعد اثنى عشر كيلو متر من قرطاجة، وبنى دار صناعة لانشاء الأسطول المغربى وأتى بالعمال من مصر بأهلهم لتنفيذ خطته العسكرية ونظم إدارة الحكم.

على أن حسان بن النعمان لم يتمتع بثمرة هذا النصرفسرعان ماحقد عليه عبد العزيز بن مروان والى مصر وأسند إلى موسى بن نصير عام ٨٥هـ/٧٠٤م ولاية أفريقيا بدلا منه.

قدم موسى بن نصير إلى أفريقيا ونزل بالقيروان وكله عزم وإصرار ليبسط سلطان المسلمين على أفريقيا كلها، وبعد أن نشر جنوده للحراسة فى القيروان ونواحيها عمد إلى القلاع والحصون لفتحها وبدأ بقلعة زغوان على مسيرة يوم من القيروان ففتحها، تمهيدا لفتح المغربين الأوسط والأقصى.

وأتم فتح المغرب الأوسط ثم اتجه بجنوده إلى المغرب الأقصى فوصل طنجه وولى عليها طارق بن زياد ثم اتجه إلى السوس الأدنى والبربر

يفرون هربا منه ثم أسرعوا إليه يطلبون منه الأمان وقدموا له الطاعة.

واستمر موسى فى تقدمه فى بلاد المغرب الأقصى وأخضع هوارة وزناته وصنهاجه وكتامه ونشر الإسلام بينهم وأقبلوا على الدين الجديد بحماس بالغ وانتشر الأمن فى جميع الأنحاء.

لقد تمكن موسى بن نصير من تقريب الإسلام إلى البربر وحببهم فيه فنجح المسلمون فى بسط نفوذهم على كل المغرب الأقصى.

ثم اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى تقسيم المغرب لخمس ولايات هى برقة وأفريقيا وتشمل (تونس وطرابلس) والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس (سجلماسه) واستقلت كل من ولاية برقة وطرابلس فى شؤنهما الداخلية فعمل ذلك على تشرب الأفارقة لتعاليم الإسلام ودخل فى قلوبهم فأخلصوا لهذا الدين الجديد. ثم استكمل هذا الدور الخليفة عمر بن عبد العزيز فبعث بكبار العلماء إلى بلاد المغرب فتحول المغرب إلى دار للإسلام فى جميع أرجائه. واستمرت أحوال المغرب على هذا المنوال مادام الحكام العرب يسيرون على نهج الإسلام فى المساواة بين العرب والبربر دون تفرقة فى المعاملة بينهم.

فلما تبدلت سياسة الولاة من النقيض إلى النقيض وفرقوا بين العرب والبربر فى المعاملات قامت الثورات وخرج البربر عن طاعة العرب.

ومنذ ولاية عبيد الله بن الحبحاب للمغرب فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٢م) ونزلوا بالقيروان عام ١١٦هـ/٧٣٤م وجهز الحملات الحربية لتأمين البلاد فى جميع الأنحاء. إلا أنه سار على

سياسة مخالفة لما سار عليها الولاة الأتقياء، ففرق فى المعاملة بين العرب والبربر فكان لسياسته هذه أسوأ الأثر فى نفوس البربر فقامت الثورات وناهض البربر العرب وتحولت المعارضة للعرب إلى نزاع مسلح مما ترتب عليه انفصال المغرب الأقصى عن الخلافة فى دمشق الأمر الذى ترتب عليه ظهور المذاهب الدينية التى فرقت ليس بين العرب والبربر فحسب وإنما بين العرب أنفسهم.

المذاهب والعقائد:

لقد تذمر البربر من أن العمال العرب صاروا يعاملونهم معاملة الخدم الذين يلزمهم أداء الجزية مع أنهم مسلمون صادقون فى إسلامهم ويشتركون فى الجهاد متحمسين لذلك تغيرت نفوس البربر وصارت تربة خصبة لدعاة الخوارج الذين جاءوا من المشرق لبذر بذور مبادئ الخوراج بين البربر.

لقد لجأ البربر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك يسألوه أن يرفع عنهم مايشكون منه، ولكن لم يوذن لهم فى الدخول عليه، فرجعوا وهم يشعرون بخيبة الأمل وهنا أدرك البربر أن الخوارج على حق فيما يقولونه من أن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر الخليفة نفسه، وأن الخليفة بسبب جشعه للحصول على الأموال هو الذى يكرههم على أن يمتصوا دم الرعايا.

ولهذا ثار البربر ثورة مريعة بقيادة أحد الخوارج امتدت من مراكش إلى القيروان. وتبين أن أمراء أفريقيا غير قادرين على أن يفعلوا إزاء هذه الثورة شيئا.

وفى عام ١٣٢هـ/٧٤١م ظهرت فى ميدان القتال بالمغرب الأقصى

جحافل خيل الشام وكان على رأسهم كلثوم بن عياض عامل دمشق. ولكن على الرغم من قوة شكيمتهم فى القتال هزموا أمام فرسان البربر الذين كانوا أشبه بالعراة وقتل كلثوم فى معركة كبيرة عند نهر نوام.

لقد استطاع البربر باسم الاسلام أن يضربوا العرب فى المغرب أشد ضربة وإن كان العرب قد أحرزوا نصرا فى السنة التالية واستطاعوا بفضله أن يستولوا على القيروان وأن يثبتوا أقدامهم فيها.

الخوارج والبربر:

الخوارج جماعة ظهرت بظهور الخلافات التى قامت بين الخليفة على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان. خرج جماعة من جنود على بلغ عددهم أثنا عشر ألف رجل وعسكروا فى حروراء فسموا الخوارج أو الحرورية وجعلوا شعارهم «لاحكم إلا لله»، ونادوا بالمساواة بين الناس، فقوى امرهم واشتد.

استشهد على بن أبى طالب بيد خارجى عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م وقامت الدولة الأموية، واعتلاء معاوية كرسى الخلافة فاعترض الخوارج حيث رفضوا خطته السياسية المغايرة لسياسة الخلفاء الراشدين من قبل.

قام الصراع بين الأمويين والخوارج وانضم الخوارج إلى معارضى معاوية، ووقفوا مع ابن الزبير ضد الأمويين ثم اختلفوا مع ابن الزبير وانفصلوا عنه واتجهوا إلى البصرة وكان منهم عبد الله بن أباض، ونافع بن الأرق، وعبد الله بن صفار.

ولما قضت الدولة الأموية على الحركة الزبيرية اتجهوا للخوارج

وتمكنوا من القضاء عليهم إلا أنهم اتخذوا من جنوب شبه الجزيرة العربية مقر لنشاطهم المذهبى وازداد نشاط الخوارج فى أرجاء الدولة الإسلامية.

قامت الثورة فى المغرب الأقصى عام ١٢٢هـ /٧٣٩م كما قامت الأباضية التى انتشرت فى إقليم طرابلس وجبل نفوسه وتعقبهم عبد الرحمن بن حبيب منذ عام ١٢٦هـ/٧٤٣م حتى علم أن رئيسهم فى طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبى فبعث إليه أخاه إلياس فقتله فبايع الأباضيون الإمام الحارث بن تليد الحضرمى عام ١٣٠هـ/٧٤٧م وقويت الأباضية حتى صار إقليم طرابلس وامتداد إلى قابس فى تونس تابعا للأباضية، ثم اغتيل الحارث ومعاونه عبد الجبار فى عام ١٣٢هـ/٧٤٩م ثم تغلب الأمويون على الأباضية.

ومع تطور الأحداث بالمشرق وقيام صراع دموى بين الأمويين والعباسيين انتهى باستشهاد مروان بن محمد أخر خلفاء بنى أمية، وعلى أنقاض الأمويين قامت الدولة العباسية فى عام ١٣٢هـ/٧٥١م.

العباسيون والأباضية:

اختلف حبيب بن عبد الرحمن الوالى للدولة العباسية على أفريقيا مع قبيلة ورنجومه وتولى عبد الملك بن أبى الجعد بعد مقتل عاصم بن جميل زعيم ورفجومه. واستخدام ابن أبى الجعد القسوة فى معاملة سكان القيروان وخاصة العرب وأباح لجنوده الاعتداء على الأموال والمقدسات الإسلامية.

وفى ظل تلك الظروف المواتية للأباضية اتفق الأباضية من عرب وبربر فى منطقة طرابلس وجبل نفوسه أن يعملوا على إقامة إمارة مستقلة

لهم ينتظمون فيها شئونهم بما يتفق مع تعاليمهم ومبادئهم واختاروا لهم إماما اشترطوا عليه أن يسير على نهجهم، وسار الأباضية بعيدا عن الأضواء وفى سرية تامة حتى ظهور أبوالخطاب عبد الأعلى المعافرى وأرادوا الظهور بالدعوة إلى العلانية.

وفى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م لجأوا إلى أبى الخطاب عبد الأعلى السمح المعافرى وهو من قادة العرب وأباضى المذهب لينقذهم مما حل بالقيروان.

أسرع أبو الخطاب بالدعوة بين العرب والبربر أتباعه إلى الدفاع لنصرة الإسلام ومحاربة ورفجومه الظالمة المناهضة للإسلام فاجتمع حوله جموع القبائل وهواره وهى من أكبر القبائل البربرية ثم انطبق إلى القيروان، ودارت رحى القتال بين الأباضية وابن أبى الجعد وانضم أهل القيروان إلى الأباضية بسبب مالاقوة من قهر ورفجومة وانتهت المعركة بانتصار أبى الخطاب وقتل عبد الملك بن أبى الجعد واستولى عبد الأعلى الأباضى على القيروان.

بدأت المعركة الأباضية السرية يقودها أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة وهو الذى عمل على تشكيل جماعة سرية تعمل على نشر مذهب الأباضية، وخصص مدارس لتخريج الدعاة وأطلق عليها حملة العلم، وبهؤلاء انتشرت الأباضية، فى أنحاء العالم الإسلامى حتى وصلوا إلى المغرب.

وفى المغرب دعا سلمة بن سعد الحضرمى إلى المذهب الأباضى وعمل على تشجيع أتباعه بالرحيل إلى المشرق العربى للتفقه فى أصول الدعوة وتعلمها من شيخ الأباضية وإمامهم فى البصرة وهو أبو عبيد مسلم بن أبى كريمه التميمى.

وممن برز من طلاب الدعوة الأباضية عبد الرحمن بن رستم من القيروان.

وقد تمكن العباسيون من محاربة الدعوة الأباضية، وقتل أبا الخطاب المعافرى فى عام ١٤٤هـ/٧٦١م فى معركة تاورغا من أرض سرت بطرابلس.

تولى عبد الرحمن بن رستم ولاية القيروان بتكليف من أبى الخطاب الذى غادرها إلى طرابلس - واستطاع عبد ا لرحمن بن رستم أن يضم كثيرا من الأتباع وتحالف مع القبائل البربرية وتحالف مع قبيلة لماية من البتر.

ولما حارب العباسيون الأباضية فى طرابلس وتغلبوا عليهم وبلغ عبد الرحمن بن رستم مقتل أبى الخطاب فى معركة مع العباسيين وكان متجها إليه فى طرابلس غير إتجاهه وسارع إلى تاهرت بالمغرب الأوسط حيث أسس الدولة الرستمية هو وأولاده واستمرت نحو مائة وخمسين عاما.

ويرجع ذلك إلى أن الأباضية رأوا أن تكون لهم دولة تحميهم وتذود عنهم.

اتفق الأباضية ومنهم قبائل لماية وهواره وزواغة ومطماطة وزناته ومكناسه على أن يجعلوا عبد الرحمنبن رستم إماما لهم، واجتمعوا على إقامة مدينة تاهرت وشرعوا فى بناء المدينة عند سفح جبل جزول، حيث المكان شديد الحصانة وحاول العباسيون اللحاق بعبد الرحمن بن رستم إلا أنهم فشلوا فى خطتهم.

وقع الاختيار لبناء مدينة تاهرت غربى الجزائر قريبا من مدينة تاهرت التى عاصرت الدول السابقة من الرومان والبيزنطيين، وهى منطقة غابات صالحة للزراعة ولكنها تسكنها الوحوش، إلا أن ذلك لم يثنهم عن الاستقرار والعيش بها خاصة وأن المياه تجرى فيها بصفة دائمة من نهرين الأول يسمى نهر مينه والآخر يأتى بالمياه من عيون تاتسن.

لم تكن هذه الأرض خالية من السكان فقد سكنها جماعة من مرداسة وصنهاجه البربرية، وقد تعايشوا مع الأباضية فى وئام، ولم تستأنس الوحوش تلك المنطقة بعد ما ازدحمت بالسكان وهجرتها إلى غير رجعة.

وهكذا اطمأن الأباضية لمباشرة حياتهم فى أمان، وبايعوا ابن رستم إماما لهم فى عام ١٦٠هـ/٧٧٦م . ثم بدأ الأباضية فى بناء المسجد وألحقوا به مصلى للجنائز كما أنشأوا سوراً حول المدينة وخصصوا له أبواب وبذلك صارت المدينة محصنة من الأعداء. ثم بدأ رستم فى تثبيت أركان دولته ووضع الخطط لنظام الحكم والإدارة مما ساعد على رسوخ واستقرار الأحوال للدولة الجديدة.

وترتب على ماتقدم أن مدينة تاهرت صارت كعبة للقصاد من أهل المشرق والمغرب ومن الأندلس.

كما دخلها التجار ورجال الأعمال ورجال الصناعة والأدباء والفنانين مما ساعد على نمو المدينة وازدهارها فى مختلف النواحى من عمران وزيادة ثرواتها.

بعد ذلك عمد عبد الرحمن بن رستم إلى تشكيل مجلس من سبعة أفراد

لاختيار خليفة من هؤلاء السبعة وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم فى عام ١٧١هـ/٧٨٧م وقع الاختيار على ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ليكون خليفة لوالده عبد الرحمن وواجهته معارضة لإمامته إلا أن عبد الوهاب تمكن من التغلب عليها وبقى إماما للأباضية حتى عام ٢١١هـ/٨٢٦م.

وقد خالف الأباضيون أنفسهم حين جعلوا الإمامة وراثية، وهذا يناقض إنكار النظام الوراثى للخلافة، ولذلك حدث الانشقاق فى صفوف الأباضية وظهرت فيهم طائفة النكارية التى خرجت على الأباضية. وأنكرت إمامة عبدالوهاب الوراثية، إلا أنه قضى عليها وانضم جبل أوراس إلى الأباضية. ولما عاودت المعارضة نشاطها فشلت وتغلب الأباضيون على الثورة التى قتل قائدها وتفرقت أتباعه.

وبعد وفاة عبد الوهاب خلفه فى الإمامة ابنه أملح بن عبد الوهاب الذى استطاع أن يقود البلاد بأمان حتى ارتقت أحوال الدولة الرستمية ونمت حضارتها للغاية.

وتتابعت قيادة الدولة الأباضية فى أحفاد عبد الرحمن بن رستم حتى جاء الإمام اليقظان بن أبى اليقظان محمد وفى عهده انهارت الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م.

أما الأباضية الذين فى طرابلس فقد خضعت للعباسيين وبقى يسودها الهدوء والاستقرار حتى عام ١٧٠هـ/٧٨٦م نهاية ولاية يزيد بن حاتم المهلبى الذى ضم إقليم برقة إلى مصر. ثم صارت ولاية المغرب إلى روح بن حاتم. واستمرت الأحوال فى هدوئها حتى عام ١٨١هـ/٧٩٧م. ثم

تحولت الولاية للمغرب إلى إبراهيم بن الأغلب التميمى.

ظهرت دولة الأغالبة فى أفريقيا (تونس) نتيجة للسياسة التى سار عليها الخليفة العباسي الرشيد فى بلاد المغرب وهى العمل على إخماد ثورة البربر والوقوف فى وجه الأدارسه فى حالة تمردهم ضد العباسيين فعهد العباسيون بولاية أفريقيا إلى ابراهيم بن الأغلبى عام ١٨٤هـ/٨٠٠م .

عمل إبراهيم بن الأغلب على ضبط الأحوال وبنى مدينة العباسة بجوار القيروان.

ولما صارت طرابلس تابعة للأغالبة عينوا عليها عمالا من قبلهم فقامت الثورات الأباضية فى طرابلس ويمدهم إخوانهم فى تاهرت بالإمدادات لمساعدتهم على المقاومة.

وفى عام ١٩١هـ/٨٠٦م ثار الأباضيون فى طرابلس فى عهد واليها ابراهيم بن الأغلب ولكنه تغلب على الثورة وفى عام ٢٦٥٠هـ/٨٧٨م ثار بإقليم برقة عباس بن أحمد بن طولون ضد أبيه والى مصر وجعل من برقة قاعدة له.

ثم قام بحملة عسكرية لمهاجمة طرابلس إلا أنه هزم فى المعركة ثم تغلب عليه أبوه فى عام٢٨٦هـ/٨٩٩م وولى على برقة واليا من قبله فقام بتدارك ماحدث من أخطاء بها.

وفى عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م ثار الأباضيون فى جبل نفوسه ضد الأغالبة إلا أن ابراهيم بن أحمد الأغلبى قضى عليها.

ولما عمل الأغالبة على الاستقلال بحكم المنطقة، وجعلوها وراثية فى

أبنائهم، ولم تكن للخليفة سوى الخطبة والدعاء على المنابر، واحتفظ الأغالبة بالسلطة الحقيقية وإدارة البلاد فى أيديهم، واستمرت على ذلك مدة قرن وتمكنوا خلالها من تدبير الأمور كأحسن مايكون حتى تربص بهم الفاطميون وقضوا على دولتهم فى عام٢٩٦هـ/٩٠٨م.

حاولت الدولة الفاطمية فى عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م بسط سلطانها على طرابلس واستولت عليها ثم قامت بإرسال جيش إلى برقه واستولت عليها من العباسيين، ولأن الولايتين برقة وطرابلس على غير المذهب الفاطمى،حيث برقة سنية تأخذ بمذهب المالكية وطرابلس تتبع الأباضية ولذلك عارضت كلاهما سيطرة الفاطميين عليها وقامت طرابلس فى عام ٢٩٩هـ/٩١١م بالثورة ضد الفاطميين ونكلوا برجال كتامة أتباع الفاطميين فأرسل الفاطميون حملة عسكرية برية وبحرية وحوصرت طرابلس حصارا اضطر أهلها إلى طلب الصلح. وهدأت الأحوال فى طرابلس وأذعنوا السلطان الفاطميين.

ثم ثارت برقة فى عام ٣٠٤هـ/٩١٦م فعاقبها الفاطميون بقسوة. وفى عام ٣١٠هـ/٩٢٢م ثار الأهالى الأباضية فى جبل نفوسه ضد الفاطميين فلم يمهلهم الفاطميون وأنزلوا بهم شر هزيمة.

وهكذا ظلت الأحوال فى ليبيا حتى جاء عام ٣٦١هـ/٩٧١م فانتقل الفاطميون إلى عاصمتهم الجديدة فى مصر وأنشأوا القاهرة التى صارت عاصمة للدولة الفاطمية.

واستخلف الخليفة الفاطمى المعز، بلكين بن زيرى زعيم صنهاجه نائبا له على أفريقيا (تونس) والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وجعل

الفاطميون من ولايتى برقة وطرابلس ولايتين تابعتين للدولة الفاطمية بالقاهرة.

وفى عام٣٦٧هـ/ ٨٨٠م جعل الخليفة المعز تبعية طرابلس إلى بلكين الصنهاجي وصار الولاة فى طرابلس تابعين إلى بلكين ومن بعده أبنائه المنصور ثم باديس. وفى عام ٣٩٠هـ/٩٩٩م وفى ولاية عسيله بن بكار من قبل باديس الصنهاجى قام هذا الوالى بتسليم طرابلس إلى يانس الصقلى حاكم برقة فأسرع باديس بارسال جيش لحصار طرابلس وعندئذ قام رجل من زناته يدعى فلفل بن سعيد بحركة سياسية بارعة تمكن خلالها من الاستيلاء على طرابلس وأقام بها دولة بنى خزرون. وتحولت طرابلس بفضل جهود أهل طرابلس وفلفل الزناتى من المذهب الفاطمى الشيعى إلى المذهب السنى، وظل الحال على ذلك حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى.

أما إقليم برقة فقد تخلى عنه الفاطميين وحكمها بنوقرة.

وفى عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م خرج المعز بن باديس عن طاعة الفاطميين وقطع خطبة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وأعلن ولاءه للدولة العباسية استجابة لشعوب البلاد المغربية التى تأخذ بالمذهب المالكى، فحقد عليه الفاطميون، فكتب إليه المستنصر الفاطمى يتهدده وقال له هلا اقتضيت أثار أبائك وأجدادك فى الطاعة والولاء لنا؟

فأجاب « إن أبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك. ولو أخرتهم لتقدموا بسيوفهم واستمرعلى قطع الخطبة، فاستعظم الخليفة هذا الأمر ورأى أنه أصبح بين نارين،قد اعتوره عدوان قويان فإن رضى بهذا

الخروج سقطت هيبة حكمه وزلزل سلطانه، وإن هو حاربه خاف العباسيين فسكت مرتقبا الفرص وسوانح الحظوظ.

ومضى على ذلك زمن وهو يدارى الأمور بالصبر ويداورها بالحيلة، بالرغم من موقفه الحرج.

فلما استوزر الخليفة أبا محمد اليازوى وكان بينه وبين المعز ماكان من الجفاء. فكر فى اقناع القبائل العربية ليقذف بهم إلى المغرب فانتدب مكين الدولة بن ملهم لعقد الصلح بين زغبة ورياح وسليم وهلال وغيرهم إذ كان بينهم حروب متواصلة وأحقاد متوارثة ومنافسات على الزعامة متأصلة فتم له ذلك، وأحضر رؤساءهم عند الوزير اليازودى فنفحهم بالعطايا وخلع عليهم خلعا سنية،وأنعم عليهم إنعامات كثيرة وزودهم بالوصايا القيمة ووعدهم بالمدد والعدد وأمرهم بقصد بلاد أفريقيا على أن يكون كل مافتحوه إقاطعا لهم، فنشط العرب وساروا إلى أفريقيا عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م.

وكتب اليازوى إلى المعز «أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولا وحملنا عليها رجالا كهولا، ليقض الله أمرا كان مفعولا».

وهنا يظهر أن اليازورى أعلن الحرب على ابن باديس بإرساله العرب، وتأييده لهم بهذه الرسالة، وربما يقال إنها كانت رسالة شخصية لما بينهما من المنافسات السياسية السابقة.

فلما وصل العرب إلى أرض برقة وصلوا بها وطووا ماولاها، وجدوا بلاد كثيرة خصبة المرعى، خالية من الأهل، لأنها كانت ملك زناته البربرية التى أبادهم وعسف بهم المعز فأقام العرب واستوطنوها وعاشوا فى

أطراف البلاد. فتقاعدت قبائل صنهاجة عن مقاومتهم تجنبا لشرهم، ولأنهم كانوا على خلاف مع المعز. فلما علم المعز بقدوم العرب احتقرهم ولم يبال بتخاذل صنهاجة لأنه كان يملك ثلاثين ألف مملوك كلهم ينعم فى واسع عطائه فأهملهم وشأنهم فتقدم العرب وملكوا طرابلس عام ٤٤٦هـ/١٠٥٢م فتسامعت القبائل وأخذ الوزير يتابع إرسال النجدات إليهم من القبائل العربية مثل الأثبج وعدى وبقايا رياح وزغبه فقوى شأن العرب وقطعوا السبل، وأرادوا أن يتقدموا إلى القيروان عاصمة البلاد فمانع الأمير مؤنس بن يحى المرداسى لأنه كره المبادرة وفضل خطة الكر والفر والعيث فى البلاد لإرهاب السكان وإخافة الحكومة، فسألوه ماذا يجب أن نصنع؟ فأخذ بساطا كبيرا وفرشه وقال لهم من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه فقالوا لانقدر على ذلك، فقال وهكذا القيروان خذوا من البلاد شيئاً فشيئاً، حتى لايبقى إلا القيروان ومن ثم حاصروها وخذوها. أما إذا حاصر تموها الآن فإن القبائل التى تسكن فى أطرافها وتحيط بها يضايقوكم ويتخطفون أبناءكم. فقالوا له أنت شيخ العرب وأميرها.

وأنت المقدم علينا ولانقطع أمرا دونك.

وهنا طلب المعز أن يجتمع بالعرب فاتفقوا على أن ينتدبوا من رؤسائهم وفدا إليه ليسبروا غوره وليقفوا على دخيله أمره، فذهبوا إليه وقابلوه فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً. من العطايا والمنح، آملا أن يدفعهم بالحسنى ويخدعهم بالمال، فلما خرجوا من عنده، ذهبوا إلى قومهم وحرضوهم على الحرب وقابلوا عطاياه بالعنف وشنوا الغارات وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم فاحتلف المعز بالأمر ورأى أن هذه الغارة الطارئة أصبحت فتحا واحتلالا.

وجمع عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلهم مشاه وسار بهم إلى جبل جندران الذى يبعد مسيرة ثلاثة أيام من القيروان.

فلما رأى العرب عساكر صنهاجه والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم الأمر عليهم لأنهم كانوا أقل من ذلك فقال لهم الأمير مؤنس ماهذا اليوم يوم فرار ولايوم تخاذل، وإنما هو يوم صبر ونصر.

التحم الجيشان، واشتد القتال، واستعرت الحرب وثبتت أقدام العرب وانهزمت صنهاجه لأنها كانت غير راضية عن المعز وكانت غير صادقة النية.

وبقى المعز مع عبيده ومماليكه يبتلون بلاءهم فثبتت أقدامهم ولم يتزحزهوا فقتل منهم خلق كثير فخجلت صنهاجة من هزيمتها، فى حين أن العبيد والمماليك ثبتوا، وحاولت تسترد هيبتها وكرامتها فجربت أن تلف وتنطوى على العرب من ورائهم فلم يستطيعوا لأنهم أتوا متأخرين وقتل منهم عدد عظيم، فتراجع المعز إلى القيروان مهزوما على كثرة من معه من جنود محاربين، وغنم العرب الخيل الكثير والخيام ومافيها من مال ومتاع.

ثم جمع المعز جموع زناته وصنهاجة وخرج بنفسه لمحاربة العرب والقضاء عليهم، فلما أشرف على منازلهم جنوب جبل جندران نشب القتال واشتعلت نيران الحرب وكان عدد العرب سبعة آلاف، فانهزمت صنهاجة وولى كل منهم إلى منزله وانصرفت زناته وثبت المعز فيمن معه من العبيد ثباتا عنيدا حتى خارت قواهم فانسحب المعز إلى المنصورية.

ثم هاجم العرب المنصورية ورقاده ورأى المعز أن يسمح للعرب بدخول القيروان، وجعل لهم سوقا ليشتروا منه ماأرادوا ويبيعوا مما فاض معهم وفقا لما هو متبع فى ذلك الحين بين المتحاربين.

فلما وصل العرب القيروان لم تراع العامة هذه القواعد واستطالت على العرب ووقعت المشاجرات التى انتهت بانتصار العرب ودخولهم القيروان عام ٤٤٩ هـ/١٠٥٧م وانسحب المعز بن باديس إلى المهدية.

أما العباسيون الذين بايعهم المعز بن باديس فلم يقدموا إليه أية مساعدة لبعد المسافة وتعذر المواصلات وللاختلال الداخلى الذى هدد كيان الدولة.

وبقى العرب لهم الزعامة فى أفريقيا وطرابلس واستقرت زغبة ورياح فى برقة وطرابلس، كما استقر بنو هلال وسليم فى منطقة تونس وما يليها غربا.

فكان لسليم الشرق ولهلال الغرب وانحصر سلطان الدولة الزيرية المحدودة جدا فى المنطقة الساحلية المحيط بعاصمتهم المهدية.

وقد استمرت الدولة الزيرية الصنهاجية بعد ذلك مايقرب من مائة عام بفضل مهادنتها للقبائل الغربية .

وقود العرب حتى تمكنوا من السيطرة على قبيلة صنهاجة ثم قبيلة زناته وأخضعوا لسلطانهم القبيلتين، ولكنهم لم يؤسسوا لهم دولة وظلوا على رقامتهم فى السهول. وكونوا لهم بعض الإمارات الصغيرة مثل أسرة جامع من دهمان من بنى على من بطون رياح التى أسست إمارة عربية بمدينة قابس ونجحت فى جعلها حاضرة صغيرة مزدهرة مليئة بالقصور والبساتين

والعمائر، كما عمل العرب على تعريب القبائل البربرية بالمغرب.

فإذا كانت الفتوحات الإسلامية الأولى نجحت فى نشر الدين الإسلامى واللغة العربية بالمغرب فإن الهجرات الهلالية قد جاءت لتضيف إلى ذلك الدم العربى وتعدل التكوين الجنسيوالعنصرى لسكان المغرب حتى أصبح العنصر البربرى القديم لايلتمس إلا فى معاقل الجبال ذات الطبيعة الوعرة، ولايميز إلا ببعض الظواهر اللغوية.

وأضافت هذه القبائل العربية إلى حضارة الشمال الأفريقى ملامح جديدة وظهرت أجيال من العرب والبربر أقوى وأشد شكيمة ومراسا.

لقد بقيت تلك القبائل العربية مسيطرة على أغلب أفريقيا (تونس) وطرابلس حتى ظهر المرابطون فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ثم أعقبهم الموحدون من بعدهم.

وقد شاركت القبائل العربية بأفريقيا ضمن قوات المرابطين التى عبرت الأندلس بقيادة يوسف بن ناشفين خلال جوازه الثالث فى عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م حيث جهز الجند من المرابطين والعرب والأندلس مثال ذلك وقعة كنسويجرا التى وقعت فى عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م وشارك العرب مع المرابطين ضد أعدائهم.

كما شارك العرب مع المرابطين فى موقعة أقليش عام ٥٠١هـ/١١٠٨م وكذلك شارك العرب مع المرابطين فى عام ٥١٣هـ/١١١٩م بعد استيلاء المسيحيين على قلعة أيوب فى شرق الأندلس وعبور على بن يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية لمحاربتهم.

ثم قامت دولة الموحدين وهى دعوة دينية إصلاحية طابعها التجديد وإعلاء راية الإسلام شامخة لتحقيق اتحاد إسلامى عالمى.

عمل الموحدون على ضم جميع العرب فى أفريقيا لمشاركتهم فى الجهاد ضد الأعداء فى بلاد الأندلس وقد لبى العرب النداء الموحدى.

وفى عام ٥٤١هـ/١١٤٦م دخل الموحدون يقودهم عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط فانضم إليه عرب الأثبج وجشم وبايعوه، فعقد لأبى خليل بن كسلان من عرب الأثبج ولحباس بن مشيغر على عرب جشم. ثم بدأ بالإستيلاء على بجاية بالمغرب الأوسط (الجزائر).

بدأت العلاقات بين غرب أفريقيا والدولة الموحدية بداية درامية عنيفة فقد عارض العرب الموحدين لرغبتهم فى الاحتفاظ باستقلالهم عن الدولة الموحدية. فعقدوا حلفا مع صنهاجة أفريقيا المجاورين لهم وهاجموا الجيش الموحدى وتمكنوا من هزيمته ثم قاموا بمحاصرة القيروان. ثم هجم موسى بن يحى الرياحى المرداسى على مدينة باجة واستولى عليها، وعندئذ اتجه إليهم عبد المؤمن على رأس جيش كبير بلغ تعداده ثلاثين ألف فارس. فقام حلف أفريقى من الأثبج وزغبه ورياح وبنو قرة يقودهم زعيمهم يحى بن عبد العزيز لمواجهة الموحدين فى بجاية.

وفى ناحية سطيف بدأ القتال بين عرب أفريقيا والجيش الموحدى فى عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م واستمر أربعة أيام فانهزم العرب أمام الجيش الموحدى وقد تركوا خلفهم أموالهمونساءهم وأولادهم وتعقبهم الموحدون حتى حصن تبسه بجبل الأوراس ثم عاد الموحدون إلى الغنائم فاستولوا عليها واحتفظ عبد المؤمن بالنساء والأولاد وجعلهم فى رعايته وأبلغ أمراء العرب بذلك

وأعلن لهم العفو العام.

وهنا أقبل إليه أمراء العرب وهم ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحمامس وابن زيان وأبو قطران وأبو عرفة والقائد ابن معرف فأعاد إليهم أهلهم فضلا عن المنح والأموال الكثيرة فتآلفت القلوب وصاروا إتحادا عربيا موحديا شاملا.

وبلغت دولة الموحدين من القوة إلى درجة السيطرة على الإمارات العربية فى أفريقيا فاستولى الموحدون على قابس من بنى كامل من رياح وقصه من بنى الورد، وطبرقة من مدافع بن علال وجبل زعوان من بنى حماد بن خليفة وشقباريه من بنى عماد بن نصر الله الكلاعى والأريس من بنى فتاته العربى وبنزرت من عيش بن مقرب بن طراد من بنى الورد اللخمى.

ثم بسط سلطانه على ليبيا وأفريقيا إلى المغرب الأوسط.

وفى عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م قسم تلك البلاد من ليبيا إلى المغرب الأقصى ووضع عليها الخراج فكان على القبائل من عرب وبربر تقديم ما عليها من الزروع والمواشى والأموال.

ولما خشى عبد المؤمن من احتمال عصيانهم أخذ ألفا من كل قبيلة بعيالهم من عرب بنى رياح وبنى جشم الموحدية. وجعلهم جنودا له يحارب بهم الأعداء من الفرنجة.

وفى عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م بادر الموحدون بالهجوم على النورمان وطردوهم من ساحل أفريقيا (تونس) وصارت المهدية تحت سلطانهم. وفى

نفس العام توجه وفد من طرابلس من كبار رجالها يتزعمهم ابن مطروح لمقابلة عبد المؤمن الخليفة الموحدى فرحب بهم، وخاصة بابن مطروح حاكم طرابلس الذى كان له فضل تحرير طرابلس من الحامية الصقلية وولاه طرابلس نيابة عنه.

ثم انتقلت أحوال العرب بعد ذلك من الصراع الداخلى إلى الوحدة والتماسك ثم الالتفاف حول الدولة الموحدية والتوجه تحت قيادتها لمواجهة الفرنجة بالبلاد الأندلسية.

وبسبب اعتداءات الفرنجة على عرب الأندلس توجه أبو حفص إلى الأندلس فى ٥٦٠هـ/١١٦٥م على رأس جيش شارك فيه العرب وشغلوا مقدمة الجيش بعدة آلاف من خير فرسانهم فى قتال لتحرير قرطبة من أبى مردنيس وتقابل الجيشان بحصن لك بنواحى قرطبة ودامت الحرب يوما كاملا كشف العرب فيه من الشجاعة مايفوق الوصف.

واضطر ابن مردنيس لإجراء تعديل فى خطة الحرب فقسم جيشه لثلاثة أقسام وجعل القسم الأول لمهاجمة العرب الذين فى مقدمة الجيش العربى الموحدى وثبت العرب ثبوتا قويا مكن الفرق الأخرى من الجيش الموحدى من التصدى للعدو والالتفات حوله وهزيمته وانسحب ابن مردنيس هاربا.

ثم واصل الجيش العربى الموحدى القتال ضد الجهات المجاورة واستولى على الغنائم من غليره وقرياته فى نواحى بسطه ولورقه.

وقد استشهد فى تلك المعركة سبعة من كبار فرسان العرب. وهكذا بلغ

التضامن العربى مع الدولة الموحدية أقصاه، وأعلن الموحدون إعجابهم بإخلاص العرب ونشروا ذلك على الملأ واسندوا إليهم حماية المدن الأندلسية من الأعداء.

على أن الموقف تغير بعد تولية أبى يوسف يعقوب (المنصور) الموحدى عام ٥٨٥هـ/١١٨٤م وذلك بعد ظهور معارضة من بنى غانية - بقايا الدولة المرابطية - وقد حالفهم ضد الموحدين جماعة المماليك الغز بقيادة قراقوش ومن عرب بنى هلال وسليم بأفريقيا بعد انهيار دولة المرابطين واستقر بنو غانية وهم من قبيلة مسوفة الصنهاجة وتولوا المناصب الكبرى فى العهد المرابطى ثم لجأوا إلى جزر البليار وأعلنوا تبعيتهم لبنى العباس فالتف حولهم بقايا المرابطين وقد بقى بنو غانية على معارضتهم للموحدين وهم فى نفس الوقت يحاربون القوى الصليبية واستخدموا اساطيلهم فى القيام بغارات بحرية على سواحل قطالونيا وجنوب فرنسا.

ثم رأى بنو غانية مهاجمة بجاية بالمغرب ودخلوها فى عام ٥٧٩هـ١١٨٣م وفر الموحدون إلى تلمسان بعد هزيمتهم أمام بنى غانية فى ياميلول. ثم واصل بنو غانية الاستيلاء على الجزء الشرقى من المغرب الأوسط وبعض القلاع والمدن. على أنه سرعان ماسترد الموحدون بجاية ومدينة أشير فى عام ٥٨١هـ/١١٨٥م.

ثم تحالف بنو غانية والمماليك الغز وعرب بنى سليم وجمع قراقوش الأرمنى قواته متجها من المغرب إلى فزان للاستيلاء على فزان وطرابلس وانضمت إليه رياح يقودها مسعود بن زيان زعيم الزواوده الخارج عن

طاعة عبد المؤمن وعرب بنى ذياب. كما فتح جبل نفوسه. وبعد فتح طرابلس اجتمع حوله العربان.

كما قام ابراهيم بن فرانكين بالانضمام إلى الموحدين فعارضه عرب أفريقيا لميل بعضهم للدعوة العباسية.

وفى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م جمع يعقوب المنصور قواته وتقابل مع بنى غانية بالحمه لى بعد أيام من القيروان وتمكن من هزيمتهم وفر ابن غانية حيث قامت من أثر جرح أصابه في المعركة ثم تولى بعده أخوه يحى الذى اختفى في الصحراء، وتتبع المنصور الموحدى بنى غانية والعرب ثم لجأ إليه العرب وأعلنوا خضوعهم فنقل قبائل بنى هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر من بلادهم إلى المغرب الأقصى فنزلت قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كتامه (القصر الكبير) أزغار البسيط الأفيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر (المحيط الأطلسى) حيث استقرت، وطاب لها المقام هناك.

ونزلت قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط مابين سلا ومراكش وهو أواسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل درن بها مما أضطرهم إلى الاستقرار.

وقد نتج عن هجرة هذه القبائل العربية إلى بلاد المغرب الأقصى استكمال عروبة المغرب الأقصى ومزجه بالدماء العربية، فكان ذلك تتمة لما قامت به دولة الأدارسة حين أدخلت الحضارة الإسلامية هناك من قبل.

وبعد ماحققه المنصور الموحدى من انتصارات عمل على ضم

المماليك إلى جنده فأسرع قراقوش إلى الدخول فى طاعة المنصور. ثم عاد وأعلن الثورة على الموحدين فى عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م واستولى على قابس. وفى عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م جمع المنصور وفودا من عرب سليم ورياح والحقهم بفاس ضيوفا على الدولة لمدة أسبوع ثم أنعم عليهم بالعطايا وأعادهم إلى بلادهم مكرمين ليبقرا على ولائهم له.

وبعد وفاة المنصور عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م. تحول التحالف العربى الموحدى إلى تحالف صورى ثم انقلب إلى عداء وحرب للموحدين ولكن تغلب الجيش الموحدى فى النهاية على التحالف العربى مع بنى غانية وذلك فى عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م فاضطر العرب إلى الانسحاب إلى طرابلس، وهناك أرغم العرب على محاصرة قراقوش فى ودان حتى أعلن استسلامه للعرب فى عام ٦٠٩هـ ١٢١٢م.

وهكذا عاد النفوذ الحفصى الموحدى إلى تلك الأقاليم من ليبيا إلى أفريقيا. واسترد الموحدون طرابلس عام ٦١٤هـ/١٢١٧م وعاشت طرابلس تابعة لحاكم تونس منذ عام ٦١٤هـ/١٢١٧م.

ثم تغيرت الظروف حين تمكن أبو زكريا الحفصى من إقامة الدولة الحفصية عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وجاهد فى تعميرها حتى قويت وامتد وجودها حتى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). وظلت طرابلس فى العهد الحفصى فى ازدهار اقتصادى فى الزراعة والتجارة.

ثم خلعت طرابلس تبعيتها للدولة الحفصية، حين قدم إليها أبى عمارة أحمد بن مرزوق، الذى ادعى أنه ابن الخليفة الواثق المخلوع وأن اسمه الفضل فبايعه كثيرون من بنى سليم وخضعت له طرابلس ومايليها غربا.

إلا أن عمر بن أبى زكريا الحفصى تمكن من استعادة طرابلس عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وأعلن والى طرابلس محمد بن عيسى الهنتاني تبعيته لأبى زكريا الحفصى.

وفى عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م حاول ملك أرجون غزو طرابلس ولكنه فشل فى محاولته.

وفى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م قدم إلى طرابلس الأمير الحفصى أبو يحى زكريا بن محمد اللحيانى فرحب به الأهالى وشجعوه على بسط سلطانه على تونس حيث فسدت الأحوال فيها ورحب الأمير الحفصى بالدعوة وتوجه إلى تونس فى عام ٧١١هـ/١٣١١م ووقف خلفه عرب طرابلس حتى تمت له البيعة فى تونس وبقى فى حكمها ست سنوات. ثم ظهر فى تونس أمير قسنطينة وتغلب على الأمير الحفصى الذى انسحب إلى طرابلس على أمل الاستعداد والعودة لاسترداد تونس وخلف فيها ولده محمد (أبوضربه)

وشكل أبو يحى زكريا جيشا فى طرابلس تمكن به من توسيع ملكه فى نواحى طرابلس.

ولما فشل محمد أبو ضربه فى الاحتفاظ بما فى يده فى تونس وتغلب عليه أمير قسنطينه، رحل أبو يحى زكريا عن طرابلس ولجأ إلى مصر فى عهد السلطان المملوكى قلاوون تاركا ولاية طرابلس لصهره محمد بن عمران الذى بقى فى ولايته بطرابلس حتى ثار عليه الأهالى وخلعوه فى عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م وتولى مكانه ثابت بن محمد بن عمار من أسرة طرابلسية، الذى استطاع أن يؤسس دولة بنى عمار

٧٢٤-٨٠٣هـ/١٣٢٣-١٤٠٠م) وفي عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م في عهد الأمير ثابت بن محمد بن ثابت جاء تجار من جنوه كانوا يترددون على المدينة ولاحظوا ضعف تحصيناتها على الرغم من خيراتها فأغراهم ذلك بغزوها واحتلالها وفر والى المدينة حيث اعتقه بعض الأعراب.

وأدرك أمير قابس أحمد بن مكي خطورة ماحل بطرابلس، وقام بالتفاوض مع الجنوبيين للانسحاب من المدينة، وقدم لهم خمسين ألف دينار شاركه تقديمها الأهالي من كلّ النواحي فانسحب قائد البحرية الجنوية من المدينة وصارت له بعد ذلك ولاية طرابلس حتى عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وتوفي وتولى بعده ابنه عبد الرحمن بن مكي ولم يحسن السيرة، فلما قدم أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى المدينة وكان مقيما مع أبيه في الاسكندرية رشحه الأهالي من العرب والبربر لولاية طرابلس وظل يحكمها حتى عام٧٩٢هـ/١٣٨٩م.

ثم تعاقب بعد ذلك عدد من الولاة تابعين إسميا لدولة الموحدين في تونس حتى جاء عام ٩١٦هـ/١٥١٠م وهاجمها الأسطول الاسباني. وكانت نقلة تحول في تاريخ الشمال الأفريقي.

هاجم الاسطول الاسباني شواطئ طرابلس في عام م٩١٦هـ/١٥١٠م وفتح نيران مدافعه على المدينة وردت عليه بطاريات الساحل ببضع طلقات من مدافعها العتيقة واستبسل الأهالي في الدفاع عن المدينة حتى سقط الكثيرون شهداء وخرج الآخرون للاستعداد للمقاومة من تجوراء التي جعلوها مركزا لمقاومة العدوان الصليبي.

وتعطلت الحركة التجارية مع العالم الخارجي وساءت الأحوال

الاقتصادية.

وفى عام ٩٣٦هـ/١٥٣٠م قام الأسبان بتسليم المدينة إلى فرسان القديس يوحنا فى مالقا وظلت المقاومة مستمرة حتى استنجد السكان بالسلطان العثمانى سليم الأول لإنقاذ البلاد.

الفصل الثانى

ليبيا من العهد العثمانى إلى الاستقلال

* ضعف القوة الدفاعية والإحتلال الأسبانى لليبيا
* ظهور العثمانيون فى ليبيا وانسحاب المعتدين
* ليبيا فى العهد القرامانلى
* عودة الحكم العثمانى
* الدعوة السنوسية
* ضعف الدولة العثمانية وأطماع الاستعمار الإيطالى فى ليبيا
* الاحتلال الإيطالى لليبيا وظهور حركة المقاومة
* انتصار المقاومة الليبية واستقلال البلاد

بدأت الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان الكبير (٩٢٧ - ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦)م تتجه إلى شمال أفريقيا، فقد اتجه السلطان سليمان الكبير إلى تعزيز قوته البحرية كهدف رئيسى لتنفيذ مشروعاته البحرية، وبسط سلطان الدولة العثمانية بالقوة البحرية القوية.

وخلال ذلك ورد إلى السلطان العثمانى رسالة أحد رجال البحر الكبار يعلن ولاءه للسلطان العثمانى وفتوحاته إلى الساحل الأفريقى، وسرعان ماقبل السلطان الرسالة واستجاب لهذا البطل البحرى المسلم وهو خير الدين بربروسه وهو قرصان يونانى الأصل من جزيرة (تسبوس) ولقبه بايلاريك أى (أمير الأمراء) وزوده بالجنود وبعض السفن.

وهكذا ساهم الأتراك العثمانيون فى حروب تحرير بلاد المغرب العربى ضد الأسبان وتمكن خير الدين حتى عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م من تحرير كثير من السواحل العربية المغربية ودمر الاسطول الاسبانى فى أكثر من موقع وتوقفت بعد ذلك الحروب الأسبانية.

وقد شجعت تلك الانتصارات للأتراك فى الساحل المغربى سكان طرابلس على الاستنجاد بالسلطان سليمان الكبير لانقاذ بلادهم من المعتدين الأسبان. فبعثوا بوفد منهم إلى القسطنطينية فقابل السلطان وشرح له الظروف القائمة فى شمال أفريقيا.

تأثر السلطان العثمانى لكلام الوفد الليبى، وعين مراد أغا لولاية ليبيا. وكلفه بمرافقة الوفد والتعرف على أحوال المنطقة.

وفى عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وصل الوفد إلى طرابلس واختار مراد أغا

تاجوراء فنزل بها. واتخذت الاجراءات الحربية فى نفس الوقت بالتنسيق مع سنان باشا قائد البحرية العثمانية لطرد فرسان مالطا من طرابلس.

ثم تطورت الأحوال فى طرابلس حتى صارت قاعدة من القواعد البحرية الهامة في الساحل الشمالي الأفريقي.

لقد برع العثمانيون فى البحر عسكريا ففى عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م انطلقت مائة وثمانون سفينة شراعية من غاليبولي إلى سواحل بحر إيجه للقتال هناك ثم واصل السلطان سليم الأول تعزيز الأسطول العثمانى فى نشاط بالغ حتى إذا رقى سليمان العرش زاد من عدد سفنه إلى ثلاثمائة. وفي عهده رقى القرصان خير الدين بربروسه وحمل الهول الذى كان ينطوى عليه اسم العثمانيين حتى الشواطئ الأسبانية.

لقد تفوق العثمانيون ماديا بفضل الغابات القائمة على شاطئ البحر الأسود التى أمدتهم بمعين لاينضب من الأخشاب وجلبوا المعادن الضرورية من الأفلاق والبغدان.

أما الأشرع فقد استوردوها من فرنسا. أما الصناع فقد استخدمت البنادقة لبناء السفن وأيضا اليونانيين. وقد دخلت الجنود الإنكشارية فى خدمة الأسطول العثمانى وأظهروا تفوقهم حتى أن شجاعتهم فى اقتحام سفن الأعداء ألقت الرعب في قلوب النصارى.

لقد شكلت سفن القرصان العاملة فى شواطئ أفريقيا الشمالية منذ عهد بربروسه جزءا هاما جدا الأسطوال العثمانى ففى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م قامت قطع من الأسطول العثمانى بمهاجمة الفرسان المالطيين وطردهم من

ا لمدينة وصارت طرابلس تابعة للعثمانيين منذ ذلك الحين.

لیبیا فی العهد العثمانی: ٩٥٨-١١٢٣هـ/١٥٥١-١٧١١م

لقد أبدى الوالي العثماني مراد أغا اهتماما بالمدينة. فقام بأعمال الترميم والصيانة للحصون والقلاع وبنى مسجدا ونشطت الحياة التجارية في المدينة واستقرت الأحوال.

وفي عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م تولى درغوت باشا قائد الاسطوال، وهو من أشهر قواد الأسطوال العثماني تولى درغوت باشا حكم البلاد. وعرف عهده بالإنشاءات والتعمير في المدينة حتى اتسعت المدينة. وشيد القلاع والحصون لحماية البلاد، كما شجع الفلاحة وأعمال البساتين ونمت التجارة، فكثرت الأموال والتف حوله أهل البلاد .

لقد جعل درغوت باشا الجهاد ضد الأعداء هدفا أساسيا في حياته، فجاب السواحل الأوربية والأفريقية متعقبا الفرنجة ثم يعود محملا بالغنائم فينفقها لخدمة المدينة. ولقد استخدم درغوت باشا في حروبه الجنود الإنكشارية ثم قويت شوكة الإنكشارية وسيطروا على الولاة ففسدت البلاد وضعفت.

أما برقة وكانت تحكمها دولة المماليك مصر فقد تحولت تبعيتها إلى الحكم العثماني، بعد الفتح العثماني لمصر وهكذا صارت ليبيا تحت الحكم العثماني الذي استمر يحكم ليبيا حتى بلغ عدد الولاة العثمانيين في حكم ليبيا أربعة وأربعون واليا حتى عام ١١٢٣هـ/١٧١١م بداية العهد القرامانلي.

ليبيا فى العهد القرامانلى ١١٢٣-١٢٥١هـ/١٧١١-١٨٣٥م

ظلت ليبيا فى هاوية الصراعات والانقسامات ولم ينقذ البلاد إلا عندما تولى أحمد باشا القرامانلى حكم ليبيا عام ١١٢٣هـ/١٧١١م باتفاق الجنود الانكشارية فى ليبيا ولقب نفسه بأمير المؤمنين وجعل الحكم وراثيا فى الأسرة القرامانلية.

اتصف أحمد باشا أمير المؤمنين بالشجاعة والاقتدار فوق ماعرف عنه من العدل والإنصاف بين الأهالى.

ولما بعثت القسطنطينية باسطول إلى ليبيا لولاية خليل باشا لليبيا وقع صدام بينه وبين أحمد باشا فاضطرت القسطنطينية إلى إصدار فرمان سلطانى بتقليد أحمد باشا القرامانلى ولاية ليبيا.

وعند ذلك عاد الأمن إلى البلاد وبدأت الأحوال تسير على أحسن مايكون فى عهد القرامانلية.

لقد جاء العهد القرامانلى وجعل من ليبيا وحدة متكاملة، وقدم إصلاحات كبيرة بها وجعل اللامركزية مبدأ للحكم فى ليبيا، مما أعطى انطلاقا فى العمل والإنتاج فى البلاد وعمت الحرية البلاد. وظل فى حكمه للبلاد مدة خمسة وثلاثين عاما لم يتوانى خلالها عن البذل والعطاء، وسهل وصول المياه إلى المدينة بالطرق الفنية خدمة للمدينة، وبنى سوقا واسعة وبيوتا وأصلح القلعة، وسهل للسفن القادمة إلى طرابلس الحصول على الماء.

وفى عام ١١٤١هـ/١٧٢٨م هاجم الأسطول الفرنسى المدينة وضربها بالمدافع ليرغم المدينة على الخضوع لمطالبه للحصول على أموال وتسليم

الأسرى الفرنسيين واستمر الأسطول الفرنسى يضرب المدينة بالمدافع ثلاثة أيام ولم ينسحب إلا أن بعد نفدت ذخيرته ونجح الأهالى فى المقاومة وفازوا بالنصر وانسحب الفرنسيون منهزمين لم ينالوا غير الهزيمة أمام شجاعة الأهالى واستبسالهم بقيادة حاكمهم أحمد باشا.

وفى عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م تولى الحكم ابنه محمد بعد وفاة أبيه وظل يحكم البلاد حتى عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م . فى سهولة ويسر حتى خلفه فى الحكم إبنه على الذى استمر فى حكم البلاد نحو أربعين عاما. وقد ازدهرت فى أيامه الأحوال الاقتصادية من زراعة وتجارة وعم الأمن ربوع البلاد.

وفى عام ١١١٩هـ.١٧٨٤م وقعت مجاعة استمرت مدة عامين وانتشر خلالها وباء الطاعون فتسبب فى إنهيار الأحوال الاقتصادية.

أما عن السياسة الخارجية للأمير على فلم يكن موفقا فيها حيث أنه أسرف فى منح الامتيازات للأجانب. كما حدثت فى عهده انقسامات داخلية وقعت بين أبنائه، وتوفى الأمير على فى عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م.

وفى خلال تلك الانقسامات تمكن أحد المغامرين الأتراك ويدعى على ابن برغل من اقتحام المدينة طرابلس واستولى عليها. ثم أعيد حكم البلاد إلى أصحابه فى عام ١٢١٠هـ/١٧٩٥م بعد تدخل باى تونس الذى تغلب على هذا المغامر الدخيل وتولى يوسف القرامانلى حكم البلاد.

وهكذا عادت ليبيا إلى حكم الأسرة القرامانلية فى عام ١٢١٠هـ/١٧٩٥م وسلك يوسف فى الحكم مسلكا جعل البلاد تنعم بالأمن والرخاء من جديد وصلحت أحوال التجارة والزراعة وازدهرت، وبدأت

العلاقات الخارجية لليبيا تزدهر من جديد خاصة مع أوربا.

كما عنى يوسف بالأسطول الليبى الذى أخذ يقوم بدور حماية السفن التجارية فى البحر الأبيض مقابل مبالغ مالية كبيرة. ولم تتمكن الدول التى عارضت دفع إتاوة الحماية لسفنها إلى ليبيا من الاستمرار في الرفض فقد تغلبت ليبيا على تلك الدول مثل دولة السويد التى توسط لها الامبراطور نابليون لتخفيض تلك الإتاوة.

كما لم يتمكن الأسطوال الأمريكى من فرض سيطرته على الأسطول الليبى الذى تغلب عليه وهزمه وأسر بعض سفنه ثم أفرج الليبيون عنها بعد توسط القنصل الانجليزى فى هذا الأمر.

وهكذا حظيت ليبيا فى عهد يوسف القرامانلى بالتقدم والرقى، ونالت الهيبة فى الداخل والخارج.

لقد بدأ يوسف باشا أعماله المجيدة بتهدئة الحالة الداخلية لليبيا وإزالة الآثار التى خلفتها النزاعات والانقسامات بسبب ولاية العهد. وقام يوسف بترميم الحصون واصلاح سور طرابلس وأقام أبراجا للدفاع عن ا لمدينة. كما أعطى إهتمامه البالغ للاسطول الليبى وخصص المبالغ اللازمة لهذا الغرض. وبسط الأسطول الليبى سلطانه على العمليات الحربية فى البحر المتوسط فى الوقت الذى انصرفت فيه أوربا إلى الثورة الفرنسية ومتابعتها.

كما توطدت العلاقة الليبية الفرنسية الأمر الذى أدى إلى ظهور الخلافات مع الدولة العثمانية. وقد ساعدت تلك العلاقات الفرنسية الليبية ليبيا فى نزاعها مع الدول الأوربية بسبب الإتاوة التى تفرضها ليبيا على

تلك السفن.

على أن الموقف تغير بعد انضمام الدول الأوربية لمناهضة الدولة الليبية ومنعها من فرض أية إتاوات على سفنها فى البحر فى الشمال الأفريقى.

وفى مؤتمر اكس لاشابيل ١٢٣٣هـ/١٨١٨م تقرر تفويض الدول الأوربية للعمل على منع أية إتاوات تفرض على السفن الأوربية المارة فى مياه الشمال الأفريقى فى طرابلس أو حتى فى غيرها واعتبروا هذه الإتاوة قرصنة بحرية.

ثم بدأت الأساطيل الأوربية تقوم باستعراض لأساطيلها حتى تمكنوا من إرغام ليبيا على تسليم الأسرى الأوربين إلى دولهم ووقف الغارات البحرية التى تقوم بها ضد السفن الأوربية.

وقد تأثرت ليبيا اقتصاديا، فقد كانت تدخلها مبالغ طائلة من جراء تلك الإتاوات المالية. ثم أعقب ذلك تراكم الديون على ليبيا. ثم تنازل يوسف عن الحكم لإبنه على القرامانلى فى عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م.

وفى عام ١٢٥١هـ١٨٣٥م تمكنت الدولة العثمانية من استعادة سيطرتها على ليبيا مرة ثانية، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرامانلية فى حكم ليبيا.

عودة الحكم العثمانى إلى ليبيا (١٢٥١-١٣٢٩هـ/١٨٣٥-١٩١١م)

أعلن أهالى ليبيا سرورهم بعودة الحكم العثمانى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م، وخاصة الذين نقموا على العهد القرامانلى خاصة فى

أواخر أيامه. أما بقية الأهالى فقد تريثوا فى الحكم على الموقف الجديد حتى يتبينوا حقيقة الموقف، فلما تبين لهم غير ماكانوا يتوقعون أعلنوا حركة عصيان ضد العثمانيين فلجأت الحكومة الجديدة إلى استخدام القوة ضد الأهالى.

والحقيقة أن النظام العثمانى لم يعط الفرصة للولاة الذين تستند إليهم شئون البلاد حتى يقوموا بالإصلاحات والتعمير للارتقاء بالبلاد إلى حياة أفضل.

لقد نجح الجند فى إخضاع الأهالى بالقوة وفى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٦م تمكن العثمانيون من السيطرة على البلاد وخاصة مصراته. وتوالى على ليبيا حكاما من قبل الدولة العثمانية وظلت الثورات تتابع فى عهودهم حتى جاء عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م فتمكن سامى باشا من السيطرة على البلاد ونظم الضرائب وشجع الصناعات المحلية. ثم جاء عاصم باشا الذى استجاب لمتطلبات العصر. فعمل على ربط علاقته بالسكان ومعرفة مايضايقهم حتى أنه قام برحلات داخلية يتفقد البلاد فى مختلف الأنحاء. وكان رجلا فاضلا لم يقبل الهدايا التى كانت تقدم له.

ثم خلفه فى ولاية ليبيا أحمد عزت باشا فى ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م وتمكن من كسب رضا الأهالى واحترامهم له. وقام ببناء المدارس الصناعية والمستشفيات. كما أنشأ سوق الحميدية واعتنى بالحصون، كما أصدر تعليمات لبناء منارة فى ميناء طرابلس.

كما عنى العثمانيون ببناء الكتاتيب والزوايا وحلقات الدرس وأنشأوا المدارس فى طرابلس والخمس وبنى غازى ودرنه.

الدعوة السنوسية:

هى دعوة دينية أنشأها محمد بن على السنوسى وهو جزائرى المولد شريف النسب دعا بالعودة إلى الإسلام الصحيح كما كان فى عهده الأول . وسرعان ماانضم الناس إليه والتفوا حوله مؤمنين بدعوته معبرين عن رغبتهم فى إستعادة مجد الإسلام القديم.

درس فى فاس مركز الدراسات الإسلامية العتيق دعت السنوسية إلى وجوب دراسة القرآن والحديث والسنة وقد تخصص جماعة من رجال الدعوة للتفرغ للدعوة والعمل على نشرها فى أنحاء البلاد وأعدوا أنفسهم للدفاع عن البلاد بالسلاح متى لزم الأمر.

فهى إذن دعوة للجهاد ضد الاستعمار ومقاومة الفساد واتجه الشيخ السنوسى إلى برقة بالزاوية البيضاء وجعلها مركزا لدعوته ثم انتقل منها إلى جغبوب. وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر بفضل جهوده. ثم فى عهد ابنه محمد المهدى انتشرت الدعوة إلى طرابلس فى العهد القرامانلى.

بعد أن قويت الدعوة بعد انتشارها فى أنحاء البلاد، تحولت إلى العمل على رفع الظلم عن المظلومين ومواجهة المعتدين. فأدخلت التدريبات العسكرية بالبدء بالدراسة النظرية من دراسة لأصول الحرب وأنواع السلاح ثم التدريب على لقاء العدو.

وبعد أن تطورت الدعوة السنوسية وكثر أتباعها حيث كانت جغبوب معبر الذاهبين إلى مكة والعائدين منها وصارت مركزا ثقافيا يتلقى فيها المسلمون كيف يكون المسلم الحق.

فالدين الإسلامي أوجب على المسلم الجهاد في سبيل الحق وإعداد القوة لمواجهة العدو والمرابطة لإرهاب العدو. فإن الإسلام نظم أمور الحياة دنيا ودين. ونظم أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ووضع لها المبادئ والنظريات الأساسية التي قامت عليها أول مدرسة عسكرية في تاريخ العرب مكتملة الأركان.

وعلى هذا الأساس قامت العسكرية الإسلامية أن التكليف القرآني بالجهاد، وبإعداد القوة والمرابطة تكليف قائم وباق حتى تقوم الساعة. ومقتضى ذلك ألا تفتر عزائم الأمة الإسلامية عن إعداد القوة بعناصرها المتعددة مع الأخذ بالأسباب للتقدم والتطور التي تفرضها طبيعة العصر.

فواجب الأمة الاسلامية وهي تتجه نحو النهضة الحضارية الشاملة أن تتخذ من مبادئ العسكرية الإسلامية ونظرياتها منطلقا لبناء قوتها الذاتية فإن من أعلم ماتتميز به تلك المبادئ أن لها بحكم انبثاقها من الدين - من الأصالة ماللدين من أصالة وأن لها في كل عصر - من القوة والصحة والكمال مايجعل الجيوش التي تعمل لها قوة لاتقهر.

لقد نظمت الدعوة السنوسية الدعاة وتلقوا من العلم مايمكنهم من أن يكونوا شيوخ زوايا فيخرج الواحد منهم ويكون زاوية جديدة تكون مركز إشعاع ثقافي وفني وحربي وسياسي جديد، وسمحت الدعوة السنوسية بأن تكون المشيخة وراثية من الأب إلى الإبن.

وفي عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م أمر الشيخ محمد المهدي بنقل الدعوة السنوسية من واحة جغبوب إلى واحة الكفرة في الجنوب الشرقي من ليبيا لكي تكون قريبة من طالبي الإلتحاق بالدعوة من شباب ليبيا.

لم تختلف الدعوة السنوسية مع الدولة العثمانية بل أعلنت الدعوة ولاءها للدولة العثمانية، وكذلك لم يبد العثمانيون أى تخوف من حركة الدعوة السنوسية باعتبارها دعوة إلى الدين، فهى تجمع المسلمين تحت راية الإسلام وتدعو إلى الاستقرار فلذلك شجعت الدولة العثمانية الدعوة السنوسية إلى المضى فى طريقها. واعترفت للزعيم السنوسى بالإمارة السنوسية وجعلها وراثية لخلفائه القادمين، كما أعفت أملاك الزوايا من الضرائب، وكذلك سمح للسنوسية بجمع ضريبة من أتباعها، وفى عهد السلطان العثمانى عبد العزيز اعتبروا الزوايا السنوسية (حمى) يلجأ إليها الناس.

وتوطدت العلاقة بين العثمانيين والسنوسيين وتواصلت الوفود بين القسطنطينية والمقر السونسى فى جغبوب أو فى الكفرة.

لقد لعبت الزوايا السنوسية دورا سياسا حين تصدت للنفوذ الفرنسى من أن يمتد إلى داخل القارة الأفريقية.

لقد جعلت الدعوة السنوسية من الاسلام أساسا للدعوة والقرآن والسنة هى الأصل الذى يجب الاعتماد عليها فى فهم الإسلام.

وقال الزعيم السنوسى بأن باب الاجتهاد لم يقفل ومن ثم يجوز الاجتهاد.. ولم تقتصر الدعوة السنوسية على العبادة والتصوف وإنما عبادة وعمل وكفاح. ولذلك أقامت الدعوة الزوايا التى ضمت المساجد والمدارس والمزارع والمتاجر. ويقوم الناس فيها بالعمل باجتهاد.

لقد درس الزعيم السنوسى الكبير الطرق الصوفية المتعددة مثل

التيجانية والشاذلية والأدريسية والقادرية ، لقد نادت السنوسية بالعودة إلى الإسلام الذى يجمع بين الدين والدولة. ولذلك نادت الدعوة باتخاذ حياة الرسول شعاراً يقتدون به ونموذجا اسمى يعملون على الوصول إليه.

لقد نادت السنوسية للعمل للدين والدنيا معا. لقد كانت الزاوية هى مركز الحياة الروحية والمادية وتشكلت الزوايا بحيث تحتوى على قاعة ومحراب للصلاة وغرفة لحفظ القرآن أو تلاوته، وبعض غرف للضيوف والطلبة، وبعض الزوار ممن ينزلون بها مع ماتحتاج إلى من المرافق. واتسعت الزواية أحيانا حتى تصبح مسجدا يمتلئ بمن فيه من الزوار والطلبة.

وأحيانا يخصص بها غرفة لشيخ الزاوية يدفن فيها وتعلوها قبة. واتخذت الزوايا كدور علم فى كثير من الأحيان فضلا عن أماكن مخصصة للعباد والزهاد، وغرف لسكنى الطلاب والشيوخ، كما ألحقت المكتبات بالزوايا.

فجامع زاوية جغبوب بلغ اتساعه بحيث يصلى فيه نحو ستمائة مصلى فى وقت واحد، كما بلغ عدد الطلاب المترددين على الزاوية من أنحاء ليبيا مايقرب من ثلاثمائة طالب.

كما خصص للتجار قاعات كبيرة لحفظ بضائع التجار وعرصات للإبل التى تنقل المتاجر. كما اعتنى المسؤلون عن الزاوية بتدبير المياه اللزمة للزاوية وزوارها من بئر فى الزاوية أو بالقرب منها.

كما بنيت الأسوار حول ا‌لزاوية وزودت الحصون والأبراج وتستخدم

لأغراض الدفاع. ولذلك اعتبرت الزاوية مركز الوحدة القبيلة، مما جعلها مكانا آمنا لمن يلجأ إليها من الناس. كما خصصت أراض لزراعتها تابعة للزاوية.

ورئيس الدعوة هو الذى يقوم بتبعية شيخ الزاوية ويتم الاختيار بموافقة رجال القبيلة، ويشترط فى شيخ الزاوية أن يكون على مستوى المسئولية والكفاية العملية حتى يمكنه معالجة مايعرض له بحجة قوية وأسلوب مقنع، لأن شيخ الزاوية هو صاحب الحل والربط فيها، فهو الذى يشرف على التعليم، وحفظ النظام ويعتنى بالقوافل.

لقد حمل المسلمون فى الزاوية السلاح إذا ماتهددهم خطر من الأخطار، فكان يجتمع الأخوان زرافات ووحدانا إلى الزاوية ومعهم أسلحتهم لمقاومة الخطر وليقضوا على مصدره، تنفيذا لخطة شيوخهم وتحقيقا لهدف واحد هو مواجهة الأعداء وصدهم عن البلاد.

كما جعلوا الزاوية فى أماكن هامة مثل ملتقى الطرق والإشراف على ماحولها وسهولة الدفاع عنها وجعلوا من الزاوية وحدة متماسكة وعلى اتصال مستمر بالقيادة العليا للدعوة.

لقد تمكنت الدعوة من مواجهة الاستعمار الأوربى زمنا طويلاً.

* حركة المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالى:

تحت ضغط الظروف التى أدت إلى ضعف الدولة العثمانية وظهور الاستعمار الأوربى وأطماعه فى البلاد الإسلامية تحولت الدعوة السنوسية إلى حمل السلاح للدفاع عن البلاد وعملت الدعوة السنوسية على التعاون

مع العثمانيين ضد الاستعمار الإيطالى، وعندما اعتدت إيطاليا على برقة توحد الشعور الوحدوى وقوى الولاء بين العرب.

لقد أخذت إيطاليا تتطلع لامتلاك ليبيا منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، وكانت الدولة العثمانية لاتزال صاحبة حق فى حكم ليبيا، ولم يكن ذلك يخفى على الدول الأوربية. ومع ذلك فقد عمدت إلى إتخاذ خطوات لتحقيق أهدافها، فقد قاموا بفتح المدارس فى طرابلس وبنى غازى، وإرسال الجماعات التبشيرية وفتح فروع للبنوك الإيطالية، ليبسطوا سلطانهم على اقتصاد البلاد.

وقامت القنصلية الإيطالية فى كل من طرابلس وبنى غازى بأعمال الدعاية والتجسس لمعرفة المراكز الدفاعية.

أما الدولة العثمانية فقد أهملت الدفاع عن ليبيا الأمر الذى دفع الإيطاليين للإندفاع فى تحقيق أهدافهم الاستعمارية.

ففى عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا وقام الجيش الإيطالى باحتلال طرابلس والخمس وبنى غازى ودرنه.

أما السنوسية فقد بادر زعيمها السيد أحمد الشريف بإعلان الجهاد وبعث المنشورات إلى جميع الزوايا وطالبهم بتلبية النداء. وفى برقة استعد السنوسيون للجهاد. ثم اشتبك الفريقان فى معارك انتصر فيها السنوسيون على الإيطاليين الذى بلغ عددهم ستة وثلاثون ألف مشاة وستة آلاف وثلاثمائة من الفرسان.

كما بعثت الدولة العثمانية ضباطا إلى برقة لتنظيم القتال وبلغ جنودهم

أربعة آلاف ومائتى جندى. وكذلك كلف السيد أحمد الشريف وكان مقيما بالكفرة السيد عمر المختار شيخ زاوية القصور بالبدء فى الدفاع ضد الأعداء.

وكان عمر المختار صادق العزيمة قوى الشكيمة رابط الجأش قوى الإيمان بالله. وقد تعاون كلا من العثمانيين والأهالى الذين بلغ عددهم خمسة عشر ألف يقاتلون الإيطاليين دفاعا عن أرض الوطن.

وفى درنة تغلب العرب على الإيطاليين فسقط مئات من القتلى واستولى العرب على اسلحتهم ومؤنتهم واستشهد من العرب نحو أربعين شهيداً.

ثم تطورت الأمور بين الدولة العثمانية والدول الأوربية وانتهت بعقدها معاهدة لوزان عام ١٣٣١هـ/١٩١٢م وقد نصت المعاهدة على إيقاف الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية وانسحاب الدولة العثمانية من ليبيا.

ثم أعلنت الدولة العثمانية منح ليبيا الاستقلال الداخلى وتعيين ممثلا للدولة العثمانية فى ليبيا يمنح لقب نائب السلطان لحماية المصالح العثمانية.

أما إيطاليا فقد أعلنت هى الأخرى من جانبها سيادتها على ليبيا.

أما الزعيم السنوسى السيد أحمد الشريف فقد أعلن الجهاد ضد الأعداء ورفض معاهدة الصلح. على أن القوة العثمانية التى فى برقة بقيت وترك للسنوسين أمر الدفاع عن البلاد. وكان بداية السيادة السنوسية على البلاد.

ووقف العالم الإسلامى بجانب الشعب الليبى يؤازره بالتبرع بالأموال والمتطوعين من كافة التخصصات للدفاع عن البلاد.

واصل الإيطاليون الحرب فى برقة وقد نجحوا فى احتلال بنينه وبومريم والأبيار وطوكره وجردس العبيد وطلميثه والمرج وسلنطه والشحات ومرسى سوسه وذلك فى أوائل عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م وقد تكبد الإيطاليون خسائر فادحة إلا أنهم واصلوا الحرب، وتحملت السنوسية عبء قيادة الحرب ضد إيطاليا. أما تركيا فقد خرجت من الحرب تماما.

ولما تعذر على العرب قتال الإيطاليين وجها لوجه لكثرة عدد جيوش الأعداء، عندئذ اتجه العرب إلى حرب العصابات وقد أدى هذا الاسلوب إلى تحقيق انتصارات وأنزلوا بالإيطاليين خسائر فادحة فى قواتهم.

على أن الإيطاليين كانوا قد عقدوا العزم على مواصلة هجومهم على البلاد فى محاولة للقضاء على المقاومة السنوسية، وعملوا على الوصول إلى الجبل الأخضر وتمكنوا فعلا من احتلال العرقوب وأم شخنب وشليظميه والزويتنية وإجدابية، وقد استردها العرب، وتمكن الإيطاليون من السيطرة على اكبر قسط من الشمال الليبى وخاصة برقة فى جنوبى وادى الفارغ. ثم قلت المؤنة بين صفوف المدافعين خاصة بعد نزول القحط والجفاف.

ثم قامت الحرب العالمية الأولى وانضمت إيطاليا إلى الحلفاء وصارت بذلك بريطانيا وإيطاليا جبهة واحدة وفى ظل تلك الظروف تنازل السيد أحمد الشريف عن القيادة السياسية والعسكرية إلى السيد محمد إدريس المهدى، وأبقى هو لنفسه القيادة الدينية. وصارت الزعامة لإدريس المهدى منذ عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.

وبناء على هذا التغيير فى القيادة لجأت الدول الأوربية إلى السيد المهدى للتفاوض معه فى شئون البلاد.

وبتوجيه من السيد أحمد الشريف الذى استقر فى جغبوب تولى السيد إدريس السنوسى إدارة الأجزاء الغربية من برقة (برقة البيضاء) وتكون فى إجدابية مركز القيادة بينما تولى السيد محمد الرضا أمر الجبل الأخضر وتولى السيد محمد صفى الدين أمر طرابلس.

على أن الإيطاليين تمكنوا هم والسنوسيين من عقد هدنة عسكرية قرب طبرق فى عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م وقد نصت الهدنة على :

١- إيقاف العمليات العسكرية بين الطرفين وإبقاء الحال على ماهو عليه.

٢ - تبقى المحاكم الشرعية فى مباشرة عملها فى البلاد.

٣ - تفتح المدارس العلمية والمهنية فى برقة.

٤ - إعادة الزاوية لمباشرة عملها وتعفى من الضرائب.

٥ - تقوم الحكومة الإيطالية بدفع رواتب العاملين فيها.

٦ - يتم التبادل التجارى بين طبرق وبنى غازى ودرنة فى المناطق الداخلية من البلاد.

وبعد ماتنازل السيد أحمد الشريف فى زعامته للسنوسية إلى ابن أخيه السيد إدريس السنوسى بن السيد المهدى، قام السيد إدريس بالاتفاق مع الإيطاليين على السيادة الإيطالية على برقة الشمالية وتسليم الأنصار السلاح مع الرجوع لمشايخ الزوايا إلى زواياهم والاعتراف بالطريقة السنوسية واستقلال جنوب برقة وجغبوب وأوجيله وجالو والكفرة مركز

السنوسين إداريا واعفاء الأسرة السنوسية من الرسوم الجمركية وكفالة الحرية الدينية.

وهكذا أصبحت السلطة الليبية مركزه في يد السنوسية ومعترفا بها دوليا، وبدأ السيد إدريس السنوسي يعمل على توطيد نفوذه في برقه من مركز قيادته، على أن إيطاليا لم تبرح تحاول بسط سلطانها على برقة كما فعلت في طرابلس. وفعلا تم لإيطاليا في عام ١٣٢٨هـ/١٩١٩م وضع دستور يكفل لها السيطرة على برقة إداريا وعسكريا، وقد تذمر الأهالي في برقة واستشعروا خطورة الموقف وعقد اتفاق الرجمة في عام ١٣٢٩هـ/١٩٢٠م الذي نص على اعتبار جنوب برقة إدارة سنوسية باعتبارها إدارة مستقلة يرأسها الأمير إدريس الذي يحمل لقب أمير ويصير وراثياً.

وفي عام ١٣٣٢هـ /١٩٢٣م نقض الإيطاليون عهودهم ووقفوا لمن يتصدى للدفاع عن البلاد بالمرصاد إلى حد الإعدام، وقد حوكم السيد عمر المختار وحكم عليه بالإعدام .

وهكذا ظهرت بوادر قيام نزاع مسلح جديد بين الليبيين والإيطاليين، خاصة بعد استيلاء الفاشيين على الحكم في إيطاليا، وعند ذلك قرر الأهالي في إقليم طرابلس مبايعة السيد محمد إدريس السنوسي أميراً على طرابلس وبعثوا إليه بوفد إلى إجدابية لإبلاغ الأمير السنوسي بذلك الذي قبل توحيد البلاد تحت إمانه تحت الحاح أهالي طرابلس وبرقة جميعهم.

ثم رأى الأميرإدريس ضرورة السفر إلى مصر عن طريق جغبوب بعد أن فوض أخاه السيد محمد رضا وابن عمه السيد صفي الدين لإدارة شئون

البلاد. وبعد ذلك فوجئ الليبيين بإعلان إيطاليا الغاء جميع الاتفاقات واعتبارها باطلة. ثم أبلغوا ذلك إلى الأمير إدريس بالقاهرة.

وهنا بدأ الليبيون الجهاد ضد المستعمر الأوربي الغاصب وفي عام ١٣٣٢هـ/١٩٢٣م بدأ القتال بين الفريقين في برقة واستمر إلى عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٢م عمد فيه الإيطاليون إلى استخدام العنف إلى أبعد الحدود ضد المدافعين وقتلوا وشردوا الأهالي الكثيرين ولم يبال المدافعون بتقديم أرواحهم فداء لوطنهم وعروبتهم واستخدموا أقصى مالديهم من طاقات مادية ومعنوية لتحقيق أهدافهم في مقاومة المعتدين وصدهم عن البلاد.

لقد قاتل الليبيون قتالا شديدا دل على شجاعتهم وفدائيتهم، وقد قسموا أنفسهم فجعلوا القادرين على حمل السلاح يقاتلون في ميدان القتال وأما الفريق الآخر، فقد حاربوا بالعمل على رفع معنويات الأهالي للاستمرار في المعركة والمقاومة والاستبسال في الدفاع.

لقد شارك الشعب الليبي جميعه من النساء والشباب والشيوخ كل حسب طاقته. بل الأكثر من ذلك أن من جندهم الإيطاليون للقتال في صفوفهم كانوا كثيرا مايتظاهرون بقتال العرب وهم في الحقيقة يساعدوهم على تحقيق النصر ضد الإيطاليين، كما تعاونت القبائل مع بعضها البعض بشكل أربك الأعداء الإيطالين في كثير من المواقع في ميادين القتال.

وفي عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م عمدت إيطاليا إلى محاولة كسر معنويات المجاهدين السنوسين فاتجهت إلى واحة جغبوب لإحتلالها وقد تم لهم ذلك فعلاء إلا أن استيلاءهم على جغبوب لم يفت في عزيمة المجاهدين، وإنما دفعهم إلى الاستمرار في المقاومة والدفاع ضد المعتدين حتى النصر.

وفى عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م تغلب الإيطاليون على العرب واستولوا على الجبل الأخضر.

وبقيت أحوال الشعب فى ليبيا فى ظل مقارمة الأعداء سيئة للغاية، بينما الأمير السنوسى السيد محمد إدريس فى مصر التى سافر إليها منذ ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م إلى قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م فى جهاد ونشاط لدفع المقاومة فى ليبيا للإستمرار فى حربها ضد العدو الإيطالى وهو يؤمن لها كل ماتحتاجه من مصر، ويستعد لليوم الذى يتاح له فيه القضاء على المعتدين الإيطاليين.

لقد اجتمع الليبيون فى مصر حول الأمير إدريس السنوسى واتفقوا جميعهم على اختياره ليتحدث باسم جميع الليبيين ويقرر مايراه صالحا لبلادهم فى ليبيا.

وعند قيام الحرب عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩ أعلن الأمير إدريس انضمامه إلى جانب الحلفاء وحصل منهم على وعد باستقلال ليبيا وفى عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م أعلنت إيطاليا إنضمامها إلى ألمانيا.

وعندئذ اجتمع الأمير ادريس برجاله من الجالية الليبية وسموا أنفسهم باسم «الجمعية الوطنية الليبية» واصدروا بيانا هو :

١ ـ التعاون مع الحلفاء للعمل على تطهير ليبيا من الايطاليين.

٢ـ اعتبار الأمير محمد إدريس أميرا على ليبيا الموحدة.

٣ ـ تشكيل مجلس شورى من برقة وطرابلس للأمير إدريس.

٤ ـ اعلان الحرب ضد إيطاليا فى صف واحد مع البريطانيين تحت الراية السنوسية.

٥ ـ تشكيل حكومة ليبية فى المنفى (مصر).

٦ ـ طلب مساعدة مادية من بريطانيا لقيام السنوسية بالجهاد ضد الإيطاليين، وفقا للتقاليد العربية.

٧ ـ إعطاء تفويض للأمير إدريس بعقد الاتفاقات والمعاهدات اللازمة، مع ضمان استقلال البلاد.

ثم دب الخلاف مع الأمير حول بعض النقاط التى جاءت فى البداية.

وفى عام ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م تم التصالح بين الفريقين من أصل برقة وطرابلس وقبل الجميع قيادة البلاد تحت راية واحدة هى راية ليبيا الموحدة.

وتم طرد الإيطاليين من ليبيا، ثم قامت بريطانيا باحتلال اقليمى برقة وطرابلس . وقامت فرنسا باحتلال إقليم فزان.

ولما وجد المحتلون الجدد الأوضاع فى أسوأ حال عمدوا إلى فتح أسواق جديدة لمنتجات ليبيا فى مصر وتونس وبريطانيا، فتجدد النشاط التجارى.

ثم حدث قحط فى عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م مما ترتب عليه ضياع المحصول وفقد نصف المواشى، وعندئذ قامت المصارف البريطانية التى أنشأتها بريطانيا بصرف القروض للمزارعين، ثم أعيدت المدارس حتى بلغت ١٧٣ مدرسة وقامت هيئة الأمم بتقديم العون المادى، وضمت إدارة

الهيئة بين موظيفها من الليبيين الذين تم تدريبهم على الأعمال التى كلفوا بها فى مراكز تدريبية حديثة.

عملت الإدارة البريطانية على تشغيل الليبيين فى الأعمال المختلفة فى إقليم برقة، بينما استخدمت فى طرابلس الإيطاليين أما الإدارة الفرنسية فى إقليم فزان فقد اتخذت طريقا مخالفا لما اتبعته بريطانيا، فقد جعلت العملة المتداولة الفرنك الفرنسى والغت الليرة الإيطالية. وجعلت ميزانية الإقليم ضمن ميزانية الجزائر التى تقع تحت سيطرتها حينذاك. وعملت على تطويق المنطقة التى سيطرت عليها فى ليبيا ومنعها من الاتصال بمصر وجعلتها قاصرة على الدول التى تتكلم الفرنسية.. ومنعت فى نفس الوقت قيام مؤسسات علمية أو اجتماعية ومنعت إنشاء ورش للإصلاح.

وقد اختلف الوضع فى الجانب البريطانى حيث كان التعاون قائما بين الأنجليز والليبيين فى مختلف نواحى النشاط.

وفى عام١٣٦٣هـ/١٩٤٣م بدأ الليبيون يهتمون بالنواحى الرياضية والثقافية والاجتماعية وعملوا على المناداة بوحدة البلاد الليبية.

وفى عام١٣٦٥/١٩٤٥م أعلن انتهاء الحرب العالمية الثانية وفى عام ١٣٦٦/١٩٤٦ أعلن الليبيون مناهضتهم للاستعمار الإيطالى فبدأوا يعملون على إلغاء القوانين الإيطالية لتحل محلها القوانين الوطنية وتولى أبناء البلاد حكم أنفسهم ، وعملوا على رفع مستوى الشعب فى مختلف النواحى.

وتعددت الأحزاب السياسية كان منها حزب الأحرار الذى طالب بوحدة ليبيا تحت إمارة السيد محمد السنوسى ثم ظهر ممثلون لإقليم برقة

وطالبوا هيئة الأمم بالآتى:

١ ـ استقلال البلاد تحت إدارة محمد إدريس.

٢ ـ تكوين حكومة دستورية وطنية.

٣ ـ قبول هيئة وطنية لتمثيل البلاد فى هيئة الأمم المتحدة.

ثم أعلنت هيئة تحرير ليبيا فى القاهرة تطالب جامعة الدول العربية باعتبار ليبيا موحدة تحدها مصر شرقا وتونس غربا مع الاستقلال التام والإنضمام إلى الجامعة العربية.

كما ظهرت تيارات أخرى تطالب بالانضمام إلى مصروتكوين دولة موحدة من مصر وليبيا.

على أن تعدد المطالب الحزبية فى ليبيا أوشك أن يؤدى إلى تقسيم ليبيا وضياع استقلالها، وعندئذ أحس الليبيون بالخطر المحدق بليبيا فأجمع زعماء طرابلس على إعلان وحدة ليبيا مستقلة وتشمل برقة وطرابلس وفزان.

لقد اختلف الوضع بعد أن تعددت الأراء حول وضع الدولة الليبية الجديدة بين آراء الدول الأوربية لإعادتها إلى إيطاليا أو تقسيمها بين الدول الأوربية. وهنا اتحدت آراء جامعة الدول العربية وآراء الكتلة الأفريقية الآسيوية على أن تصبح برقة وطرابلس وفزان دولة واحدة متحدة باسم ليبيا، وأن تكون مستقلة ذات سيادة، على أن يتحقق هذا الاستقلال سريعا بحيث لايتجاوز على ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

وقد انتهى الأمر فى هيئة الأمم المتحدة إلى إصدار قرار فى نوفمبر ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م يقضى بأن تصبح ليبيا المكونة من برقة وطرابلس وفزان دولة مستقلة ذات سيادة.

كما قررت:

منح ليبيا الإستقلال فى موعد لايتجاوز يناير ١٩٥٢م (جمادى الأولى ١٣٧٢هـ).

وهكذا تحقق الأمل الذى طالما كافح الليبيون فى سبيل الوصول إليه منذ العدوان الإيطالى ضد الشعب الليبى فى عام ١٣٢٠هـ /١٩١١م.

وفى عام ١٣٧١هـ/١٩٥١م تمت وحدة ليبيا تحت حكم الملك محمد إدريس السنوسى. وانضمت ليبيا إلى الجامعة العربية وإلى هيئة الأمم المتحدة.

لكن حكم الملك محمد إدريس السنوسى لم يسيطر على الأمور الداخلية بقوة مما مهد لنجاح ثورة عسكرية بقيادة العقيد معمر القذافى فى أول سبتمبر ١٩٦٩م (رجب ١٣٨٩هـ) الذى استطاع أن يخلص بلاده من القواعد الأجنبية فى عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

الفصل الثالث

الدور الحضارى الليبى

* حياة الليبين الاجتماعية واشتغالهم بالزراعة والرعى وتربية الخيول والتجارة.
* النشاط الثقافى
* النشاط الصوفى
* المساجد والزوايا

شعب ليبيا من سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا الشمال الأفريقى من مصر إلى المحيط الأطلسى. كما استوطنها الأفارقة بقايا شعوب قرطاجه وأجناس الشعوب المستعمرين الآتين من الرومان والبيزنطيين واليونانيين.

أمام البربر فينقسمون إلى بتر يسكنون فى السهول والهضاب الممتدة من طرابلس إلى تازة وينتشرون فى إقليم النخيل ويتمد من غدامس إلى السوس الأقصى، وفى إفريقيا وفى إقليم التل من طرابلس وعلى سفوح جبال أوراس ويشتغلون بالرعى.

أما البرانس فهم سكان المدن ويسكنون السهول الخصبة والمدن ويشتغلون بالزراعة والصناعة وهم أكثر تأثرا بالحضارة البيزنطية. وقد قاومت البرانس العرب لتأثرهم بالحضارة البيزنطية.

أما البُتْر فقد تعاونوا مع عرب الفتح الاسلامى منذ اللحظة الأولى. بينما انضم البرانس إلى الحركات المعارضة الإسلامية.

فبعد نزول العرب المسلمين فى بلاد المغرب واختلاطهم بالبربر، قام التعرب الثقافى إلى جانب التعرب السلالى فى بلاد المغرب بصورة تلفت النظر ومثلت قبائل المغرب دورا هاما فى تاريخ العروبة فى مصر وشمالى أفريقيا وبلاد السودان من السنغال فى أقصى الغرب إلى الصومال فى أقصى الشرق.

وكان للفاطميين أثر لاينكر فى هجرة جموع كبيرة من قبائل البربر المتعربة إلى مصر. فمن المعلوم أن الفاطميين قد اعتمدوا فى تأسيس

دولتهم بالمغرب على هذه القبائل، وكان فى جيشهم فرق منهم، وكان من الطبيعى أن تنتقل جميع منهم إلى مصر بانتقال الفاطميين إليها، ولهذا يعد العصر الفاطمى مرحلة هامة فى تاريخ الهجرة المغربية إلى مصر وبالعكس. فجميع العرب الذين يعيشون على الساحل غرب إسكندرية انحدروا من قبيلة سليم وهى القبيلة التى أرسلها اليازورى مع بنى هلال ليقهروا الإقليمين الثائرين تونس وطرابلس، وقد مضى بنو هلال إلى الغرب واستقر بنو سليم فى الجبل الأخضر ببرقة وفزان وودان، واختلط نسهلم بدم البربر، وأخذوا يتنقلون بين مصر وليبيا. ومن هؤلاء قبائل الهنادى والبراغيث، ومنهم بنى عزاز عريف بن عمرو وبنو ذكوان وبنو عوف وبنو الحارث وبنو عصية.

على أن قبائل البربر التى حملت أنسابا عربية تنقسم إلى شعبتين فقبائل لواته تنسب إلى القيسية وقبائل هوارة تنسب إلى السبئية.

على أن مؤرخى العرب يترددون فى نسب لواته وهوارة، وكذلك يختلف المؤرخون فى نسب هوارة فهم من حمير أو البربر، ومع أن هذه القبائل ترجع أصلا إلى البربر إلا أنها اختلطت بالعرب الساكنين معهم فى بلادهم، من طريق الحلف أو الولاة أو المصاهرة وظهر ذلك فى التعرب الثقافى وفى تمثل قدر من العروبة السلالية فى أصولهم البربرية.

على أن التعرب الثقافى وحده كاف للحكم بعروبة هذه الجماعات.

اهتم العرب فى ليبيا بتربية الأنعام، فهى لاتستطيع الاستغناء عنها فى كل الأحوال، وقد برعوا فى العناية بالحيوان، وبلغوا الغاية فى تربية الخيول فهى سلاحهم يدافعون به عن ممتلكاتهم وأنفسهم.

وقد أفادت عرب الفتح البلاد المغربية فى الاهتمام بالأنواع الأصيلة منها. فقد تفاخر الزعماء المغاربة بالخيول العربية وقالوا بأن أفضل الخيول هى الخيل العربى العتاق الأحساب المدربة عند الأعراب.

وكثيرا ماقدم العرب الخيول إلى الجيوش العربية الموجهة إلى الأعداء وخاصة فى البلاد الأسبانية للدفاع عن عرب الأندلس. وقد ازدهرت تربية الخيول فى المنطقة الممتدة من برقة وحتى المغرب الأوسط ثم امتدت حتى ا لمغرب الأقصى بانتقال بطون عربية من بنى هلال وسليم إليها.

على أن أكثر المهتمين بتجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب ابتداء من برقة إلى قابس هم عرب ذباب. كما اهتم العرب بتربية ورعى الأغنام وكانت الكثير من المدن المغربية وضواحيها ومراعيها أوطانا استقر بها العرب وجعلوها مجالا لنشاطهم وسيطرتهم. وتعتبر الأغنام هامة جدا للإقتصاد وذلك لوفرة لحومها وألبانها وأصوافها، وتستخدم أصوافها فى صناعة السجاجيد والخيام.

أما الماعز فتعطى كميات كبيرة من اللبن إذا توفر لها الغذاء وهى ترعى النباتات والأعشاب، وتستخدم أصواف الماعز فى صناعة النباتات والأعشاب. و تستخدم أصواف الماعز فى صناعة الأحبال والمنسوجات، كما توجد فى ليبيا الماشية كالذى يوجد فى شمال أفريقيا ويمتاز بقدرته على مواجهة التقلبات المناخية.

أما الإبل فهى من ذوات السنام الواحد وهو متعدد الأنواع وجميعها يتغذى بالنباتات الشوكية، ونباتات المستنقعات المالحة، وتعطى كميات من اللبن يوميا.

كما توجد معاصر لاستخراج الزيوت فى طرابلس وتاجوراء. كما تتم عمليات التعقيم والتجفيف ثم التعطيب والتسويق، كما يتم دبغ الجلود لوفرة الجلود الخام.

كما يستخرج الملح من الملاحات بكميات كبيرة من الملاحات المنتشرة على طول الساحل فى بنى غازى وكركوزة وطرابلس ومصراته. ويتم تسويقه وتصديره، ويستخدم الملح فى الطعام ودباغة الجلود وصناعة الثلج وتمليح الأسماك.

ويوجد الاسفنج قريبا من الساحل الليبى ويعالج بعدة عمليات صناعية لتنظيفه وتغيير لونه وتنعيمه. وكما اشتغل العرب بتربية الحيوان، اشتغلوا بالزراعة والفلاحة وخاصة القبائل التى اضطرت للاستقرار لسبب أو لآخر على امتداد بلاد المغرب من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا، وخاصة المنطقة من برقة إلى طرابلس التى استقر بها عرب هبيب من بنى سليم كما استقرعرب بنو ذباب فى طرابلس وتاجوراء وهزاعة وزنزوا وغيرها،كما استقروا بفزان وودان.

ويعد الشعير أهم المحصولات الزراعية والغذاء الأساسى للسكان، وهو يفوق القمح. على أن الشعير أكثر ملائمة للمناخ وهو سريع النضج ويزرع الشعير فى فزان على مياه ا لعيون والآبار ويزرع القمح فى السهل الساحلى بالرى والأمطار. كما يزرع فى المرتفعات فى إقليمى برقة وطرابلس على مياه الأمطار. ويتأثر الانتاج الزراعى وفقا لحركة الأمطار.

أما فى فزان فتتم الزراعة بالرى من عيون المياه، وأما سهل جفارة فى طرابلس وسهل المرج فى برقة فهما أشهر مناطق زراعة الجنوب فى ليبيا.

ويناسب المناخ الليبى زراعة الزيتون ولذلك كثرت زراعته، وهو يلى الشعير فى الأهمية للسكان، وتكثر زراعته قرب الساحل وفى الجبل.

ويعد التمر غذاء أساسيا للسكان خاصة فى الواحات ولذلك تكثر زراعته فى الداخل فى قيعان الأودية الجافة ويكثر النخيل فى فزان بصفة خاصة وهو يلى الزيتون فى الأهمية.

وتكثر زراعة الكروم فى طرابلس وبرقة والبيضا ويوجد اللوز فى برقة وطرابلس.

أما الجهات الساحلية فتختص بزراعة الحمضيات وهى أنواع يقبل عليها الأهالى لجودتها ويزرع التبغ فى طرابلس وفى غريان والعزيزية ويستخدم فى صناعة السجاير فى ليبيا.

ويزرع الفول السودانى فى فصل الشتاء وفى السهول الشمالية والأراضى الرملية، وتستخدم مياه الرى لزراعته.

وينبت عشب الحلفا تلقائيا فى أطراف جبل طرابلس وفى المناطق شبه الصحراوية فى ترهونة، ومنه يصنع الورق وخاصة أوراق النقد ويصدر لأوربا.

*****

أما عن التجارة، فقد بسط الليبيون سلطانهم على طرق التجارة بين أفريقيا والمغرب وشمال السودان عن طريقين:

الأول من بلاد أفريقيا فى الشمال متجها صوب الجنوب عبر الواحات

إلى المدن الكبرى فى السودان، عبر حوض السنغال.

كما أن مدن زالة وزويلة ومنيج وودان وصرت وزويلة ابن خطاب كانت تقدر مراكز تجارية مع السودان وكان الملح أهم السلع التجارية مع السودان وكل الشمال الأفريقى.

وكان عرب ذباب من سليم الذين استقروا فى اقليم طرابلس يعيشون من تجارة الملح. على أن العرب اهتموا بتجارة الملح مع السودان وأيضا مع الدول الأوربية بعد طحنه ثم تصديره.

كانت قوافل ا لتجار تتعامل مع السودانيين بالملح والنحاس والودع فى مقابل الصمغ والصدف والخرز والتبر. على أن المنطقة الممتدة من برقة إلى طرابلس وجد بها معدن الكبريت، وقام الليبيون بتصديره، كما وجد ببلاد فزان معدن الحديد ومعدن الفضة فى جبل جرجس.

وهذا شجع الليبيين من عرب ذباب وناصرة على الاستقرار فيها. كما بسط الليبيون سلطانهم على طريق التجارة الممتد من الاسكندرية إلى طرابلس. كذلك فإن برقة كانت المحطة الأولى بين مصر والمغرب.

كما قام الليبون بتصدير الأغنام لمصر وكذلك عسل النحل وشمعه.

*****

أما عن أحوال المغرب الدينية والمذهبية فإن الفتح العربى لبلاد المغرب كان منذ البدء هدفه الأساسى هو نشر الإسلام والعمل على بسط تعاليم الدين الاسلامى لشعوب تلك البلاد، حتى يتعلموا مبادئ الإسلام ويفيض عليهم بأنواره فيسعدون فى حياتهم وبعد مماتهم، وهذا فضلا عن

الأسباب الأخرى منها تأمين العرب لفتوحاتهم فى مصر.

دخل العرب بلاد المغرب، وبها عدد من المعتقدات الدينية، فمنهم المجوس وهم منتشرون فى أنحاء مختلفة من البلاد مثل وليلى عند زرهون وبلاد المصامرة وبلاد السوس. كما اعتنق المجوسية قبائل بنى يازغة وبنى برغش وزناته الحبابية ومغراوة وبنى يفرن الزناتى.

كذلك عرفت تلك البلاد الديانة اليهودية مثل قبيلة جراوة، قبيلة الكاهنة فى جبال أوراس وقبائل نفوسه، فى أفريقيا.

كما عرف أهل السهل الساحلى الأفريقى المسيحية.أخذ البربر يدخلون فى الإسلام وتعلقوا بمذهب الإمام مالك، وكان لهم حصنا لجأ إليه كثير من سكان المغرب بعيدا عن التيارات المذهبية لجماعات الخوارج. وصار للمذهب المالكى وضعه المميز فى المجتمع وجعلوا منه قدوة ومثلا أعلى لهم فى حياتهم.

لقد أخذ الإمام مالك باسلوب مميز هو التمسك بالكتاب والسنة، وهو يسير على طريقة تعدد المناهج وسعة مدى التفكير الذى يفتحه لأنفسهم القائمون على المذهب من تلامذة الإمام، وتعدد الأجواء الفكرية التى يجتهدون فيها، وكثرت الأقطار التى أخذ فيها بالمذهب المالكى. فظهر فى بلاد الشام ثم امتد إلى بلاد المغرب حتى الأندلس.

وكان فقهاء هذا المذهب من جمع بين الفقه العميق والفلسفة فهذا ابن رشد الفقيه الذى تلقى عنه الأوربيون فلسفة أرسطو والذى نازل الغزالى فى هجومه على الفلاسفة، وكان فقيها ممتازا فى الفقه المالكى وله الكتاب القيم

فى الفقه المقارن المسمى (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) .

وهكذا كان انتشار مذهب مالك فى غرب البلاد الإسلامية، حتى يمكن القول أن المذاهب المالكية لعبت دورا كبيرا فى حياة السكان سواء فى المجال السياسى أو فى المجال الحضارى.

وصار مذهب الإمام مالك هو المدخل لكل من يرغب فى الإندماج فى المجتمع المغرب.

لقد حمل تلامذة الإمام مالك الموطأ الذى كتبه الإمام مالك، وهو يعد أول كتاب جمعت فيه روايات من السنة، وكانوا قبله يعتمدون على الذاكرة ولم يكن عزف التدوين، فضلا عن قلة من يعرفون الكتابة.

*****

كذلك وجدت أقليات اعتقدت مذاهب أخرى كانت تمثل تجمعات بشرية لاتتميز بصفة قبلية وإنما بصفة طائفية، ومن هؤلاء الشيعة .

الشيعة بمعنى الذين شايعوا على بن أبى طالب أمير المؤمنين، وقالوا بإمامته وخلافته وأن الإمامة لاتخرج عنه وعن بنيه إلا بظلم وأن على وذريته أحق الناس بالخلافة، ويجمعهم القول بوجوب التعيين للإمام بالنصر عليه من قبله، وبثبوت العصمة للأئمة عن الكبائر والصغائر، ويجمع الشيعة حب على ، ويختلفون فيمن سواه.

ومن الشيعة من يرى أن الإمام فى الكمالات وهى الصفات الروحانية دون النبى وفوق البشر ويعتبرون الإمامة ركن من أركان الإيمان.

ومن الملاحظ أن الباطنية، التى هى أساس الدعوة لطوائف الشيعة، قد لزمهم هذا اللقب «الباطنية» لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا والمقصود بكل هذا هو القرآن الكريم والحديث فهو أشبه بالتفسير عند السنة وبالفقه.

وقد دعوا الناس إلى إمام فى كل زمان يعرف موازنات العلوم الدينية والمذهبية الشيعية يهتدى إلى مدارجها وهم فرق متعددة. منها فرقة أولاد الحسن لأنه أكبر أولاد على وفرقة سلسلتها فى أولاد الحسين لأن الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية فأضاع حق أولاده. وفرقة جعلتها فى محمد بن على من غير فاطمة (محمد بن الحنفية) الابن الثالث لأن الحق آل إليه بعد وفاة أبيه وأخويه. ففى مقدمتهم فى الشام الشيعة الاسماعيلية وهم الذين اعتبرو الامامة منتهية عند اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى عام ١٤٣هـ/ ٧٦٠م وأن الامامة انتقلت إليه بعد أبيه وهو التسلسل الذى نشأ منه الخلفاء الفاطميون فى المغرب ومصر، إلى الخليفة المستنصر الفاطمى.

أما حزب الخوارج، الحزب المعارض الثانى فهو حزب لايؤمن بالوراثة كأساس لنظام الحكم بل يرى أن يكون الإختيار هو الأساس، وأن يسير الخليفة على سياسة دينية ترتضيها الرعية، فإن حاد وجب عليه أن يعتزل الحكم ومن هؤلاء الأباضية.

وقد خرج هؤلاء الخوارج على علىّ لأنهم اتهموه أنه لم يتوخ الحق وقبل التحكيم، وظلوا خارجين على بنى أمية معارضين لهم طيلة مدة حكمهم، لأنهم جعلوا الخلافة ملكا وراثيا. وقد كثرت ثوراتهم واشتد خطرها وخاصة فى أيام الفتنة الكبرى، كفتنة ابن الزبير.

لقد وجد دعاة المذاهب الخارجية فى المغرب مجالا واسعا لنقل أفكارهم ونشرها فى تلك الأنحاء حيث لارقابة من الدولة. وعمدوا فى سبيل نشر دعوتهم إلى الكافة إلى استخدام السلاح حتى تحقق لهم ماأرادو.لقد وجدت الدعوة الأباضية. نسبه إلى عبد الله بن أباض. والصفرية. نسبة إلى زياد بن الأصفر. فى أرض المغرب مايرغبون فيهم غير مقيدين مطلقوا السراح فى نشر دعوتهم ضد الدولة ، خاصة وأنهم قد لقوا جوا مناسبا واستجابة لمعرفة الأحكام الشرعية للدين الإسلامي.

وقد كانت الاستجابة لتلك الدعوات إيجابية بسبب مالاقاه سكان تلك المناطق من ظلم الولاة خاصة من يزيد بن أبى مسلم وعبيد الله بن الحبحاب.

لقد بحث الأهالى عن المساواة الكلية بين الناس، كما لمسوها فى أول عهدهم بالفتح العربى بعد ماجاء من الولاة من أذاقهم صنوف الاضطهاد فألقوا بأنفسهم فى أحضان المذاهب التى روج لها الخوارج بين هؤلاء المظلومين دون ذنب اقترفوه.

لقد نجحت تلك الثورات الخارجية فى تأسيس دولتين، دولة سلجماسة فى جنوب المغرب الأقصى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م والدولة الرستمية فى بلاد المغرب الأوسط وامتدت حتى طرابلس وفزان فى الأرض الليبية بعد مبايعة عبد الرحمن بن رستم إمام الأباضية. وظلت الدولة الاسلامية فى صراع مع هؤلاء الخوارج حتى قضت على نفوذهم السياسى، مع بقاء بعض معتنقى تلك المذاهب

ـ الـ ... والـ...رية. فإن التصوف بعد حركة روحية سياسية،

عرفها العالم الإسلامى من قديم وأدت دورا خطير الشأن، حتى لقد قامت فى بعض الأوقات بكل حركة المقاومة للغارة الأوربية على العالم الإسلامى، فالجماعات الصوفية هى التى دأبت على نشر الدين الإسلامى فى القارة الأفريقية، وروادها - وعلى الأخص الفرق السنوسية - نشرت الزوايا والمساجد امتدادا من برقة فى الشمال ثم جنوبا إلى جغبوب والكفرة وحتى جنوب خط الاستواء بمسافة كبيرة.

وهذه الجماعات هى التى أمدت حركة المقاومة فى شمال أفريقيا، ضد الغزوات الأوربية بكل عناصر الثبات والبطولة، والتى لم تفقد الأمل فى النصر مهما اشتد الخطر وتفاقم الخطب.

والحركات الصوفية هى التى تأخذ هذا المظهر العملى فى حفظ كيان العالم الإسلامى خلال قرون الركود التى عاشها المسلمون تحت ظل الخلافة العثمانية تأخذ مظهرا آخر علميا وروحيا يتجلى لافى الكتب وحدها، ولكن فى هذا النظام الدقيق المحكم فى تسيير الأفراد إلى أى مكان فى العالم الإسلامى حيث يجد الراحل كل أسباب الراحة والأخوة والاطمئنان والذى ييسر له أداء واجبه، ولاغرابة فى أن عظمة المسلمين إنما تتجلى فى الترابط والالتحام.

والتصوف لايخالف شرعة الاسلام، ولايناقض ماتم عليه إجماع الأمة من أصول وهو لايبتدع فى الإسلام مبادئ ليست فيه.

*****

لقد ازدهر الدين الإسلامى فى جميع أنحاء ليبيا منذ عهد الإسلام فى

زمن الفتح، فقد بدأ عمرو بن العاص ببناء أول مسجد جامع فى طرابلس ثم تبعه المسلمون فى بناء المساجد فى عهد الأغالبة، ثم الشيعة الفاطميين فى طرابلس وأجدابية.

كما سارع الليبيون أيضا فى بناء المساجد فى انحاء البلاد، وعمل فيها الفقهاء والعلماء والزهاد أمثال عبد الله الشعاب فى عهد الأغالبة. وعبد الله ابن اسماعيل البرقى توفى عام ٣١٧هـ/٩٢٩م.

وعرف المسلمون المسجد، فكان للعبادة والتعليم والتوجيه، ومكان تشاور المسلمين وتناصحهم فيما بينهم من الأمور العامة للمسلمين ومكان التقاضى ومقر القيادة العسكرية وعقد ألوية الجيش المجاهد فى سبيل نصر المسلمين، ومكان استقبال الوفود القادمة من مختلف الأنحاء.

أما إمام المسجد، فله سكنه بجوار المسجد ويقوم بتعليم المسلمين شئون دينهم فى غير أوقات الصلاة وقد قام المعلم بالمسجد يعلم الفقه وتفسيرالقرآن ورواية الحديث.

كما ألقيت بعض العلوم والمعارف بالمسجد باعتبار أن مافيه مصلحة للمسلمين مطلوب تدارسه حتى يساير المجتمع الإسلامى تطور الحياة ورقيها.

كما أنشئت الكتاتيب فى مختلف أنحاء ليبيا لتعليم حفظ القرآن ومعرفة مبادئ الشريعة الإسلامية، وكانت تحلق بالمساجد أحيانا ثم انتشرت الكتاتيب فى المدن والواحات.

وكذلك انتشرت فى ليبيا الزوايا التى من أشهرها زاوية عبد السلام

الأسمر بمدينة زليطن وقد بنيت عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م ووجدت بمكتبة اشتملت على مئات من الكتب القيمة

بل أن حركة الجهاد التي قادها الزعيم الكبير عمر المختار ضد الاستعمار الإيطالي بدأت من إحدى الزوايا التابعة للحركة السنوسية مما يدل على عظم الدور الذي لعبته الزاوية في حركة الجهاد الإسلامي.

الباب الثانى

أفريقيا (تونس)

الفصل الأول

أفريقيا من الفتح العربى حتى قيام دولة الأغالبة

* الوصف الجغرافى

* الفتح العربى فى أفريقيا (تونس)

* بناء مدينة القيروان فى تونس

* استشهاد عقبة بن نافع فى حروبه فى بلاد المغرب الأقصى واستيلاء كسيله على القيروان وتوقف الفتح

* استعادة العرب للقيروان وعودة الفتح فى بلاد المغرب الأقصى

تقع تونس فى المنطقة الوسطى من الشمال الأفريقى بين البحر المتوسط فى الشمال والشرق.

وليبيا فى الجنوب الشرقى والصحراء فى الجنوب الأفريقى والجزائر فى الجنوب والغرب. وتمتد إليه جبال أطلس من الجزائر عند مدينة تبسّه فى الجنوب الغربى.

بينما تمتد بعض تلال متجهة إلى بنزرت. ويوجد فى تونس نهر مجردة متجها من المغرب فى إنحدار إلى الشمال الشرقى. ويكون سهول خصبة تنمو بها أنواعا مختلفة من النباتات غزيرة الإنتاج لخصوبة الأرض، وهى عامرة بالسكان على طول الساحل المتوسط.

ومن السهل الساحلى من شرق قابس بطول الساحل إلى شط الجريد تمتد الأراضى ذات الخصوبة العالية. وفى الغرب منها مناطق من الحلفا مع وجود بعض السبخات. وبشط الجريد غابة من النخيل ترويها مياه تنبع من الرمل وتعد توزر بشط الجريد وتزخر بها البساتين متعددة الفواكه وتكثر أنواع البلح فى مدينة توزر مع الوفرة العالية منه.

أما فى مدينة قفصة وتقع فى الشمال الشرقى من توزر فتشتهر بزراعة الفستق.

وأما مدن الكاف تبرسق وسليان وباجه وتقع جنوب غرب تونس فتشتهر بانتاج الحبوب لاسيما القمح.

أما بنزرت فهى الثغر التونسى التى يقع فى الغرب الشمالى وتشتهر بإنتاج البقول والزيتون وشرقها بحيرة بنزرت وتكثر بها أنواع الأسماك

ويجاورها أماكن للعبادة والدفاع عن المدينة فهى الرباطات الإسلامية التى أقامها المجاهدون فى سبيل نصرة الدين الإسلامى.

أما مدينة تونس فهى المدينة التى بناها والى أفريقيا حسان بن النعمان فى العهد الأموى، حيث صارت عاصمة فى عهده كما جعل منها وأقام بها دارا لصناعة السفن الحربية.

أما مدينة سوسة وتقع فى الشرق من خليج الحمامات فقد كانت دارا لصناعة السفن الحربية فى عهد الأغالبة والأغالبة هم الذين فتحوا جزيرة صقلية عام ٢١٢هـ/٨٢٧م ثم استولوا على مالطة عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م .

ومدينة سوسة بها أنواع مختلفة من الأسماك كما يصاد بها الحيتان. وتقع مدينة المهدية فى الشرق من سوسة وهى التى بناها الفاطميون فى أول عهدهم وجعلها الخليفة المهدى عاصمة للدولة ودارا للصناعة ومدينة صفاقس فى جنوب المهدية على الساحل وهى مدينة تجارية تزخر بها حدائق الفواكه وأشجار الزيتون. وتواجه مدينة صفاقس جزر قرقنه التى اشتهرت بصيد الأسفنج.

أما مدينة قابس فتقع على مدينة قابس ويكثر بها صيد الاسفنج وشرقها تقع جزيرة جربة.

ويعد حوض نهر مجردة غربا وشط الجريد فى الجنوب الشرقى وفى واحات نفزاوة والمنطقة الوسطى منطقة مراعى للقبائل الرحل.

ومناخ تونس مناخ بحر متوسطى دافئ معتدل تكثر الأمطار فيه شمالا وتقل كلما توغلنا جنوبا.

تولى عثمان بن عفان الخلافة عام ٢٤هـ/٦٤٤م بعد مقتل عمر، فعزل عمرو بن العاص، وولى عبد الله بن أبى سرح ولاية مصر وأفريقيا.

وتقدم عبد الله بن أبى سرح إلى الخليفة عثمان يستأذن فى فتح أفريقيا لضمان أمن مصر من الخطر البيزنطى المحتمل على مصر.

قام والى مصر عبد الله بن أبى سرح من مصر على رأس جيش بلغ تعداده عشرون ألف مقاتل. وانطلق إلى أفريقيا عام ٢٧هـ/٦٤٧م وكان يحكمها القائد البيزنطى جريجوريوس، الذى لم يكن على وفاق مع الامبراطور البيزنطى، مما جعله يستقل بشئون أفريقيا وقد مد نفوذه من اقليم طرابلس إلى طنجة.

التقى المسلمون بجريجوريوس حيث عسكروا فى بلدة قمونية وتبعد عدة أميال من سبيطله التى تحصن بها القائد البيزنطى.

بدأ القتال بين الفريقين دون يحرز المسلمون نصرا. ثم قدمت فرقة من الجند المسلمين يقودهم عبد الله بن الزبير الذى سرعان ماعرض خطة حربية تقضى باستمرار القتال مع الأعداء دون توقف بحيث يتبادل الجنود القتال بالتبادل بحيث يقاتل فريق ويستريح فريق، فلا تكون للعدو فرصة للاستراحة من القتال حتى يمل ثم يفاجأ من المسلمين بالانقضاض عليه بينما جنوده مرهقين من الاستمرار فى القتال.

وقد نجح المسلمون واستولوا على سبيطله بعد مقتل جريجوريوس فى المعركة.

ثم أقبل المسلمون يفتحون المعاقل والحصون واستولوا على مغانم كثيرة.

أدرك البيزنطيون ماحل بأفريقيا فأسرعوا بإرسال الإمدادات عن طريق البحر لاستعادة سبيطله إلا أن المفاوضات التى تمت بينهم وبين المسلمين انتهت إلى عودة عبد الله إلى مصر بعد توليه نافع بن عبد القيس الفهرى عليها. وذلك نتيجة لحدوث ثورة على الخليفة عثمن، انتهت بتولية معاوية بن أبى سفيان الحكم (٤١-٦٠هـ/٦١١-٦٨٠م).

قام معاوية بن أبى سفيان بتعيين معاوية بن خديج على أفريقيا لمتابعة الجهاد، فخرج معاوية بن خديج على رأس حملة فى ام ٤٥هـ/٦٦٥م متجها إلى أفريقيا فى نفس الاتجاه الذى سار فيه من سبقوه من القادة المسلمين.

والتقى معاوية بن خديج بالأعداء عند قمونية وهزمهم ثم اتجه إلى جلولاء، وباشر قتال الأعداء وداوم على قتالهم حتى انكشف لأحد الجنود جزء من سور المدينة قد انقض فأسرع الجندى إلى قائده يخبره بما رأى فاتجه المسلمون مسرعين إلى الجزء المتهدم من السور وهاجموا منها المدينة واقتحموا جلولاء واستولوا على غنائم كثيرة.

ثم سرع معاوية بن خديج فى إقامة المبانى فى ناحية القرن فكانت بداية لبناء مدينة القيروان فيما بعد. ثم اتجه المسلمون بعد ذلك لفتح سوسة ثم من بعدها بنزرت.

وفى عام ٥٠هـ/٦٧٠م، تولى عقبة بن نافع ولاية أفريقيا. وعقبة هو الذى أنشأ مدينة القيروان على بعد أميال من الساحل على طريق المواصلات وبنى بها الجامع ودار الإمارة ثم أحاطها بسور ونمت بعد ذلك حتى صارت مركزا للقيادة الإسلامية.

قاد عقبة جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل وبعث بالطلائع لتساعد الجيش فى قتاله مع العدو وتمكن من فتح كثير من الحصون والقلاع الحربية مثل ودان وجرمه وقصور وغداس وقفصه.

وفى عام ٥٥هـ/٦٧٤م تولى أفريقيا أبو المهاجر دينار، وذلك بالإضافة إلى ولايته لمصر، وبعد أن وصل أبو المهاجر إلى القيروان رأى أن يقيم بمعسكر قريبا منها حيث بدأ منه نشاطه العسكرى.

قام أبو المهاجر من معسكر بالقرب من القيروان على رأس جيش متجها إلى تلمسان وفى طريقه إليها فتح مدينة شريك وأدخل جميع بلاد الجريد فى الإسلام وكذا جميع بلاد الجزائر، وفى تلمسان تقابل أبو المهاجر مع كسيله زعيم قبيلة أوربه من البرانس وتمكن من أسره وتمكن من جذبه إلى الإسلام فأسلم هو وقبيلته.

وبعد وفاة الخليفة معاوية تولى بعده ابنه يزيد فأعاد عقبة بن نافع إلى ولاية أفريقيا فى عام ٦٢هـ/٦٨١م . وفى ولاية عقبة بن نافع وهى ولايته الثانية على أفريقيا اتجه بجيوشه إلى شواطئ المحيط الأطلسى على رأس جيش تعداده خمسة آلاف مقاتل، وهو يعلن على الملأ من جنوده أنه يجاهد فى سبيل الله ورفع راية التوحيد.

واصل عقبة فتوحاته ففتح لمنيس وبغاية وأدنه والروم تفر أمامه خوفا وهلعا حتى بلغ طنجه فقابله حاكمها بليان مرحبا وأعلن طاعة المسلمين.

ثم انطلق عقبة إلى وليلى ثم إلى درعة والسوس فتقابل مع جيوش البربر وهزمهم. ثم واصل سيره حتى بلغ المحيط.

ثم أقام مسجدا فى أرض السوس ليرشدهم عن طريق الدعاة من المسلمين إلى تعاليم الدين. على أن كسيله لسبب فى نفسه خرج عن طاعة المسلمين والتقى مع جماعة من الروم واتفقوا على مواجهة المسلمين واستعادة أرضهم منهم.

وفى أثناء عودة عقبة إلى قاعدته فى القيروان قطع كسيله عليه الطريق فى عام ٦٤هـ/٦٨٣م بأن دبر له كمينا هو وجماعة من الروم. وكان عقبة فى قلة من أنصاره. وبلغ خبر ذلك لكسيله، وانقض على جماعة المسلمين فحاربوه ولكنه تغلب عليهم واستشهد عقبة ومن معه فى مكان يسمى تهوده وأقام المسلمون مسجدا على قبر عقبة، مايزال مزارا مشهودا يؤمه المسلمون.

واصل كسيله ثورته ضد المسلمين حتى دخل القيروان التى انسحب منها زهير بن قيس متجها إلى برقه فى انتظار مدد يأتيه من مصر.

وظل الحال على ذلك حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) فبعث إلى زهير فى عام ٦٩هـ/٦٨٨م جيشا قاده زهير لمهاجمة كسيله وتقابل زهير وكسيله فانهزم كسيله وقتل واستعاد زهير القيروان. ثم واصل هجومه إلى الجزائر واستعاد سلطان المسلمين فيها بعد

أن فرت الروم والبربر منهزمة. ثم عاد ثانية إلى القيروان.

ثم رأى زهير أن يعود لمصر فاتجه إلى برقه وفى برقه كان الجيش الاسلامى قد اتجه إلى القيروان ولم يبق فى برقه إلا قلة من الجند. فانتهز البيزنطيون الفرصة وهاجموا برقة بأسطولهم واستولوا على كثير من السبايا والغنائم.

وصل الخبر إلى زهير الذى أسرع لنجدة المسلمين فتكاثر البيزنطيون على المسلمين وفيهم زهير الذى استشهد فى تلك الموقعة.

وفى عام ٧١هـ/٦٩٠م تولى حسان بن النعمان ولاية أفريقيا.

خرج حسان بن النعمان من مصر متجها إلى أفريقيا يقود جيشا بلغ تعداده أربعون ألف مقاتل عام ٧٤هـ/٦٩٣م اتجه حسان إلى القيروان وبعث بطلائعه يستكشف أماكن تواجد البيزنطيين لما عرفه عنهم من مكرهم وخداعهم فأراد أن يتعقبهم ويقتلهم ويتخلص من شرهم، وأدرك أن مقرهم فى قرطاجه، فأعد جنده وانطلق إلى مقر عاصمتهم قرطاجه ولما كانت المدينة محصنة وقوتها الدفاعية عالية، لم يتمكن المسلمون من فتحها، إلا أن قوة عزيمتهم وتصميمهم على فتحها مهما بلغ بهم الأمر، مكنهم من التغلب على المدافعين عنها ففر من بها من البيزنطيين إلى البحر فانهارت القوة الدفاعية فى قرطاجه وتمكن المسلمون من فتحها. وعندئذ أقبل من بالمدينة إلى المسلمين مذعنين.

بعد ذلك اتجه المسلمون إلى بنزرت ففتحوها ولما تم لحسان القضاء على المقاومة البيزنطية عاد إلى العاصمة القيروان. لتدبير أموره من

جديد. اتجه حسان بعد ذلك لمواجهة البربر وبدأ يستطلع أحوالهم وأماكن تجمعاتهم حتى عرف أن أمراة اسمها داهية وتعرف بالكاهنة تبسط على جموع البربر بتدبير من أعمالها فى السحر والكهانة وتقيم فى جبل أوراس وتجعل منه ملاذا وحصنا لها.

اجتمع بجنوده وواجه البربر تقودهم الكاهنة وفى وادى مسكيانه اشتبك المسلمون مع البربر فى قتال المسلمين يتودهم حسان والبربر تقودهم الكاهنة وتغلبت الكاهنة فى تلك المعركة على المسلمين وقتلت منهم الكثير. وأرغم حسان على الانسحاب من أرض المعركة وظل فى تراجعه حتى بلغ برقه، وأرادت الكاهنة صرف المسلمين عن بلادها فعمدت إلى حركة تخريب وإفساد فى البلاد فكان ذلك وبالا على شعبها الذى اضطر إلى اللجوء إلى حسان يستغيثون من هول ماوقع بهم من أضرار مادية لايستطيعون مقاومتها، فقد أمرت الكاهنة بقلع الزروع والأشجار والثمار حتى صارت الأرض جدباء فجاع الناس.

وعندئذ انطلق حسان بجيوشه وقد انقلب السكان من البربر على الكاهنة وانضموا إلى المسلمين فتمكن المسلمون من دخول قابس ثم قفصة ثم قسطيله ونفزاوة. لقد وجد حسان التأييد والمؤازرة من جموع البربر. وتقابل المسلمون مع الكاهنة عند بئر عرف ببئر الكاهنة واشتبك حسان مع الكاهنة فى معركة عنيفة قتلت فيها عام ٨١هـ/٧٠٠م.

ثم تمكن حسان بعد ذلك من اقامة مدينة تونس وكانت تبعد قليلا من قرطاجه التى خربها المسلمون من قبل وبنى بها داراً لصناعة السفن لمقاومة الاسطول البيزنطى وصد غاراتهم البحرية.

قام حسان بعد ذلك باجراء اصلاحات ادارية فنظم العلاقة بين العرب والبربر وسوى فى المعاملة بينهم جميعا فأدى ذلك إلى ازدياد البربر قربا من المسلمين، وأقبلوا على الاسلام الذى جعلهم فى مرتبة واحدة مع المسلمين وملكهم الأراضى فى المناطق التى لم تقاوم المسلمين.

كذلك افسح لمن أبدى تعاونا مع المسلمين أفسح لهم مجالا طيبا فى المجتمع الاسلامى، فأدخلهم فى خدمة العسكرية الإسلامية.

كما أسند بعض الأعمال فى القيادة المدنية إلى القبائل حسب توزيعها فى البلاد فرحبوا وصاروا أكثر قربا وارتباطا بالعرب. كما قام العرب بالعمل على نشر الدين الاسلامى عن طريق بناء المساجد والكتاتيب مما جعل الأهالى يقبلون على تعلم الدين الاسلامى بهمة وحماس بالغ.

وفى عام ٨٦هـ/٧٠٥م تولى موسى بن نصير ولاية أفريقيا، وبعد أن دخل القيروان أعلن خطته المقبلة فى صراعه ضد الأعداء وأوضح فيها عزمه وتصميمه على تثبيت أركان الدولة الاسلامية. فى كل أرض المغرب . ثم أسرع موسى متجها بجنوده يقودهم إلى القلاع والحصون التى تلى القيروان العاصمة الاسلامية فهاجم قلعة زغوان وفتحها، ثم تابع هذه الخطوة بخطوات تليها فأتم فتح جميع القلاع والحصون التى يخشى على القيروان منها.

ثم اتجه مسرعا إلى المغرب الأوسط (الجزائر) يواصل خططه فى الفتح بحيث يقاتل فى أكثر من اتجاه فى وقت واحد، الأمر الذى يساعد على إرباك العدو فتضعف مقاومته أمام الزحف الإسلامى الصاعد.

ثم اتجه بعد ذلك إلى المغرب الأقصى، وهو يواصل هجومه متشعبا فى أكثر من اتجاه ونجح بن نصير فى خطته هذه أعظم نجاح فقد أحدث فى صفوف المدافعين حالة من الانزعاج الشديد والرهبة من إمامه وابن نصير يسرع فى خطاه متقدما قواته وكله عزم وإصرار حتى وصل إلى مدينة طنجه واقليم السوس فى اقصى الجنوب ثم أسند ولاية طنجه إلى طارق بن زياد، متخذا فى ذلك نفس الخطة التى سار عليها من سبقه فى الاستعانة بأهل البلاد الأصليين من البربر بإعطائهم الفرصة فى تولى مناصب قيادية، الأمر الذى أدى إلى تلاحم العرب والبربر فى العمل على استقرار الأمن فى البلاد.

وعمل ابن نصير على تكليف جماعات من العرب والبربر للقيام بتعليم أهل البلاد من البربر مبادئ الدين الاسلامى والقرآن والسنة، وأنشأ فى سبيل تحقيق هدفه ذلك المساجد والكتاتيب.

ثم شرع فى عمل التنظيمات الإدارية وقسم البلاد إلى ولايات بحيث جعل من طنجه عاصمة للمغرب الأقصى، ومن تلمسان عاصمة للمغرب الأوسط، وجعل للمغرب الأدنى عاصمته القيروان ويشمل طرابلس شرقا وجعل من برقة ولاية منفردة وعاصمتها المرج. كما جعل من سجلماسة عاصمة لولاية السوس الصحراوية. ولما أراد فتح أيبريا (أسبانيا والبرتغال) بعث بطريف، أحد رجاله للاستطلاع، فعاد إليه طريف مشجعا على الفتح فكلف موسى بن نصير طارق بن زياد وذلك فى عام ٩١هـ/٧٠٩م وتمكن طارق من فتح أيبريا التى أطلق عليها العرب اسم بلاد الأندلس وذلك بفضل جهود طارق وبفضل الامدادات التى أمده بها موسى بن نصير بعد ماتوسع طارق فى الفتح.

لقد ساعد مبدأ المساواة بين المسلمين جميعا من عرب وبربر دون تفرقة بين جنس وجنس على الاستعانة بمن دخل فى الاسلام من البربر فأضاف مبدأ المساواة الإسلامى قوة البربر إلى قوة العرب فكان الفتح الذى كان من قادته طارق بن زياد وطريف بن مالك وهما من البربر، أدركوا عظمة الاسلام وملأ قلوبهم فصاروا من أخلص جند الاسلام ولم يشارك البربر فى حمل السلاح لنصر الاسلام فحسب بل شاركوا فى تعليم مبادئ الاسلام بين البربر فى المساجد والكتاتيب التى أقامها موسى بن نصير فى أنحاء البلاد المغربية.

لقد طالت مدةالفتح للبلاد المغربية حتى بلغت مايقرب من ثمانين عاما بينما لم يحدث ذلك للفتوحات الاسلامية فى أى من بقاع الأرض، ويرجع ذلك إلى أسباب منها طبيعة الأرض المغربية ووعورتها فمن سهول ساحلية ضيقة إلى جبال غاية فى الارتفاع مما يتعذر معه التوغل فى تلك الأراضى فى نفس الوقت الذى يسهل فيه لأهلها الدفاع عنها.

كما أن الأمبراطورية البيزنطية لم تكن لتفرط فى ممتلكاتها التى استعمرتها مئات السنين فى سهولة ويسر ولكنها أرغمت على الانسحاب منها أمام جحافل المسلمين.

كما أن عدالة الاسلام فى جعل المساواة بين البشر مبدأ قائما وهدفا، جعل الشعوب المغربية تندفع إلى الدخول فيه والتمسك بأهدافه فى العدل والمساواة.

فلما تخلى بعض قادة العرب والمسلمين عن بعض تلك المبادئ صممت قبائل البربر على التمسك بمبدأ المساواة كما جاء به الدين وثاروا

على حكامهم العرب، مما أدى إلى ارتباك فى الجبهة المغربية وقامت الثورات ضد الحكام الجدد.

وهكذا بدأت صفوف المعارضة تظهر فى بلاد المغرب، وفى عام ٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) تم عزل موسى بن نصير من قيادة المغرب، فعاد موسى إلى دمشق العاصمة بعد أن جعل ابنه عبد الله يخلفه فى حكم بلاد المغرب.

لقد أغضب موسى سليمان بن عبد الملك حين رفض التباطؤ فى الوصول إلى العاصمة دمشق حتى تصير الأموال والغنائم والسبايا إلى سليمان حيث كان الخليفة الوليد فى النزع الأخير فرغب سليمان وقد أوشك على تولى عرش الخلافة أن يستأثر هو بها.

غضب سليمان من موسى بن نصير وتوعده ثم قاضاه على أموال قبضها سليمان بن عبد الملك وخلى سبيله، ثم رضى عنه وندم على يمين كان قد أقسم بها أن لايوليه شيئا وكان يقول أن مثل موسى بن نصير لايستغنى عنه.

ثم أسند سليمان بن عبد الملك ولاية المغرب إلى محمد بن يزيد، حكم أفريقيا والمغرب وعمل بخطة سليمان حين كلفه بولايتها أن يسير بين الناس بالحق والعدل.

وقد التزم محمد بن يزيد بالسير فى حكمه بالعدل بين الناس ولكنه استثنى عائلة ابن نصير من هذه الخطة إذ أصدر أوامره بحبس عبد الله ابن موسى بن نصير وصادر أموال عائلته المقيمة فى القيروان.

وفى عام ٩٩هـ/٧١٧م تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) فأدخل اصلاحات كثيرة فأصدر أوامره بالمساواة بين العرب والشعوب المفتوحة فى الخراج وجباية الأموال.

لقد عمل عمر بن عبد العزيز بنظرية عالمية الإسلام فحارب العصبية ورفض العنصرية والجنسية ونادى بالعدل والمساواة دون تفرقة، وعاش العرب والبربر فى جو مشبع بالمحبة والوئام وتمتع الجميع بالعدالة والرفاهية وبالرخاء.

بعث عمر بن عبد العزيز بعشرة من الفقهاء يتزعمهم اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر الذى اسند إليه ولاية أفريقيا عام ١٠٠هـ/٧١٩م ليعملوا على نشر الاسلام.

اسلم كثير من البربر بأعداد كبيرة للغاية وأقبل الشباب على التفقه فى الدين مما ساعد على سرعة انتشار الدراسات الدينية فى أفريقيا والمغرب.

وفى عام ١٠١هـ/٧٢٠م تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م) بعد وفاة عمر بن عبد العزيز فتم فى عهد يزيد عزل اسماعيل بن عبد الله وعين لولاية أفريقيا يزيد بن أبى مسلم.

تولى يزيد بن أبى مسلم ولاية أفريقيا فى ١٠١هـ/٧٢٠م وسارعلى سياسة مغايرة لسياسة سلفه تماما، حيث عامل الأهالى بالشدة على عكس ماكان عليه الحال من قبل، فأسخطت السياسة الجديدة شعب البربر وبدأت فكرة التخلص من الوالى الجديد بقتله، وتم لهم ذلك ثم بعثوا إلى الخليفة يعلموه بما وقع من أحداث ويلتمسون لأنفسم العذر فى مقتل واليهم يزيد بن

أبى مسلم لأنه خرج عن دعوة الحق وأساء السيرة فى الناس وأعلنوا فى نفس الوقت طاعتهم للخليفة.

وقبل الخليفة يزيد بن عبد الملك بالأمر الواقع واستجاب لأهل البلاد، وعين بشر بن صفوان لولاية أفريقيا. وتوجه بشر بن صفوان فى عام ١٠٢هـ/٧٢١م من مصر وكان واليا عليها فكلف أخاه حنظلة بخلافته فى ولاية مصر وواصل هو مسيره إلى القيروان فى نفس العام وعندما استقامت الأمور لبشر بن صفوان فكر فى العودة إلى مصر لمقابلة الخليفة يزيد بن عبد الملك فوجد مكانه فى عرش الخلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) الذى أبقى عليه فى منصبه واليا على أفريقيا، وعاد بشر إلى منصبه وأخذ فى ممارسه عمله، وبعد قيامه بغزوة بحرية فى جزيرة صقلية، وترتيب شئون إدارته فى البلاد مرض وأحس بدنو أجله فكلف أحد رجاله المخلصين ليقوم بإدارة البلاد بدلا منه. وفى عام ١٠٩هـ/٧٢٧م توفى بشر بن صفوان.

وفى عام ١١٠هـ/٧٢٨م اسند هشام بن عبد الملك ولاية أفريقيا إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى الذى وصل إلى القيروان فى عام ١١٠هـ/٧٢٨م وفى خلال مدة حكمه سار عبيدة بن عبد الرحمن على سياسة التعصب البغيضة فانحاز إلى القيسية لأنه قيسى واضطهد اليمنية، وبذلك ظهرت النزعة العصبية الأمر الذى أوجد عاصفة من الخلافات والانقسامات بين القبائل العربية فى بلاد المغرب والأندلس.

وفى عام ١١٤هـ/٧٣٢م كلف عبد الرحمن عقبة بن قدامة بإدارة شئون البلاد واتجه هو إلى المشرق قاصدا دمشق لمقابلة الخليفة خشام. وبعد

أن قدم الهدايا والتحف بأنواعها ومن الذهب والفضة ومن غيرها. طلب من الخليفة إعفاءه من منصبه. فاستجاب له الخليفة وأعفاه من منصبه بسبب مارصلته من شكاوى ضد عبد الرحمن وتولى عبيد الله بن الحبحاب ولاية أفريقيا فى عام ١١٦هـ/٧٣٤م.

قام عبيد الله بالعمل على استقرار الأحوال فى بلاد المغرب الأقصى فى السوس فبعث بالحملة العسكرية التى قادها حبيب بن أبى عبيده وتمكنت الحملة من العمل على استقرار الأحوال فى تلك الجهات.

على أن عبيد الله بن الحبحاب لم ينهج خطة سياسية رشيدة فى تعامله مع الأهالى واستخدم أساليب تخالف العرف الاسلامى فى العدل والمساواه بين جميع البشر، فأثار بسياسته تلك حركة عصيان بين البربر وبدأ الصراع المسلح فى البلاد.

لقد أخطأ عبيد الله بن الحبحاب ولم يتعظ بما حدث لأسلافه من الولاة السابقين ومارتكبوه من أخطاء حين تخطوا مبادئ الاسلام فى اتباع المساواة ونشر العدل بين الناس جميعا دون تفرقة بينهم بأية حال.وعملوا فى نفس الوقت على إرضاء الخلفاء فأكلوا أموال الناس بالباطل ليدلوا بها إلى الحكام حتى ولو كان ذلك ضد مبادئ الدين الاسلامى. فبعثوا بما استولوا عليه من الاموال فى أشكالها المختلفة. مما أوغر صدور الذين أقبلوا على الاسلام عن طواعية واختيار لما لمسوه من عدالة ومساواة، فلما انقلب الحال بتغير خطط الولاة فى السير فى الطريق غير القويم، وذلك مثل محاولة معاملة الذين دخلوا فى الاسلام بنفس معاملة من بقى على دينه فثار البربر وأعلنوا العصيان وانضموا إلى الخوارج الذين طالبوا بمبدأ

المساواة بين جميع البشر وفقا لتعاليم الاسلام ، ولقى المذهب الأباضى والمذهب الصفرى المؤازرة التامة من جموع البربر الساخطة على خطط الإدارة الفاسدة والمنافية لتعاليم الاسلام.

علم عبيد الله بن الحبحاب، بما حل بالبلاد من قلاقل وثورات ظهرت فى بلاد المغرب الأقصى يقودها ميسرة المدغرى البترى الذى انضم إلى الصفرى وتبعته قبيلته حيث أخذ بدعوتهم. ثم تقدم الثوار فى المغرب الأقصى واستولوا على طنجه ثم واصلوا سيرهم إلى السوس واستولوا عليه ثم أعلن ميسرة نفسه خليفة وتابعه شعبه من البربر. بعد ذلك تقدم ميسرة شرقا متجها إلى القيروان للاستيلاء عليها ولكنه هزم فى إحدى معاركه وتولى مكانه خالد بن حميد الزناتى فى عام ١٢٣هـ/ م.

أرسل عبيد الله بن الحبحاب بجيوشه يقودها خالد بن حبيب لمواجهة البربر وهم يقودهم خالد بن حميد الزناتى الذى تولى قيادة البربر بعد مقتل ميسرة والتقى العرب والبربر، فانهزم خالد بن حبيب حيث تكاثر عليه البربر وسقط قتيلا فى المعركة، وواصل عبيد الله بن الحبحاب قتاله البربر بأن بعث جيش حبيب بن أبى عبيده للعودة من غزوة بصقلية والإنضمام إلى جيش خالد بن حبيب فى الجزائر عند نهر شلف والتقى جيش عبيد الله بن حبيب والبربر فانهزم العرب.

وبلغت أنباء الهزائم الخليفة هشام بن عبد الملك فعزل عبيد الله من ولاية أفريقيا وولاها كلثوم بن عياض القشيرى فى عام ١٢٤هـ/٧٤١م يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر.

تقابل جيش كلثوم القشيرى مع جيش البربر فانهزم كلثوم وسقط قتيلا

فى المعركة فكلف هشام حنظلة بن صفوان الكلبى بولاية أفريقيا ويقدم حنظلة إلى القيروان.

وهنا يلجأ البربر إلى التنسيق لمواجهة الوالى الجديد عسكريا فاجتمع فى الجزائر بالزاب زعيمان صفريان هما عكاشة بن محصن وهو عربى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى من البربر، وأبلغت طلائع حنظلة التى بعث بها للاستطلاع والتحرى بتحركات وخطط الصفرية، فأسرع حنظلة بلقاء عكاشة وتغلب عليه وهزمه ثم تقدم عبد الواحد متجها بجيشه إلى القيروان.

اجتمع مع حنظلة أهالى القيروان من الرجال والنساء والفقهاء، فاشتعلت القلوب حماسا فى صفوف جيش حنظلة فتغلب على عبد الواحد الهوارى وهزمه.

وفى عام ١٢٦هـ/٧٤٣م قتل الخليفة الوليد بن يزيد فأعلن عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع نفسه واليا على أفريقيا فى ١٢٧هـ/٧٤٤م، ولكن حنظلة رأى أن يتريث فى الأمر تجنبا لسفك دماء المسلمين، وعزم على العودة إلى مقر الخلافة الأموية فى دمشق فوصلها فى عام ١٢٩هـ/٧٤٦م فى الوقت الذى كان مروان بن محمد قد تولى عرش الخلافة (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٥٠م) فأقر الخليفة ولاية عبد الرحمن بن حبيب على أفريقيا درءا للانقسامات والنزاعات.

وفى عام ١٣٠هـ/٧٤٧م قامت بطرابلس ثورة يقودها عبد الله بن مسعود التجيبى الأباضى فبعث إليه عبد الرحمن بأخيه الياس فقضى على الأباضية الثائرين، فلجأت الأباضية إلى الحارث بن تليد وجعلته إماما للأباضية، فعين تليد عبد الجبار بن قيس المرادى وزيرا له. ثم تقابل

الأباضية مع عبد الرحمن فانهزم الأباضيون عام ١٣٢هـ/٧٤٩م.

وفى عام ١٣٢هـ/٧٤٩م قامت الدولة ا لعباسية بعد انهيار الدولة الأموية التى انتهت باستشهاد مروان بن محمد أخر خلفاء الدولة الأموية.

تولى أبو العباس عبد الله (السفاح) وأول خلفاء الدولة العباسية (١٣١-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٤م) فأقر عبد الرحمن بن حبيب فى ولايته على القيروان وأفريقيا حيث أعلن مبايعته للعباسيين وهو الذى هاجم الصفرية فى تلمسان وهزمهم فى عام ١٣٥هـ/٧٥٢م وفى عام ١٣٦هـ/٧٥٤م تولى أبو جعفر المنصور الخلافة (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) فأقر أبو جعفر المنصور ولاية عبد الرحمن على أفريقيا.

وفى عام ١٣٧هـ/٧٥٤م قتل عبد الرحمن بن حبيب بتدبير من أخويه الياس وعبد الوارث ثم تمكن حبيب من عمه إلياس وقتله، وتولى هو مكان عمه وفى عام ١٣٨هـ/٧٥٥م هاجمت قبيلة ورفجومه القيروان واستباحتها.

وفى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م حارب حبيب الصفرى وقتل حبيب فى المعركة. وظلت القيروان مستباحة من قبل ورفجومه، فلجأ أبوالخطاب عبد الأعلى بن ا لسمح الأباضى إلى محاربة ورفجومه وهزمها وحمى القيروان من شرهم فى عام ١٤١هـ/٧٥٨م وتولى عبد الرحمن بن رستم ولايتها. وعندئذ بعث أبو جعفر المنصور بوالى مصر محمد بن الأشعث بجيش كبير إلى أفريقيا وتمكن من هزيمة الأباضية بقيادة أبى الخطاب الذى هزم فى المعركة. فانسحب عبد الرحمن بن رستم إلى اقليم الزاب فى الجزائر وهناك أقام دولة أباضية المذهب فى تاهرت، عاشت حتى عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م

وفى عام ١٤٨هـ/٧٦٥م اعتلى الأغلب بن سالم التيميم ولاية أفريقيا،ولما قتل فى عام ١٥٠هـ/٧٦٧م خلفه عمر بن حفص المهلبى وأقام مدينة طبنه فى الزاب فهاجمته الأباضية بزعامة أبى حاتم وحاصروا القيروان فقتل فى المعركة فى عام ١٥٤هـ/٧٧٠م.

ثم تولى يزيد بن حاتم قيادة أفريقيا وتمكن فى فترة حكمه من التغلب على الصفرية فى اقليم الزاب والأباضية فى طرابلس، وفى جبل نفوسه. وبذلك سيطر أهل السنة على كل بلاد المغرب.

اهتم يزيد بن حاتم بالتعمير والتجديد فى القيروان فأصلح فى جامعها، وأعاد ترتيب أسواقها فجعل لكل حرفة مكانا خاصا بها.

رأى مرة فى تجواله فى المدينة غنما كثيرا ولما علم أنها ملك لإبنه أمر بذبحها وتوزيعها على الأهالى ومنع ابنه من الاشتغال بالتجارة. ومات فى ١٧٠هـ/٧٨٦م وفى عام ١٧١هـ/٧٨٧م تولى بعد أخوه روح بن حاتم الذى فى عهده ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب(١٧٢ـ٣٧٥هـ/٧٨٨ـ٩٨٥م)

قامت دولة الأدارسة فى بلاد المغرب على يد الإمام أدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى فر من العباسيين عام ١٦٩هـ/ م فى عهد الخليفة العباسى الهادى. وأقام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، دولة علوية عام ١٧٢هـ/٧٨٨م وأسسوا مدينة فاس وجعلوها عاصمة لهم.

وفى عام١٧٤هـ/ ٧٩٠م توفى روح بن حاتم وتولى بعده نصر بن

حبيب المهلبى وعرف بحسن سيرته. ثم عزله الخليفة هارون الرشيد وولى عليها الفضل بن روح ثم عزل وعين مكانه هرثمة بن أعين عام ١٧٩هـ/٧٩٥م الذى سار على خطة حسنه فى مدة حكمه وهو الذى بنى رباط المنستير لحماية الساحل من غارات قراصنة البحر المتوسط، بناه بين سوسة والمهدية، ثم اتجه عائداً إلى المشرق عام ١٨١هـ/٧٩٧م فولى الرشيد على أفريقيا محمد بن مقاتل اسكى . ثم عزله

وفى عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م قامت دولة الأغالبة فى أفريقيا بتوجه من الخليفة العباسى هارون الرشيد.

الفصل الثانى

أفريقيا (تونس) منذ عهد الأغالبة إلى الاستقلال

* قيام دولة الأغالبة فى أفريقيا (تونس)

* انتهاء دولة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية الشيعية فى أفريقيا (تونس)

* بناء المهدية العاصمة الجديدة فى تونس للدولة الفاطمية الشيعية

* انتقال الدولة الفاطمية الشيعية إلى مصر. وتولية زيرى الصنهاجى حكم أفريقيا والمغرب.

* خروج الدولة الصنهاجية فى عهد المعز بن باديس عن طاعة الفاطميين ودخوله فى طاعة الدولة العباسية

* الهجرة الهلالية من مصر إلى البلاد المغربية ونتائجها فى أفريقيا

* ظهور الدول والإمارات فى أفريقيا

* ضعف القوة الدفاعية للبلاد وظهور الأطماع الاستعمارية الفرنسية فى تونس

* حركات التحرير التونسى واستقلال البلاد

دولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩٠٩م) قامت دولة الأغالبة فى أفريقيا (تونس) بتوجيه من الخليفة العباسى هارون الرشيد للعمل على إخماد ثورات البربر والوقوف فى وجه الأدارسة إذا حاولوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية.

أسس دولة الأغالبة ابراهيم بن الأغلب التميمى ١٨٤هـ/ ٨٠٠م واتخذ القيروان عاصمة للدولة وعمل على تكوين قوة بحرية ضخمة وبنى مدينة العباسية على بعد قليل من القيروان وجعل بها معسكرات الجند وخزائن السلاح. وجعلها دار إمارة لدولته ثم خلف بعد وفاته ابنه أبو العباس عبد الله عام ١٩٦هـ/ ٨١١م وفى عام ٢٠١هـ/٨١٦م توفى أبو العباس وخلفه فى الحكم أخوه زيادة الله (٢٠١- ٢٢٣هـ/٨١٦-٨٣٧م) وفى عهده صار الأسطول الأغالبى أقوى أساطيل البحر المتوسط كما اهتم بالتعمير فأقام المساجد والقناطر والأربطة والخزانات بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة وشغف بالفنون والآداب.

كما جاهد فى سبيل نشر راية الإسلام. ففى عام ٢٠٦هـ/٨٢١م قام بغزو سردينية وعاد منها بغنائم كثيرة وكانت غزواته لتلك الجزر لدرء خطر الغارت البيزنطية على السواحل الأفريقية.

وظل الاسطول الأغالبى يسيطر على جنوب أوربا فى صقلية وأيطاليا. وفى عام ٢١٢هـ/٨٢٧م أخضع الأغالبة لسلطانهم جزيرة صقلية حين أرسلوا اسطولهم وأنزلوا جيشا يقوده أسد بن الفرات ففتح صقلية بعد ماحارب الصقليين وهزمهم فى موقعة بمدينة مازر. ثم واصل الاستيلاء على القلاع والحصون حتى خضعت له الجزيرة.

وفى عام ٢٢٣ هـ/٨٣٧م توفى زيادة الله فخلفه أخوه الأغلب .وفى عهده واصل الأغالبة فتح مابقى من صقلية.

وفى عام ٢٢٦هـ/٨٤٠م تولى الحكم أبو العباس محمد (٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤٠-٨٥٦م) وفى عهده فى عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م هاجمت بعض سفن الأسطول الإيطالى سواحل أفريقيا وغنمت وأسرت عددا من سكان الساحل التونسى، فأصدر الأمير محمد أوامره بغزو أيطاليا وقام الأسطول الأغالبى بالهجوم على ضواحى روما واقتحموا واستولوا على غنائم كثيرة، ثم تكررت غزواتهم لردع المعتدين وإرهابهم.

وفى عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م توفى الأمير محمد وتولى الإمارة ابن أخيه أحمد الذى استولى الأغالبة فى عهده على قصريانه آخر معقل فى صقلية فى عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م كما قام بترميم وتزيين الجامع الكبير بالقيروان وبنى الصهاريج بالقيروان وماجل وسوسة. وتوفى فى عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه زيادة الله الثانى ثم أعقبه فى الحكم ابن أخيه أبو الغرانيق ٢٥١هـ/٨٦٥م وفى عهده فتح الأغالبة جزيرة مالطة فى عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م وبقيت تحت حكم القيروان مايقرب من مائتين وخمسين عاما وتوفى عام ٢٦١هـ/٨٧٤م أبو الغرانيق وتولى الحكم بعده أخوه ابراهيم (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٤-٩٠١م) الذى تم فى عهده فتح سرقوسه فى عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م أخر معاقل البيزنطية فى صقلية، وهو الذى بنى مدينة رقاده على بعد أميال من القيروان وجعلها دار إمارته.

وفى عهد الأمير ابراهيم انشئت بيت الحكمة أنشأها الأمير ابراهيم ودعى إليها العلماء من أطباء وفلكيين وفنانين، كما أسس مكتبة ملأها

بنفائس الكتب، وجعلها مقصد للطلاب من كل مكان، وهكذا تحولت تونس إلى منارة للعلوم والفنون والآداب.

كما اهتم ابراهيم بالرباطات وخصها بنظام للحراسة باسلوب متطور بحيث يمكن عن طريق الاشارات الضوئية تأخذ الرباطات حذرها فى الوقت المناسب وتكون جاهزة للدفاع ضد الأعداء المتربصين.

ثم فاجأت ابراهيم حالة مرضية اضطرت الخليفة العباسى أن يبعث إليه ليعفى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله الذى لم يلبث أن توفى عام ٢٩٠هـ/٩٠٢م مخلفا ابنه أبا مضر زيادة الله وفى عهده انتهت دولة الأغالبة. التى نهضت بأفريقيا وكونت اسطولا فى البحر المتوسط فتحت به صقلية ومالطة فتعربت كلتاهما ودخلت فى الاسلام.

لقد كان سقوط الأغالبة على يد الفاطميين الذين قضوا على دولة الأباضية ودولة الأغالبة وبسطوا سلطانهم على تلك البلاد.

انضمت كتامة المغربية إلى الدعوة الشيعية الفاطمية بعد مقابلة تمت مع بعض من كتامة المغربية (الجزائر) وهم فى موسم الحج بمكة مع الداعية أبو عبد الله الضعانى الذى سافر معهم إلى المغرب وأعلن لهم دولة آل البيت الذين هم أحق بالخلافة من غيرهم.

واستجابوا له وبدأ يرتب التنظيمات العسكرية ثم اتجه بها إلى أفريقية (تونس) وتغلب على الأغالبة وعلى قواتهم فى الأربس ثم دخل القيروان فاستولى عليها. ودبر الأمور لدعوة عبيد الله المهدى للحضور من مقر الدعوة فى أرض الشام، وللتغطية وخوفا من الرقابة العباسية جعل خط

سيره إلى سجلماسه فى المغرب الأقصى فاعتقل هناك ثم تمكن من الهروب واتجه إلى القيروان فى عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م وتسلم القيادة من أبى عبد الله الضعانى وتلقب بأمير المؤمنين ثم بدأ فى بسط نفوذه على بلاد المغرب الأقصى واستعان فى تحقيق هدفه بقبيلة صنهاجة بالجزائر وزعيمها مطالبه، والذى قاد جيشا زحف به إلى بلاد المغرب الأقصى وفتح مدينة فاس بعدما تغلب على الأدارسه بها، ثم بدأ الشيعة الفاطميون يعملون على جذب علماء السنة إلى صفهم فتجادل الفريقان فى القيروان (١).

وأدرك عبيد الله أن القيروان لن تعطيه الأمان فعمل فى بناء مدينة له يقيم فيها هو وأسرته.

وبدأ العمل فيها عام ٣٠٣هـ/٩١٥م وتقع بين سوسة وصفاقس حتى تم له بناءها فى عام ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م وهى مدينة المهدية وجعلها مقر حكومته.

وبدأ الجهاد ضد الأعداء فسارع إلى صقلية بجنوده ليعيد طاعة أهلها إليه، وعين عاملا له عليها.

ولما ثارت الأباضية فى طرابلس، كلف ابنه القائم بردعهم وتغلب القائم على الثوار وفرض عليهم غرامة يدفعونها ثم خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبنى مدينة المحمدية (المسيلة) وفى عام ٣٢٢هـ/٩٣٣م توفى

(١) قالت الشيعة بأن الامامة هى أهم المطالب فى أحكام الدين والتى يحصل بسببها إدراك نيل درجة الكرامة وهى أحدى أركان الإيمان للمستحق بسببه الخلود فى الجنان فقد قال رسول الله «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهلية».

فعارضتهم جماعة السنة وقالو بأن النبى فسر الإيمان وشعبه ولم يذكر «الامامة» فى أركانه ولاجاء ذلك فى القرآن.

عبيد الله المهدى وقام بالإمامة بعده ابنه القائم، وفى عهده تم غزو جنوه وكرسيكا وسردانيه، واستولى قائد البحرية يعقوب بن أسحق على الغنائم الكثيرة منها.

وفى عام ٣٢٦هـ/٩٣٣م قامت ثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الصفرى وهاجم أفريقيا (تونس) ودخل تبسه والأربس وباجه وتونس ورقاده والقيروان ثم حاصر المهدية وفاجأ القائم الموت فتولى ابنه المنصور قيادة البلاد، وذلك فى عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ثم بعث يطلب المساعدة من صنهاجة وسرعان ماأقبلت صنهاجة وبفضلها تم انسحاب المحاصرين للمهدية.

وبعث المنصور بأسطوله إلى سوسه وكانت الصفرية قد استولت عليها وتمكن من التغلب على أبى يزيد زعيم الصفرية فانسحب أبو يزيد يريد القيروان فصده أهلها عنها. ثم تغلب المنصور على أبى يزيد فى عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م. واحتفل المنصور بهذا الفوز الذى ناله على عدوه فأنشأ مدينة المنصورية فى عام ٣٣٧هـ/٩٤٨م مجاورة للقيروان. وفى عام ٣٤١هـ/٩٥٢م توفى المنصور وتولى مكانه ابنه المعز وفى عهده تم إخضاع المغرب من أدناه إلى أقصاه بفضل جهوده القائد جوهر الصقلى فى عام ٣٤٧هـ/٩٥٨م.

وفى عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م بعث المعز الفاطمى بجوهر الصقلى إلى مصر على رأس جيش كبير استطاع به دخول مصر، وفى مدينة الفسطاط خطب جوهر فى جامع عمرو بن العاص باسم الخليفة المعز الفاطمى.

وبعث جوهر يدعوه للحضور لمصر، فقام المعز بتدبير شئون المغرب ثم بدأ رحلته إلى مصر فى عام ٣٦١هـ/٩٧١م وامتد سلطان المعز الخليفة

الفاطمي من الشام إلى مصر حتى بلاد المغرب الأقصى.

أسند الخليفة المعز الفاطمي حكم المغرب إلى زيرى زعيم صنهاجة وكافأه لمساعدته فى تحقيق نصر على مخلد بن كيداد الزعيم الصفرى. وقام زيرى الصنهاجي بعمل اصلاحات وأقام المدن فى المغرب الأوسط (الجزائر) حين كلف ابنه بلكين ببناء مدن الجزائر ومليانه والمدية.

عمل بلكين على تأسيس دولة قوية فقام على رأس جيش فى عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م لاخماد الثورات التى قامت ضد الفاطميين وتمكن من التغلب على الثائرين ودخل مدينة فاس وأصيلا على المحيط الأطلسى.

وفى عام ٣٧٤هـ/٩٨٤م توفى وزيرى وخلفه فى حكم البلاد ابنه المنصور ورأى المنصور بن بلكين ان يتخلى عن بلاد المغرب الأقصى بسبب المشاكل والحروب التى سببتها له مع قبيلة زناته ومع أعمامه، واكتفى بإمارة أفريقيا تونس والجزائر الشرقى من الجزائر حتى الزاب.

وفى عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م توفى المنصور وخلفه ابنه باديس وفى عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م كلف عمه حماد بقيادة جيش للقضاء على ثورة قامت بها زناته فى المغرب الأوسط (الجزائر) وتمكن حماد من تحقيق انتصار على زناته وعاد وبنى قلعة حماد فى قسنطينة لتكون مقرا لقيادته. ثم حارب عمه حماد وتوفى عام ٤٠٦هـ/١٠١٥م.

وتولى الحكم بعده ابنه المعز وكان طفلا فتولى أعمامه قيادة الدولة.

أما حماد فقد استقل بما استولى عليه من أرض زناته فى إقليم الزاب لوعد أعطاه إياه المنصور بامتلاك مايفتحه من أرض زناته.

وفى عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م بعث المعز بجيش لمحاربة عمه حماد. وهزم حماد فى المعركة ولكنه طلب الصلح مقابل استمرار فى حكم البلاد التى استولى عليها من زناته وإعلان تبعيته للمعز.

وهكذا قامت إمارة بنى حماد الصنهاجية وعاصمتها قلعة بنى حماد فى غرب الجزائر بجوار دولة صنهاجة التى عاصمتها القيروان.

وفى عام ٤٣٨هـ/١٠٤٧م حول المعز بن باديس تبعيته للخلافة الفاطمية في القاهرة إلى الخلافة العباسية فى بغداد وكان ذلك تمشيا مع رغبة الجماهير الرافضة للمذهب الشيعى الفاطمى ومن هنا كانت الخطة التى دبرها الفاطميون ضد الدولة الصنهاجية المغربية (تونس). انتقاما من أميرها المعز بن باديس الذى خرج عن تبعيته لهم فى العقيدة والإدارة.

انتقل المعز بن باديس إلى المهدية وتوفى عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م بعد أن ترك أفريقيا (تونس) وقد دخلتها المدنية والحضارة والعلوم وازدهرت الزراعة والصناعة، وتولى الحكم تميم بن المعز بعد وفاة أبيه، وفى عهده قاومت البلاد غارات الأعداء على سواحلها لم تمكن أحد من الأعداء الطامعين إلا أن صقلية خرجت عن سلطان تميم بن باديس وتبعتها جزيرة مالطا، وتوفى تميم فى عام ٥٠١هـ/١١٠٧م وتولى الحكم بعده ابنه يحى.

وفى عهده استعادت الدولة قوتها البحرية وقامت بغزوات بحرية إلى جنوه وسردانيه وعادت محملة بالغنائم.

وفى عام ٥٠٩هـ/١١١٥م توفى يحى وتولى بعده ابنه على، وفى عهده صار النورمان يشكلون خطرا كبيرا على المهدية فاستنجد على بن

تميم بالمرابطين الذين تمكنوا من حماية المهدية من الخطر النورماندى وقاموا بغزو صقلية.

وفى عام ٥١٥هـ/١١٢١م توفى على وخلف ابنه الحسن بن على ابن تميم. وعاود روجر الهجوم على المهدية ولم يتمكن الحسن بن على بن تميم من الدفاع عنها فسقطت المهدية فى عام ٤٥٣هـ/١١٤٨م.

وسقطت مدن الساحل الأفريقى وطرابلس فى يد النورمان إلا أن الدولة الموحدية هاجمت النورمان وردتهم عن البلاد واستعادت البلاد من النورمان عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م وتولى الحسن بن على الصنهاجى الحكم وشاركه عاملا عينه الموحدون، وكان هذا آخر عهد دولة ابن باديس بأفريقيا (تونس).

*****

لما بعث الفاطميون فى عام ٤٤٩/١١٠٥م بقبائل بنى هلال وسليم إلى بلاد المغرب نكاية فى المعز بن باديس أمير أفريقيا (تونس) وحاربوا المعز فحاربهم وهزم فى المعركة وسقطت القيروان فى أيدى العرب. كانت نتيجة ذلك أن تفتتت أفريقيا وتحولت إلى إمارات صغيرة فكانت لأسرة جامع من بطون رياح إمارة فى قابس وقضى عليها الموحدون. كما تمكن بنو الورد اللخميون من إقامة إمارة عربية فى بنزرت، وأقام بنو هلال من عرب قيس البلدين إمارة عربية فى وادى مجرده شمال تونس واستقروا بطبرقة وكانت مرسى لأهل الأندلس.

وعلى الرغم من أن الهجرات الهلالية التى اتخذت مظهر الفتح

وتأسيس الإمارات العربية عملت على تعريب القبائل البربرية بالمغرب،لأن الفتوحات الإسلامية الأولى نجحت فى نشر الدين الإسلامى واللغة العربية بالمغرب فأتت الهجرات الهلالية لتضيف إلى ذلك الدم العربى وتعدل التكوين الجنسى والعنصرى لسكان المغرب حتى صار البربرى القديم لايلتمس إلا فى معاقل الجبال ذات الطبيعة الوعرة ولايميز إلا ببعض الظواهر اللغوية.

وأضافت هذه القبائل العربية إلى حضارة شمال أفريقيا سمات جديدة ونتج عن امتزاج العرب والبربر أجيال أقوى شكيمة وأشد مراسا من أجدادهم .

على الرغم من كل ماتقدم من إيجابيات للهجرة الهلالية، إلا أن للهجرة الهلالية سلبياتها فقد مكنت النورمان من غزو المهدية وأكثر من مرة واستولوا على ساحل أفريقيا ومدن قابس وصفاقس والمنستير وسوسة وصال وجال روجر فى البلاد حتى تمكن من التغلب عليه الموحدون. وكل ذلك سببه هجرة العرب إلى أفريقيا التى تسببت فى تفتيت قواها بعد ماتحولت إلى إمارات صغيرة فأتى إليها من يغزوها فلا يجد أحدا يدافع عنها.

بعد أن تغلب الموحدون على النورمان وحرروا المهدية وسائر الساحل الأفريقى، وعاد الأمير الحسن بن على الصنهاجى للحكم وأشرك معه أحد العمال الموحدين ونقلت عاصمة الدولة إلى تونس. وظلت الدولة الموحدية تبسط سلطانها فى أفريقيا وتقاوم الثورات وتقضى عليها حتى كان عهد السلطان الناصر بن يعقوب الموحدى، الذى تمكن من التغلب على بقايا

الدولة المرابطية واسترجع المهدية من ابن غانية المرابطى وعاد إلى عاصمة دولته مراكش عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م.

واستخلف على أفريقيا أبا محمد عبد الواحد بن يحى بن أبى حفص، وكان ذلك الدور الذى اسند للشيخ أبى محمد عبد الواحد بداية قيام الدولة الحفصية.

فالدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدين وذلك أن الخليفة الموحدى محمد الناصر فوض أمر أفريقيا إلى وزيره وصهره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتانى ومنحه جميع السلطات التى تخول له حكما مستقلا بهذه الولاية، ثم حدث الانفصال الرسمى النهائى على يد أبى زكريا عبد الواحد الحفصى عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.

بدأت هذه الولاية كإمارة مستقلة فى عهد أبى زكريا يحى ثم تحولت إلى خلافة فى عهد ولده أبى عبد الله محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين واستمرت هذه الدولة مدة طويلة إلى أن سقطت فى أيدى العثمانيين نهائيا عام ٩٨١هـ/١٥٨٤م.

وكانت حدود الدولة الحفصية تشمل الأراضى التى تقابلها اليوم طرابلس والجمهورية التونسية وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذى يشمل ولايات عنان وقسنطينة وبجاية وتدلس (دلس حاليا) وجزء من الصحراء الجزائرية جنوبا.

وقد لعبت القبائل العربية بأفريقيا دورا واضحا فى صد غزوات مسيحى أوربا لتونس وأولى هذه الحملات المسيحية التى تصدت لها القبائل بالمقاومة حملة لويس التاسع التى كانت خارجة للإنتقام لهزيمة الفرنسيين

بالمنصورة عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ولكنها تحولت إلى تونس بتأثير وتوجيه شارل دى انجو ملك جزيرة صقلية وأخو لويس الذى طمع فى استغلالها لحسابه الخاص وتدعيم ملكه ومد نفوذه إلى تونس مستغلا شارة الصليب.

ورغم أن المصادر الأوربية والمعاصرة للحملة تعزو قيامها لأسباب متعددة ومتنوعة منها إيواء المستنصر الحفصى لبعض العصاة من جزيرة صقلية مما أساء إلى شارل مليكها وتطلع شارل إلى إضافة إقليم ذى موقع استراتيجى هام على الساحل الأفريقى لخدمة الحركة الصليبية، وأخيرا ميل المستنصر الحفصى الشديد للمسيحيين ومعاملته الحسنة لهم. والزعم باستعداده للتنصر والتحول من الإسلام باظهار قدر قليل من القوة كفيل بجعله يعلن اعتناقه للمسيحية.

والمصادر التونسية تعزو قيام هذه الحملة إلى تناول المستنصر بالله الحفصى لسيرة الملك لويس التاسع باستهزاء، مما أثار الملك لويس وأغضبه فحول طريقها عن مصر إلى تونس للانتقام لكرامته.

ولم تكد الحملة تصل إلى الشواطئ التونسية فى عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م وعلى رأسها لويس وأبناؤه الثلاثة وحلفائه من ملوك أوربا وأمرائها فى أشد أوقات صيف أفريقيا حرارة حتى تفشى المرض فى المعسكر الفرنسى فوقع الأمراء والفرسان والعساكر فريسة المرض وأصيب لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها وتولى أخوه قيادة الحملة المكونة من ستة آلاف فارس وثلاثين ألف من الرجال واستولى على تونس فى عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م فقام العرب بالاشتراك مع غيرهم من المسلمين بمقاومتهم مقاومة بأسلحة مرسلين رجالهم كفدائيين عن طريق البحيرة التى تطل

على المدينة لمناوشتهم خاطفين فرسانهم ليلا منزلين الرعب فى صفوفهم حتى تمكن السلطان المستنصر بالله من حشد قواته التى بلغت أربعين الفا من الرماة فقط لاشك أن أغلبهم من القبائل العربية بأفريقيا لشهرتهم فى استخدامه.

ورغم استمرار احتلال الفرنسيين لتونس مدة ثلاثة شهور ونصف وتفكير المستنصر بالله فى الانتقال إلى قسطنطينة إلا أنه يبدو أن دور العرب فى مقاومة جعل جرانفيل يذكر وينوه بذور شارل دى انجو فى المحافظة على القوات الفرنسية الباقية حتى الخريف وإنقاذ الحملة من كارثة محققة. وفى نفس الوقت رفع من الروح المعنوية لأهل تونس حتى أن أحد أدباء تونس شبه نهاية هذه الحملة بنهايتها فى مصر من حيث الهزيمة والفشل فقال:

يافرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

عادت الحملة الفرنسية مهزومة، بعد أن قدم المستنصر لها أموالا كثيرة.

وقد جدد المستنصر الحنايا التى كانت من أيام الرومان كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجه من زغوان ومدها فى تونس إلى السقايات المتعددة مثل جامع الزيتونة، وفى عهده انتعشت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتوفى المستنصر فى عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وتولى الحكم ابنه يحى الواثق إلا أن عمه أبو اسحق ابراهيم خرج عليه واغتصب منه الحكم

عام ٦٧٨هـ/١٢٨٨م ثم ثار أحمد بن مرزوق المسيلى فى عام ٦٨١هظ/١٢٨٢ وتمكن من الاستيلاء على تونس وساعده أعراب قابس من بنى هلال ثم خرج عليه ثائر أخر هو الأمير عمر أخو الواثق. وفى عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م تمكن من قتل أحمد بن مرزوق اسيلى وتولى هو شئون الحكم، وسرعان ماخرج عليه بالجزائر ابن عمه يحى بن ابراهيم واستقل ببجاية وقسنطينة.

وفى عام ٦٩٤هـ/١٢٠٤م توفى عمر وخلفه أبو عصيده محمد بن الواثق وحاول استعادة القسم الشرقى من الجزائر ولم يقدر. وتوفى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م.

وبعد موجة من الصراع تمكن أبو يحى زكريا بن اللحيانى من السيطرة على الموقف فى عام ٧١١هـ/١٣١١م ثم تخلى عن الحكم لولده أبى ضربه فعارضه أمير قسنطينة الحفصى أبو بكر عام ٧١٨هـ/١٣١٨م واستولى على تونس.

وظل بالحكم حتى عام ٧٤٧هـ/١٣٦٤م ثم تولى الحكم بعده ابنه أبى حفص الثانى فثار عليه أخوه أبو العباس فتدخل أبو ا لحسن سلطان بنى مرين وهاجم تونس فى عام ٧٤٨هـ/١٣٦٥م وبسط سلطان بن مرين على المغربين الأدنى والأوسط.

ثم دب الخلاف بين أبى الحسن المرينى وقبائل العرب واضطرته الظروف إلى الانسحاب من تونس التى حكمها الفضل بن أبى بكر الحفصى، ودبر له ابن تافراجين مؤامرة لقتله فولى الحكم بعده أخوه أبو اسحق ابراهيم عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م وجعل ابن تافراجين من خاصته،

وتوفى أبو اسحق فى عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. وتولى السلطان أبو العباس أحمد الحفصى حكم البلاد فى عام ٧٧٣/ ١٣٧٠ فقام بحركة أرقف الفوضى وقضى على الفساد الذى أشاعه الأعراب فى البلاد واستطاع أن يعيد الأمن. وبسط سلطانه على المهدية وسوسة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وانتشر الأمن فى ربوع البلاد، وقضى على الاسطول الجنوى الذى هاجم المهدية فانسحبوا منهزمين بعدما قضى على أسباب ضعف تونس واسترد لها مكانتها، مما أدى إلى نجاح الحفصى فى السيطرة على القبائل العربية بأفريقيا وإلزامهم بالزكاة والعشر.

ومن بداية القرن التاسع الهجرى حتى سقوط الدولة فى أواخر القرن العاشر اشتد الصراع بين أمراء البيت الحفصى وكثر تدخل العرب وثوراتهم بقيادة أولاد أبى الليل بينما ناصر أولاد مهلهل فى الغالب الدولة. وعلى سبيل المثال فبعد نجاح الأمير أبو عمرو عثمان (٨٣٩ـ٨٩٣هـ/١٤٣٥ـ١٤٨٨م) فى الاستيلاء على الحكم فى تونس قام أولاد أبى الليل بحماية منافسه على العرش الأمير أبى عبد الله محمد بن أحمد وأنزلوه بمخيماتهم ولكن وعد ووعيد أبو عمرو عثمان أرهب أولاد أبى الليل فأسلموه لاجئهم وأنصاره فقتلهم فى نفس العام.

ويبدو أنه لم يف بوعده لهم إذ هاجم أولاد أبى الليل مدن أفريقيا سالبين مراعيها قاطعين الطريق على أهلها وحاصروا مدينة تونس فأطلق أولاد مهلهل منافسهم عليهم واشتبكوا معا بالقرب من تونس وقتل فيها الكثير وانسحب أولاد أبى الليل منهزمين ليعودوا مرة أخرى لحصار تونس بمعاونة أبى الحسن والى بجاية ويلتقى الفريقان فى عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م وينتصر أبو عمرو عثمان وحلفاؤه من أولاد مهلهل ويقبض على زعماء

أولاد أبى الليل.

وهكذا فإن الصراع بين الأمراء الحفصيين على الحكم قد انعكس على قبائل عرب سليم وصراعها من أجل السيطرة على جميع عرب أفريقيا والاستحواذ على رضاء الدولة وهباتها. وليس معنى هذا أن أولاد مهلهل كانوا أنصارا وحلفاء للدولة بصفة مستمرة فقليلا ماثاروا على الدولة لسبب أو لآخر ففى عام ٨٦٧هـ/١٤٦٣م عندما خفض أبو عمرو عثمان مرتباتهم ثار أولاد مهلهل وفر زعماؤهم إلى الصحراء فاستبدلهم أبو عثمان وعين بدلا من الشيوخ الثائرين عليه رجالا منهم إما أخا للشيخ أو عما أو ابن عم وأخذ أولادهم رهنا لديه لضمان طاعتهم وأرسلهم للعاصمة حيث نزلوا بقصر خاص لتثقيفهم وتربيتهم على الولاء للدولة والإخلاص لها.

وفى خلال فترة حكم أبى عبد الله محمد الخامس وابنه الحسن من عام ٨٩٩هـ/١٤٩٤ إلى عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦ م ثارت جميع قبائل أفريقيا بقيادة عرب الشابيين وتمكنوا من الاستيلاء على القيروان منزلين هزيمة ساحقة بقوات الدولة التى تخلى عنها أنصارها من العرب.

وتمكن الشيخ عرفه من زعماء الشابيين من الاستغلال بحكم القيروان ولاه أخوه محمد بن أبى الطيب ثم الشيخ عبد الصمد بن محمد بن أبى الطيب ثم ابنه على ويعرف بأبى زغاية ثم ابنه أبو زيان.

واستمر الصراع بين عرب الشابيين بالقيروان وماحولها والدولة النظامية بتونس إلى أن قضى العثمانيون على استقلال الجميع.

*****

ظهرت الدولة العثمانية في شمال أفريقيا كقوة ضاربة، وعظم شأنها حيث صار لها أسطول ضخم يغلب أقوى الأساطيل الأوربية خاصة بعد إنضمام خير الدين بربروسه وعروج وهما من أمراء البحر الذين ساهموا أعظم مساهمة في رفع شأن القوة البحرية العثمانية.

استغاث الشمال الأفريقي بالعثمانيين لنجدتهم من العدوان الأوربي المستمر على سواحلها.

لقد بعث الأمير أحمد الحفصي يستنجد بالعثمانيين في عام ٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م ثم عاد يستنجد بالأسبان حين أحس بالخوف من تبعيته للعثمانيين، فعاد الأسبان إلى تونس وأعلنوا حمايتهم عليها، ولما أدرك الأمير أحمد خطأ ماأقدم عليه، انسحب من البلاد وسلم الحكم لأخيه محمد عام٩٨٠هظ/١٥٧٣م وفي عهده اشتد غضب الأسبان وتعسفهم وظلمهم للأهالي وعادت تونس تطلب العون من العثمانين، فقدمت إلى تونس قوة عثمانية في عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م يقودها سنان باشا الذي قام بإبعاد الأسبان من البلاد وبعث بالأمير الحفصي إلى الأستانة وانتهت بذلك الدولة الحفصية التي حكمت البلاد على مدى ثلاثة قرون ونصف.

عمل سنان باشا على جعل تونس تابعة للسلطان العثماني مباشرة، ونظم شؤنها الإدارية وصارت تونس ولاية تابعة للدولة العثمانية التي امتد سلطانها من مصر إلى الجزائر.

ونظم سنان باشا الديوان لإدارة شئون البلاد وخصص الرواتب، ونظم الجباية وجعل عليها مشرفي (الباي) فكان الباشا (الوالي) يقوم بحكم البلاد ومعه قوة من الأتراك العثمانيين يقودهم الأغا.

وبجانب هؤلاء رؤساء القرصان وبعض زعماء قبائل المخزن ويقومون بجباية الضرائب وقسم الجيش إلى أربعين فرقة كل فرقة مائة محارب يرأسهم الداى، وهؤلاء هم رجال الديوان الذين يعاونون الباشا.

وفى عام ٩٩٩هـ/١٥٩١م اجتمع الدايات وانتخبوا واحدا منهم جعلوه رئيسا للجند الأغا ثم أصبح هذا الأغا هو صاحب النفوذ الحقيقى فى البلاد.

ثم تولى الأمر عثمان داى شئون البلاد فى عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م واستبد بالأمر، حتى جعل الديوان مجرد أداة لتسجيل أوامره التى يصدرها ليوقعها حتى صار الباشا ممثلا للسلطان وليس له سلطة حقيقية.

وسن عثمان داى القوانين التى ساعدت على نشر الأمن والنظام فى البلاد، كما اعتمد عثمان داى على قبطان البحرية وعلى رئيس الفرقة الوطنية التى كلفها بجمع الضرائب ومراقبة أحوال القبائل، فازدهرت الحياة فى تونس وفى عهد عثمان داى استقبلت البلاد التونسية آلاف الأندلسيين الذى فضلوا مغادرة بلادهم الأندلسية وهجرتها إلى بلاد الإسلام، على بقائهم تحت ذل الأسبان الذين ارغموا من بقى منهم إلى الدخول فى دين النصارى قهرا واستبداداً.

وقد رحب عثمان داى بهؤلاء المهاجرين الأندلسيين وأقطع القادمين منهم الأراضى وقدم لفقرائهم الأموال لمساعدتهم فامتلأت البلاد التونسية بهم فى كل أنحائها فعمرت البلاد وانتشر العمران فظهرت المدن والقرى التى أقامها المهاجرون القادمون. كما أقاموا المزارع والمصانع حتى صارت نهضة عمت جميع الأرجاء.

وتوفي عثمان داى عام ١٠٢٩هـ/١٦١١م وتولى بعده يوسف داى الذى اتجه إلى تسوية الحدود مع الجزائر، واهتم بالتعمير، فأنشأ جامعا ومدرسة، ونظم الأسواق للتجارة، وتوفي يوسف داى فى عام ١٠٤٠هـ/١٦٣١م وتولى بعده مراد بك الذى حصل على حق توليه ابنه حموده من بعده، ونعمت تونس فى عهد مراد بك وابنه حموده من بعده بالرخاء والرفاهية، فقد وضع حدا لسلطة القبائل العربية، وقضى على العصاة الخارجين على القانون تماما. فانتشر الأمن فى البلاد، وبنى جامع وصومعة أضافها إلى جامع الزيتونة وفى عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م توفى حموده بن مراد بك وخلفه ابنه مراد الذى تمكن من سحق ثورة قامت بها الجند غير النظامية فى طرابلس وشرع فى بناء منشآت ، وتوفى مراد بك بين حمود فى عام ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م ثم قامت الصراعات بين ولديه وأخيه على السلطة الأمر الذى أدى إلى التدخل من جانب القوات الجزائرية وانتهى الأمربخروج السلطة من جانب اسرة مراد بك وذلك حين قام الأغا ابراهيم قائد الفرسان بالتخلص من نسل عائلة حموده والاستيلاء على الحكم فى عام ١١١٤هـ/١٧٠٢م .

وفى عام ١١١٦هـ/١٧٠٤م حصل على لقب باشا من السلطة العثمانية فصار هو المسيطر على البلاد . ثم اضطربت الأحوال فى البلاد وخرجت السيطرة من يد الأغا ابراهيم فاجتمع الأهالى ونادوا بالأغا حسين بن على زعيم الفرسان بايا، فقام ببسط نفوذه على البلاد فى عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م وعمل حسين بن على على بذل جهوده فى إقامة حكومة وراثية قوية فى عام ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م.

ولما استقرت الأحوال فى البلاد منحته الدولة العثمانية ولاية تونس

وجعلتها وراثية فى اسرته (١١١٧-١١٥٣هـ/١٧٠٥-١٧٤١م) وهكذا شهدت البلاد فترة انتقال عميقة فقد استقرت العائلات العربية والبربرية الكبيرة فى البلاد، وحافظت الدولة على استقلالها من التدخل الأجنبى.

لقد عرف الحسين بن على بالنشاط والذكاء الحاد وعرفت البلاد فى عهده الاستقرار والتقدم الحضارى. وفى عهده انتجت تونس كميات كبيرة من القمح والجلود والشمع والاسفنج والبلح ونشط التصدير فى عهده لتلك المنتجات.

كما أنشأ المدارس فى العاصمة، وفى القيروان وسوسة وصفاقس ونفطه.

ثم دب النزاع بين الباى حسين وولديه محمد وعلى من ناحية وابن أخيه على بن محمد من ناحية أخرى، وذلك أن الباى حسين نقض عهده الذى قطعه على نفسه لابن أخيه على بجعله وليا للعهد وكان ذلك قبل أن يرزق بولديه محمد وعلى ثم غير رأيه بعد ماأنجب ولديه محمد وعلى وخلع ابن أخيه من ولاية العهد، واكتفى بأن حصل له على لقب باشا من الباب العالى.

وهكذا قام النزاع بين على وعمه الباى حسين وعادت الاضطرابات الداخلية إلى البلاد من جديد.

فلجأ على إلى الحاكم العثمانى فى الجزائر الذى أمده بجيش لمحاربة عمه حسين باى تونس وفى عام ١١٤٧هـ/١٧٣٥م تمكن على من هزيمة عمه ودخول تونس وتولى حكم البلاد (١١٤٧-١١٩٦هـ/١٧٣٥-١٧٥٦)م

مع تبعيته لوالى الجزائر العثمانى.

وفى عام ١١٥٣هـ/١٧٤١م تقابل جيش الباى حسين مع جيش على فى جنوبى القيروان وهزم الباى حسين الذى قتل فى المعركة، وصارعلى واليا على تونس ثم قام بإنشاء المدارس فى أنحاء البلاد.

وفى عـام ١١٩٦/١٧٥٦م فـوجئ البـاى على بابنى عـمـه حـسين بالهجوم عليه بجيش كبير واقتتلوا فهزم على وسقط قتيلا فى المعركة.

واستولى محمد بن حسين الباى على عرش تونس ثم كلف أخيه على بتـدبير شئـون الدولة ومات عـام ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وبقى على فى الحكم ١١٧٢ـ١١٩٦هـ/١٧٥٩ـ١٧٨٢م) وأبدى نشـاطا فى الاهتـمـام بالتـجـارة والزراعة والصناعة وأنشأ محكمة شرعية فى تونس والمدرسة الجديدة وأنشأ تكية للفقراء من الرجال والنساء تقدم الطعام للمعوزين، وكان يجالس العمى ويقدم لهم الطعام بنفسه.

وفى عام ١١٩٦هـ/١٧٨٢م توفى على بن حسين الباى وخلفه حموده ابنه فى حكم البـــلاد (١١٩٦ـ١٢١٥هـ/١٧٨٢ـ١٨١٤م) وفـى عـــام ١٢٠٤/١٧٠٩م أعلن حموده بن على الحرب على البندقية، واستعد لقتالها لتسبب بحـارة جنوبيـة فى الإضرار ببـعض تجـار من تونس، فتـراجـعت البندقية وقدمت التعويض المناسب للتجار التونسيين ترضية لباى تونس، كمـا استغـاث حـاكم طرابلس على القرمانلى من اعتداء على برغل على سلطاته، فانتصر لعلى القرامانلى وأعاده إلى ولايته فى طرابلس.

كما قاوم الاعتداء الذى قام به الوالى العثمانى بالجزائر على تونس

وهزمه، وصارت تونس فى وضع دولى ممتاز فى عهد حموده بن على باى تونس.

لقد أدخل التجنيد فى الجيش وأشرك التونسيين فيه وشاركوا فى الحكم مع العثمانيين وجعل من نفسه نموذجا للوطنية التونسية بأن جعل هدفه الاعتماد على المنتجات التونسية فى كل شئ من ملبس ومأكل ويعلن ذلك على الملأ.

وخلفه محمود بك بن محمد ١١٩٦-١٢٤٠هـ/١٨١٤-١٨٢٤م) الذى أرغمته الدول الأوربية على الغاء تجارة الرقيق رغم الاضرار الاقتصادية التى ترتبت على هذا الاجراء ولكنه قاوم الضغط الأوربى.

وفى عهد خلفه حسين بك (١٢٤٠-١٢٥١هـ/١٨٢٤-١٨٣٥م) بدأ التنافس بين بريطانيا وفرنسا للحصول على امتيازات فى تونس، وتمكنت انجلترا من الحصول على حق صيد المرجان فى ساحل طبرقة وفى كل سواحل تونس.

وفى الحرب العثمانية ضد اليونان، وقفت تونس بجانب العثمانين فبعثت الاسطول التونسى فى موقعة نافارين البحرية ولكنه لم يقف مع الجزائر فى حربها ضد الفرنسيين، مما سيكون له أوخم العواقب بالنسبة لكل من تونس والجزائر. إذ أن الجزائر لم تستطع المقاومة ضد فرنسا حين قام الأمير عبد القادر الجزائرى بعد صراع عنيف ضد الفرنسيين بتسليم نفسه فى عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م مقابل السماح له بالسفر إلى الاسكندرية .وبعدها خضعت الجزائر للحكم الفرنسى.

ولم يكتفى حسين بك باى تونس بموقف الحياد بل إنه من خوفه من قوة فرنسا سارع يؤيد فرنسا ضد الجزائر [1] وأبدى استعداده لتموين جنود الحملة بالمواد الغذائية اللازمة له، وأرسل مبعوثه للقنصل الفرنسى بذلك وهنا انتهز القنصل الفرنسى الفرصة وعرض معاونة فرنسا لباى تونس حسين بك فى حكم البلاد، وقبل الباى العرض الفرنسى.

ثم تطورت الأمور بعد ذلك فقد أخذت فرنسا تعمل على إعلان الحماية الفرنسية على تونس فى عهد الباى محمد وطلبت منه إثبات إخلاصه لفرنسا بتوقيع معاهدة تضمن استقلال تونس وتضمن سلامته الشخصية، أو أن تقوم فرنسا بنفسها للدفاع عن مصالحها بالقوة.

وفى عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م بعثت فرنسا بحملة فرنسية إلى تونس وبدأت الاستعدادت على الحدود التونسية الجزائرية بحجة منع الباى من إتخاذ سياسة عدائية صريحة ضد فرنسا ثم عملت أجهزة الاعلام الفرنسية على تهيئة الجو فى فرنسا لقبول وضع الحماية الفرنسية على تونس.

ثم بدأت التقارير الفرنسية الكاذبة عن إدعاء اعتداءات رجال القبائل التونسية، وانتهى الأمر بدخول القوات الفرنسية إلى تونس وأرغم الباى على توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على تونس فيعام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م.

بدت فى تونس حركة المقاومة ضد الحكم الفرنسى فقاوم الفرنسيون الحركة بالاعتقالات والنفى خارج البلاد، فنفوا الشيخ محمد السنوسى،

---

(١) حدث مثل هذا الموقف المتخاذل الضعيف يوم حصار العثمانيين للقسطنطينية، بقصد الاستيلاء عليها فبلغ الخوف بالامبراطور البيزنطى قسطنطين أنه كان يقدم الطعام للعمال العثمانيين الذين يبلون الحصون والقلاع تمهيدا لفتح القسطنطينية ثم ندم الامبراطور بعد ذلك.

واعتقلوا السيد حسونة ابن مصطفى فى قابس وغيرهم من الزعماء والأنصار فقام غيرهم لمواصلة المقاومة ضد الفرنسيين.

وواصل الفرنسيون النفى والاعتقال للوطنيين التونسيين لقد سارعت فرنسا لاحتلال تونس خوفا من السعار الذى أطلقه السلطان عبد الحميد الثانى «يامسلمى العالم اتحدوا» [1] حيث بلغت تنمية الشعور بالرابطة الاسلامية مداها. وظهر الاحساس بالخطر الذى يهدد الشعوب الاسلامية أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها فيدعوها إلى التجمع حول تركيا، بوصفها أقوى الشعوب الاسلامية وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك.

اثارت تلك الحركات المؤيدة لفكرة الجامعة الاسلامية مخاوف الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا خوفا على ماصار تحت أيديهم من ممتلكات وثروات فى العالم الإسلامى، فعمدت الدولتان إلى مقاومة الجامعة الإسلامية بكل الوسائل الممكنة وعمدت إلى محاولة تقطيع أوصال الدولة العثمانية والانتقاص من هيبتها أمام الشعوب الاسلامية، وكان احتلال فرنسا لتونس وتوسعهم فى قلب القارة الافريقية وتهديدهم لمراكش واحتلال الانجليز لمصر، وتوطيد دعائم نفوذهم على أطراف الجزيرة العربية وفى الهند والقضاء على الحركة المهدية فى السودان.وهكذا امتد الاستعمار الأوربى ليشمل العالم الأفريقى والآسيوى ولكن إلى حين.

وفى عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م اجتمع بعض المثقفين التونسيين ليعملوا

---

(١) دكتور محمود السيد، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ، ط اسكندرية ٩٩ صـ ١٤٩ .

على ربط تونس بحركة الجامعة الإسلامية. وفى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م تألف حزب تونس الفتاة برئاسة على باشن جمعة ونادى بفكرة وحدة البلاد الاسلامية والاعتزاز بالخلافة العثمانية لزعامة العالم الاسلامى فقامت السلطات الفرنسية بحركة الاعتقالات والنفى من جديد.

ثم قام بعض أعضاء حزب تونس الفتاة فى عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م وأعلنوا أن نظام الحماية قد أثبت فساده وضد السيادة التونسية، وطالبوا بالاستقلال التام والانضمام إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة.

وفى عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م أعلن باى تونس تأييده للزعماء التونسيين، فقامت فرنسا بخلع الباى محمد المنصف ونفيه عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م ثم عادت السلطات الفرنسية إلى استخدام العنف والقتل والتشريد ضد الوطنيين التونسيين فرأى التونسيون إلى اللجوء إلى الشرق وجعلوا هدفهم الجامعة العربية، فانسحب الزعيم الحبيب بورقيبة سرا من تونس بعد ماخلفه فيها الزعيم صالح بن يوسف الذى عمل على عقد مؤتمر فى عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م يجمع ممثلى الحزب ونقابات العمال ورجال جامعة الزيتونة واتحاد الموظفين والتجار وجمعية الفلاحين وجمعية الأطباء والصيادلة والمحامين والمعلمين وقرروا الاتفاق على ميثاق وطنى يعلن بطلان الحماية الفرنسية ويطالب بالاستقلال التام والانضمام لجامعة الدول العربية.

وفى القاهرة اجتمع الحبيب بورقيبة بالوطنيين التونسيين الذى حضروا من كل ناحية، وأنشأوا مكتب للدعاية للقضية التونسية وشرح قضيتها للرأى العام.

وتنبهت الجامعة العربية لقضية تونس وضمتها إلى قضية العرب الكبرى، وعرض الموضوع على هيئة الأمم المتحدة ثم التقت وفود تونس ومراكش والجزائر وتوحدت أهدافهم جميعا ضد الاستعمار وعملوا على المطالبة بتوحيد الصف العربى جميعه. ثم أفرجت فرنسا عن البطل عبد الكريم الخطابى فلجأ إلى مصر فاشتعل الموقف لصالح الوطنية العربية.

وفى عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م سمحت فرنسا بعودة الزعيم بورقيبة إلى تونس وعقدت معه اتفاقا اعترفت فيه باستقلال تونس وحكوماتها الوطنية مع بقاء السياسة الخارجية والدفاع فى يد فرنسا واحتفاظ فرنسا بميناء بنزرت قاعدة بحرية لها.

وفى عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م أعلنت الجمهورية وسمح للباى بالحياة فى تونس كفرد عادى ونصب الحبيب بورقيبة نفسه رئيسا للجمهورية.

ثم دب النزاع بين فرنسا وتونس وانتهى الموقف باتفاق ينهى احتلال الفرنسيين لميناء بنزرت وغادرتها القوت الفرنسية فعلا ، ثم واصل التونسيون بزعامة الحبيب بورقيبة العمل على إلغاء الاتفاقيات التى تمنح الفرنسيين امتيازات لهم فى تونس.

وفى عام ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م حصلت تونس على سيادتها فى التصرف فى سياستها الخارجية والدفاع وصارت الجمهورية التونسية دولة مستقلة ذات سيادة.

الباب الثالث

المغرب الأوسط (الجزائر)

الفصل الأول

الجزائر منذ الفتح العربى حتى دولة بنى عبد الواد

* الوصف الجغرافى
* الفتح العربى وعهد الولاة
* الأباضيون
* بنو يفرن فى تلمسان
* الدولةالأغالبية
* الدولة الفاطمية
* الدولة الزيرية (صنهاجة)
* بنو حماد
* الدولة الموحدية والحفصيون وبنو عبد الواد

المغرب الأوسط هو المنطقة الواقعة بين المغرب الأدنى (تونس) شرقا والمغرب الأقصى (مراكش) غربا ويحدها شمالا البحر المتوسط وجنوبا الصحراء.

ظلت تلك المنطقة تعرف ببلاد المغرب الأوسط قديما منذ الفتح العربى حتى العهد العثمانى حيث صارت تعرف باسم الجزائر.

فقد جاء العثمانيون فى بداية القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى، ونزلوا فى مدينة الجزائر وهى بلدة ذات روعة وجمال وموقع استراتيجى ممتاز وهذه المدينة أسسها بلكين بن زيرى الصنهاجى ثم امتد سلطان العثمانيين على سائر بلاد المغرب الأوسط وأخذت مدينة الجزائر تتسع وتتضخم وتقام فيها المبانى الفخمة والقصور والمؤسسات وصارت عاصمة للبلاد ثم أطلق اسم الجزائر على سائر بلاد المغرب الأوسط، وصارت تعرف باسم الجزائر منذ ذلك الحين وتشتمل الجزائر على ثلاثة أقاليم:

* التل: وهو سهول ثرية غنية بالحدائق والأشجار العالية فى عنابة ومتيجة ووهران.

* النجود: وهى مناطق شاسعة تمتد فيها المراعى الجبلة زراعة الحبوب، وتمتلئ فى الربيع بأنواع من النباتات والزهور ذات الألوان الزاهية.

*الصحراء: وهى أرض قاحلة جرداء مرتفعة الحرارة وبها ثروات معدنية هائلة من الرصاص والحديد والفوسفات والمنجنيز. أما الساحل الجزائرى فأغلبه صخرى ويبلغ طوله فيما بين تونس والمغرب نحو

١٢٠٠ كم شبه مستقيم قليل الخلجان أو الجزر، وقد شيدت عليه من الغرب إلى الشرق وراء جدران سميكة وسدود.

* أهم المدن: عنابة، سكيكدة، بجاية، الجزائر، وهران، جيجل، شرشال، تلمسان.

* الثروة الطبيعية: وتعد الجزائر من أولى الدول الزراعية فى النواحى الاقتصادية حيث يزرع بها الكروم والتين والنخيل والزيتون والبرتقال والبقول وأنواع من الفاكهة التى لاحصر لها.

ويعد نبات الحلفا من أهم صادراتها حيث تصدر منه مليونى قنطار. كما يوجد أشجار الصنوبر والبلوط الأخضر والزان والصفصاف، أما الفلين فتنتج منه الجزائر من غاباتها مايعادل ربع انتاج العالم.

* الثروة الحيوانية: تكثر المراعى فى الجبال والسهول ويوجد الأغنام والماعز والبقر والإبل وتصدر الجزائر كميات هائلة من الغنم.

*****

الفتح العربى: تولى أبو المهاجر دينار حكم أفريقيا فى عام٥٥هـ/٦٧٥م فأقبل على القيروان وهناك على بعد أميال من القيروان أقام أبو المهاجر معسكراً، ثم قام على رأس جيش اتجه به إلى تلمسان دار زناتة وعاصمة ملكهم بعد مافتح مالقيه من مواقع وحصون فى المغرب الأوسط فكان أبو المهاجر أول من وطئت قدماه أرض المغرب الأوسط (الجزائر)، وكان أبوالمهاجر سياسيا حاذقا بنى خطته فى التوس العسكرى

فى بلاد المغرب الأوسط وربطها بالنشاط الدينى واستعمال سياسة اللين مع الأهالى وإيضاح مبادئ الاسلام والعدل والمساواة بين جميع البشر فترك سياسة العنف مع البربر وعمل على استمالتهم حتى تحقق مسعاه واستمال بعض زعمائهم.

وفى عام ٦٢هـ/٨٦١م تولى عقبة بن نافع مكان أبى المهاجر خرج عقبة ومعه من المسلمين مغراوة وبنو عبد الواد الزناتيون وحاصر عقبة مدينة باغاية وفتحها وغنم منها الكثير وخاصة من الخيول حيث كانت باغاية وجبل أوراس موطن زناته التى كان إهتمامها كبيرا بتربية الخيول، حتى أن تلمسان كانت سوقا لبيع الخيول.

ثم رحل عقبةإلى تاهرت، وحارب من بها من الروم الذين استعانوا بقبائل البربر المحيطين بالمدينة إلا أن عقبة تمكن من التغلب عليهم وهزمهم.

ثم واصل عقبة سيره حتى وصل إلى ساحل المحيط ثم رجع عائداً إلى أفريقيا، وعند طنجة وجبل أوراس أمر أصحابه فافترقوا عنه إلى مضاربهم، فقد كانوا من زناته المغرب الأوسط. ثم واصل عقبة سيره إليتهوده ،فلقيه كسيله فى قلة من رجاله فانتهزالفرصة وهاجم عقبة وتمكن منه وسقط عقبة شهيدا.

واسرع كسيله بمواصلة الهجوم على المسلمين عبر المغرب الأوسط متجها إلى القيروان وظل معسكرا بها خمس سنين.

ثم ظهر زهير بن قيس الذى حارب كسيله وتمكن من قتله وانسحب

عائدا إلى طرابلس. وهنا ظهرت الكاهنة زعيمة قبيلة جراوة الزناتية من جبل أوراس وحاربت المسلمين واستردت معظم أفريقيا.

وفى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥ـ٨٦هـ/٦٨٥ـ٧٠٥م عين حسان بن النعمان واليا على أفريقيا[1] فى عام ٧١هـ/٦٩٠م وعلمت الكاهنة باستعداد المسلمين لمهاجمتها وعمدت إلى حشد القبائل من جراوة وبنو يفرن وبنو مانوا وبنو يلومى من زناته وسارت من جبال أوراس إلى باغاية مدخل الجبل لتمنع المسلمين من الدخول إلى الجبل والاحتماء فيه ولما وصلت طلائع حسان إليه تبلغه بخطة الكاهنة غير خططه واتجه إلى وادى مسكيانه، فأسرعت الكاهنة للقاء حسان وقامت معركة على نهر نينى فانهزم حسان فى المعركة واستمرت قبيلة جراوة فى حربها ضد المسلمين .

ولما وردت الامدادات إلى حسان عاد لمهاجمة الكاهنة وتمكن من هزيمتها ثم قتلت عند بئر الكاهنة وهكذا استطاع حسان بن النعمان فتح شمالى أفريقيا بعد ماقضى على قبيلة جراوة الزناتية فى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر).

وتحولت بعد موت الكاهنة جميع قبائل جراوة ومغراوة الزناتية إلى الإسلام كما أسلم بنو عبد الواد الزناتية من قبل.

كان حسان سياسيا قديرا نظم البلاد ودون الدواوين وملك قلوب البربر فأقبلوا على الاسلام وصارو جندا له وحسن اسلامهم.

وفى عام ٨٦هـ/٧٠٥م تولى موسى بن نصير ولاية أفريقيا وفى عهد موسى بن نصير استقرت أحوال البربر واطمأنوا إلى قيادته فقد بعث فيهم

من يعلمهم القرآن ويعرفهم بالدين.

ثم عزل موسى فى عام ٩٦هـ/٧١٥م وتولى مكانه محمد بن يزيد، ثم خلفه اسماعيل بن عبيد الله بدأبى المهاجر عام ١٠٠هـ/٧١٩م فكان حسن السيرة اسلم على يديه الكثيرون.

وفى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ١٠١ـ١٠٥هـ/ ٧٢٠ـ٧٢٤م عزل عمال عمر بن عبد العزيز وتولى على أفريقيا يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج الذى بدأ فى ظلم البربر وأسرف فى ذلك فثاروا عليه وقتلوه، وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ١٠٥ـ١٢٥هـ/٧٢٤ـ٧٤٣م ولى عبيد الله بن الحبحاب على أفريقيا ١١٦هـ/٧٣٤م الذى عين ابنه اسماعيل على اقليم السوس الأقصى وماوراءه وعين عمر بن عبد الله المرادى على طنجه والمغرب الأقصى فبالغوا فى الاساءة إلى البربر حتى أن من دخل الاسلام من البربر ورفعت عنه ضريبة الأرض اعادوها عليه طمعا فى تحصيل الأموال، ولم تكن هذه سياسة من ساروا قبلهم، فاشتعل الموقف وثار البربر على حكامهم من المسلمين وخلع المغربين الأوسط والأقصى الطاعة عن الخلافة الأموية، خاصة وأن الخلفاء أنفسهم لم يكونوا بعيدين عما يفعل ولاتهم بشعوب أفريقيا والمغرب من سوء المعاملة مالم يقر به الدين. فانتهزت جماعات الخوارج الظروف ورأوا أنها مواتية لهم، واشتعلت الفتنة بين البربر، خاصة من زناتة التى أخذت غالبيتها بمذهب الخوارج من الصفرية والأباضية.

واجتمع هؤلاء المعارضة بنو دمر وبنو واسين وبعض بطون مغراوة حتى صارت غالبية زناتة من مذهب الصفرية والأباضية الخوارج لأن

مبادئهم تفرض التسوية بين العرب والموالي المسلمين في كل الأحوال حتى في الخلافة فلا فرق بين عربي وغير عربي فالخلافة حق لجميع المسلمين.

عزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب وولى كلثوم بن عياض القشيري مكانه ويتوفى كلثوم ويولى هشام حنظلة بن صفوان مكانه في عام ١٢٤هـ/٧٤١م.

وفي عام ١٢٧هـ/٧٤٤م ثارعبد الرحمن بن حبيب ورأى حنظلة تجنب مواجهة مع عبد الرحمن وفي عام ١٢٩هـ/٧٤٦م وافق مروان بن محمد على ولاية عبد الرحمن تجنبا للفتن ولخبرته بأفريقيا فجده هو عقبة بن نافع.

وفي عام ١٣٢هـ/٧٤٩م تحولت الخلافة إلى العباسيين فأقروا عبد الرحمن بن حبيب على ولايته.

وفي عام ١٣٧هـ/٧٥٤م قتل عبد الرحمن بن حبيب وولى محمد بن الاشعث حكم أفريقيا، فخرج محمد بن الأشعث بنفسه إلى أفريقيا في عام ١٤٣هـ/٧٥٩م وبلغ أبا الخطاب مسيرة بن الاشعث إلي أفريقيا فجمع أصحابه واستعد للقائه، فخافه ابن الاشعث لكثرة جموعه ولم يكد يتقدم صوب أفريقيا حتى علم بخروج زناته عن طاعة أبى الخطاب فسار ابن الأشعث لحربه وهزمه وقتله في عام ١٤٤هـ/٧٦٠م ، وقد ندمت زناته على تخليها عن أبى الخطاب، فخرج أبو هريره الزناتي يقود ستة عشر ألفا من زناته وقاتل ابن الأشعث وابن الاشعث يقود جيشا من خمسين ألف مقاتل وانتصر على زناته.

بلغ عبد الرحمن بن رستم هزيمة ابن الخطاب ومقتله فى طرابلس فانسحب مسرعا إلى حيث أقام مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط غربى الجزائر واستطاع ابن رستم أن يجمع أباضية المغرب الأوسط وطوائف البربر حوله وبنى مدينة تاهرت فى عام ١٤٤/ ٧٦٠م وجعلها عاصمة للدولة الرستمية .

كانت أرض تاهرت غابة ملتفة الأشجار تملأها الوحوش ولكنها كانت أرضا صالحة للزراعة لما فيها من العيون الطبيعية واستمرار جريان مياه نهر مينة فى الناحية القبلية ونهر يجرى من عيون تاتش.

ثم شرع الأباضيون فى بناء المسجد الجامع بالمدينة والحقوا به مصلى للجنائز كما شرعوا فى تحصين المدينة فأقاموا حولها الأسوار وجعلوا لها أبوابا حتى صارت فى مأمن من الأعداء.

الدولة الرستمية الأباضية (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٦-٩٠٩م)

استقر رأى الأباضية، بعد مآزرتهم عبد الرحمن بن رستم فى حصار عمر بن حفص بطنية بالزاب عام ١٥١هـ/٧٦٨م وكانت هزيمتهم فى تهودة فى نفس العام مبررا فى قيامهم بتأسيس الدولة الأباضية بالمغرب ونصبوا عبد الرحمن بن رستم إماما للأباضية بعدما أعطوه عهد الله وميثاقه بالطاعة الحق وبادلهم بالمثل، وأظهروا الإمام علانية على الملأ.

ووصلت أخبار ابن رستم إلى ابن الأشعث والى أفريقيا وأنه بالمغرب فعمد إلى حربه وحاول حصاره ولكن بعد فوات الأوان فقد تمكن ابن رستم من تحصين نفسه بحيث يتعذر وصول ابن الاشعث إليه بسهولة فارتد عائداً

دون النيل من ابن رستم.

لقد نجح ابن رستم فى خطته بحيث أعلن عن قيام دولته بعدما حصن نفسه من احتمالات المواجهة العسكرية مع العباسيين وعمد إلى موادعتهم، وتمكن بعد ذلك من بسط سلطانه على البربر حتى تمكن الاسلام من قلوبهم وأذعنوا لسلطان الدولة أخذ ابن رستم فى إرساء نظم الحكم والإدارة.

لقد جعل ابن رستم الحكم ديمقراطيا بحيث تتم الإمامة بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على هدى نظام الشورى فى عهد الخلفاء الراشدين واشترط المبايعة العامة بعد ذلك، ويحصل الإمام للشراة وهم العلماء الأباضيون حقهم فى الاستنارة برأيهم فى الأمور الهامة للدولة مثل تعيين القضاة وجعل الشرطة قسمين قسم مسئول عن الأمن والنظام والقسم الآخر يشرف على الاسواق ولهم حق التحكيم فى المنازعات فى السوق وتقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وهكذا غلب الطابع الدينى المذهبى وساعد ذلك على استقرار الأحوال فى البلاد.

وفى عام ١٧١هـ/٧٨٧م توفى عبد الرحمن بن رستم وتولى مكانه ابنه عبد الوهاب بن رستم وعلى الرغم من أن اختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم تم من بين سبعة رشحوا للإمامة فقد ظهرت المعارضة ضد هذا الاختيار ولكن فشلت المعارضة واستقر الرأى على عبد الوهاب بن رستم إماما، ونتج عن المعارضة قيام طائفة النكارية التى أنكرت إمامة عبد الوهاب الوراثية.

وفى عام ٢١١هـ/٨٢٦م توفى عبد الوهاب وخلفه ابنه الإمام أفلح حتى عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م وهو الذى حارب النكارية وهزمها وشتت أتباعها. وفى عهده تطورت الدولة ونمت ثم تتابع الأئمة الأباضيون فى الحكم فولى الحكم ابو بكر بن أفلح ثم أبو اليقظان محمد ثم أبو حاتم يوسف بن محمد حتى كان عهد الإمام اليقظان بن أبى اليقظان وفى عهده انتهت الدولة الرستمية وذلك بعد ظهور الدعوة الفاطمية، فى قبيلة كتامة التى ساندت الشيعة الفاطمية فى القضاء على الدولة الرستمية فى عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م.

ومن مآثر الدولة الرستمية ازدهار التجارة مع الجنوب فى أفريقيا المدارية مع غانة وسجلماسة والمغرب الأقصى وفى مناطق كردفان وواواى كما قامت الدولة الرستمية بحفر الآبار وبحراسة القوافل وإقامة الفنادق والمحطات، وجمعت مكاسب عظيمة فانتشر العمران وازدهرت البلاد.

كما أقامت الزوايا والمساجد لنشر الاسلام، ولما انتهت الدولة الرستمية فى تاهرت انسحب الأباضيون من المغرب الأوسط (الجزائر) إلى الجنوب فى أرض ميزاب والواحات فى بسكرة وغرداية وورجلان.

وظلت تلمسان فى أيدى بنى يفرن وأقاموا بها إمارة لهم ثم نافستهم مغراوة السنية الزناتية عليها عام ١٧٠هـ/٧٦٨م. ثم زحفت الأدارسة عليها عام ١٧٥هـ/٧٩١م وأقام بنو يفرن مدينة أفكان عام ٣٣٨هـ/٩٤٩م وتقع بين تلمسان وتاهرت وصارت عاصمة لبنى يفرن. كما كانت تاهرت مركزا لتجمع بطون بنى يفرن وكانوا يمثلون قوة سياسية فيها لدرجة أنهم فرضوا رأيهم فى اختيار الأئمة الأباضية فقد كان لهم دور كبير فى مساندة الدولة الرستمية.

وقد كان لبنى يفرن دور فى مساعدة الصفرية الخوارج وبايعوا أبو قرة اليفرنى الذى قاوم الولاة العباسيين لم ينل منهم غرضا ثم اختفى أبو قرة بعد ذلك وظلت السيادة على المغرب الأوسط لبنى يفرن إلى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م.

دولة الأغالبة ١٨٤ـ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ـ٩٠٩م

حظيت الجزائر بدولة الأغالبة المستقلة فى شرقيها (نوميديا) حيث كانت تبعيتها للقيروان وكان يمتد غربى الإقليم التونسى إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شمال قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمة طبنة، ولقى هذا القسم فى عصر الأغالبة اهتمامهم وازدهرت فيه الحياة الاقتصادية والحضارية والعلمية.

كان قيام دولة الأغالبة فى أفريقيا (تونس) نتيجة للسياسة التى اتبعها الخليفة العباسى الرشيد فى بلاد المغرب للقضاء على ثورة البربر وقهر الأدارسة فى فاس بالمغرب الأقصى.

وفى عام ١٨٤هـ/٩٠٩م عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد بولاية أفريقيا إلى ابراهيم بن الأغلب ١٨٤ـ ١٩٦هـ/ ٨٠٠ـ٨١١م وجعلها له ولأبنائه من بعده.

اتخذ ابراهيم بن الأغلب القيروان عاصمة لدولته التونسية الجزائرية وأنشأ قوة بحرية هائلة تمكنت هذه الدولة فى عهود تالية بفضل هذا الاسطول الكبير من غزو جزيرة صقلية وغزو مالطا وسواحل إيطاليا.

وكان الأغالبة يحسنون إدارة الحكم فأعطوا اهتمامهم لشرقى الجزائر

فى طنجة فازدهرت الحياة وتطورت الحضارة الاسلامية فأسعدوا الناس بحسن تدبير الأمور فى السياسة وشؤن الحكم فى أفريقيا والمغرب الأوسط شرقى الجزائر.

الفاطميون (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م)

قامت الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب بفضل دعاة الاسماعيلية الذين كانوا يدعون إلى أن تكون الخلافة فى سلالة على بن أبى طالب عن طريق ابنه الحسين وينتهى الاسماعيلية إلى اسماعيل بن جعفر الصادق حفيد الحسين. عندما أقام أبو عبد الله الشيعى بالتمهيد للدعوة الشيعية فى المغرب العربى لاقى نجاحا كبيرا فبعث إلى عبيد الله حفيد اسماعيل بن جعفر الصادق يدعوه ليترلى الحكم فيها وتمكن عبيد الله من الخروج من مقر إقامته فى بلده سلمية فى شمال الشام قاصدا بلاد المغرب مارا بمصر. وعلى الرغم من محاولات العباسيين لمنعه من استكمال رحلته فإنه نجح فى الإفلات من قبضتهم وحضر إلى بلاد المغرب حيث وجد الداعية أبو عبد الله الشيعى قد مهد له الأمور لتولى الخلافة.

وقد تطورت الأحداث بالفاطميين فى المغرب إلى أن تمكنوا من دخول القيروان ورقادة واسقاط الدولة الأغالبية فى عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م والأباضية بتاهرت والأدارسة فى تلمسان أبناء سليمان بن عبد الله.

وبذلك صارت الجزائر من شرقها ووسطها وغربها تحت سلطان الشيعة الفاطمية.

اتخذ عبيد الله المهدى رقاده حاضرة لدولته عام ٢٩٧. ٩٠٩م وأمر

بذكر اسمه فى الخطبة على المنابر وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وهكذا قامت الخلافة الفاطمية بالمغرب.

ثم بعث الخليفة بعماله من كتامة إلى الولايات فى كل الأنحاء لإظهار طاعتهم للإمام، وأمر الخليفة الفاطمى بتوحيد بلاد المغرب تحت سلطانه، وخضعت له بلاد المغرب الأوسط، والأقصى وخضعت له زناته وذلك بعد استعانته بصنهاجة وزعيمها زيرى الصنهاجى.

لقد عمل القائم بأمر الله على استمالة زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة بعد ظهور قبيلة صنهاجة كقوة لها وزنها تحت زعامة زيرى بن مناد، وبدأت تغير على مضارب زناته بالمغرب الأوسط، وقامت الحروب بين القبيلتين ، بحكم العداء القبلى بين البتْر وهم أهل البداوة وعلى رأسهم قبيلة زناته، والبرانس وهم أهل الزراعة والاستقرار ومنهم قبيلة صنهاجة.

وفى عام ٣٢٤هـ/٩٣٦م عملت صنهاجة على بناء مدينة أشير فى جبال تترى شمال شرق تاهرت لتكون حاجزا أمام هجمات زناته بالمغرب الأوسط على أراضى الفاطميين ثم تحولت مدينة أشير إلى قاعدة هجوم للفاطميين على مضارب زناته بالمغرب الأوسط، كما صارت مضارب زناته بالمغرب الأوسط محاطة بأنصار الفاطميين من كل جانب خاصة بعد ماأخضع الفاطميون وهران وتاهرت وتلمسان وفاس، وأقاموا المسيلة فى وسط مضارب زناته بالزاب، وجميعها مراكز معادية للفاطمية منذ قيام دولتهم وهنا توقف الزناتيون عن مناوئتهم للفاطميين بالمغرب الأوسط (الجزائر).

الصنهاجيون:

تعاونت كلا من كتامة الجزائرية التى لها شرق الجزائر وصنهاجة التى لها غرب الجزائر، تعاونت جميعها فى تلمسان والأباضية فى تاهرت والأغالبة فى شرقى الجزائر وصنهاجة ساعدت الفاطميين فى التغلب على ثورة أبى يزيد مخلد الصفرى. وقد ولى الخليفة الفاطمى المنصور زيرى بن مناد الصنهاجى المنطقة الغربية فى الجزائر.

ثم تولى المعز الفاطمى الخلافة فى عام ٣٤١هـ/٩٥٢م أبقاه فى مكانه. وزيرى هو الذى بنى أشير فى شمال شرق تاهرت فى عام ٣٢٤هـ/٩٣٥م وجعلها عاصمة لدولته.

كما أسس ابنه بلكين مدينة الجزائر على البحر المتوسط ومدينة مليانه جنوب شرشال على نهر شلف من الناحية الشرقية.

وزيرى بن مناد هو الذى ساعد جوهر الصقلى عام ٣٤٧هـ/٩٥٨م فى بسط سلطان الفاطميين على بلاد المغرب الأقصى.

وفى عام ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م دب خلاف بين جعفر بن على بن حمدون الزناتى والى الزاب للفاطميين مع الفاطميين فانسحب من المسيلة العاصمة، وانضم إلى زناته لمناهضة الفاطميين بسبب اعتزام تولية المعز لزيرى الصنهاجى على كل أفريقيا وهو الذى توجد بينه وبين جعفر الزناتى بغض وعداوة وتقاتل جعفر وزيرى فى أرض صنهاجة وقتل زيرى فى المعركة، فأصر إبنه بلكين على قتال زناتة بزعامة جعفر وهزمهم. وهنا أعلن المعز تولية بلكين بن زيرى على أفريقيا التونسية والمغرب

الأوسط والأقصى فى عام ٣٦١هـ/٩٧٢م.

وفى عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م توفى الخليفة المعز وتولى العزيز بن المعز الخلافة وضم ولاية إقليم طرابلس إلى بلكين بن زيرى الصنهاجى، وفى عام ٣٦٨هـ/٩٧٩م تمكن بلكين من القضاء على ثورات فى تاهرت وباغاية وتلمسان وسجلماسة وفاس. ثم توفى عام ٣٧٣هـ/٩٨٣م وخلفه ابنه المنصور فى عام ٣٧٤هـ/٩٨٤.

ثم وقع خلاف بين زيرى بن عطية الزناتى وبين المنصور بن بلكين بن زيرى أدى إلى وقوع معارك بينهما هزمت فيها زناته إلا أن المنصور رأى أن يوقف تلك الحروب مع زناته مما أزعج الخليفة العزيز الفاطمى فى القاهرة لخوفه مما يترتب على ذلك من انحسار سلطان الفاطميين ووقوع المغرب الأقصى فى أيدى الخليفة الأموى فى الغرب الأندلسى فأوعز إلى كتامة للوقوف فى صف الفاطميين ضد المنصور بن بلكين. إلا أن المنصور تمكن من التغلب عليهم وهزمهم .

ثم عمد المنصور إلى استمالة زناتة إلى صفه.

وفى عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م انضم إلى بلكين سعيد بن خزرون زعيم زناتة وولاه طنجة فى اقليم الزاب ثم تولى فلفلا مكان أبيه سعيد بن خزرون. وفى عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م توفى المنصور بعد أن استتبت الأمور وهدأت فى الجزائر وخلفه ابنه باديس وهو فى الثالثة عشر من عمره، فقام أعمامه فى إدارة شؤن الدولة فى أفريقيا والجزائر.

وفى عام ٣٨٩هـ/٩٩٨م هاجم زيرى بن عطية تاهرت ويسرع حماد

وباديس لانقاذ تاهرت ويتغلب زيرى عليهم. وفى عام ٣٩٢هـ/١٠٠١م هاجمت زناته مدينة أشير فهزمها حماد عم باديس بن منصور.

بنوحماد:

بعد أن تمكن حماد بن بلكين من هزيمة الزناتية عام ٣٩٢هـ/١٠٠١م عمد إلى الاستقلال بأشير التى تولى حكمها منذ عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م فى عهد باديس، وهكذا بدأ فى بناء قلعه يجعلها عاصمة لدولته، وفى عام ١٠٠٧/٣٩٨م بنى قلعة حماد على الحدود الشمالية لسهول الحضنة وتبعد قليلا عن المسيلة ثم أقام فيها المبانى من فنادق ومساجد.

وفى عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م أعلن استقلاله عن باديس أبن اخيه ودعا للعباسيين أهل السنة. فسار إليه باديس ولكنه توفى فى معسكره عام ٤٠٦هظ/١٠١٥م فخلفه ابنه المعز فعاد حماد إلى الثورة ، ودخل المسيلة وأشير وبغاية فسارإليه المعز وهزمه عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م ففر إلى القلعة ثم طلب الصلح وهنا قام المعز بإعادة تنظيم الدولة، وولى عمه حماد على أشير والمسيلة طبنه والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وبذلك صارت دولة صنهاجة دولتين دولة ابن بلكين فى القيروان، ودولة بنو حماد بن بلكين فى القلعة بالجزائر.

وفى عام ٤٣٨هـ/١٠٤٦ خرج المعز بن باديس عن طاعة الفاطميين وقطع خطبتهم وأعلن الخطبة للعباسيين وعاد إلى المذهب المالكى الذى يميل إليه غالبية أهل المغرب.

وثار الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بمصر وأصدر قرارا بهجرة عرب

بنى هلال وسليم من مصر عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ولم يستطع المعز بن باديس مقاومتهم فانسحب إلى المهدية ومات فى عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م وخلفه ابنه تميم.

كذلك لم تتمكن زناته تلمسان من مقاومة العرب الهلالية فانهزمت أمامهم. أما القلعة فقد تحالف حاكمها بلكين بن محمد بن حماد مع الهلالية وزحفوا جميعهم إلى المغرب الأقصى.

ودخل معهم بلكين إلى فاس، وعند عودة بلكين من فاس إلى القلعة فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس وقتله ثأرا لمقتل أخته بيد بلكين فى عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢ وحكم الناصر بن علناس القلعة مدة سبعة وعشرين عاما. امتد خلالها حكمه من المغرب الأقصى إلى القيروان، بعد لجوء ابن باديس وابنه تميم للمهدية.

ثم قام النزاع بين الناصر وتميم، ثم عاد بينهما الوفاق ثانية وفى عام ٤٦١هـ/١٠٦٨م بنى الناصر بجاية وشيد فيها المساجد والقصور وجعلها عاصمة لدولته.

ثم تمكن عرب بنى هلال من القضاء على ملك بنى زيرى بأفريقيا وهددوا الدولة الحمادية وكان قد وليها يحى الحمادى فى عام ٥١٨هـ/١١٢٤م ثم تطلعوا إلى المغرب الأوسط ولكن قيام دولة المرابطين وحاميتها القوية المستقرة بتلمسان جنوب المغرب الأوسط أجل مصير تلك البلاد.. ولكن إلى حين- من هجمات القبائل الهلالية.

دولة الموحدين

بعد أن تم لعبد المؤمن الموحدى ٥٢٤ـ٥٥٨هـ/ ١١٣٠ـ١١٦٣م القضاء على دولة المرابطين سعى لضم بلاد المغرب إلى دولته خصوصا وأن الظروف السياسية السائدة فيها كانت تشجعه على ذلك، فقد أدى الصراع الناشئ بين القبائل العربية التى هاجرت إلى أفريقيا والدولة الزيرية بشقيها فى القيروان والقلعة الى انحلال الدولة وإشرافها على الإندثار حتى غدت السلطة الزيرية بأفريقيا اسمية. فتمكن النورمانديون من الاستيلاء على بعض ثغور أفريقيا مثل صفاقس وسوسة وغيرها ثم المهدية.

وفى عام ٥٤١هـ/١١٤٦م تحركت جيوش الموحدين بقيادة عبد المؤمن الى المغرب الأوسط فوفد عليه عربها من الأثبج وجشم مبايعين فعقد لأخليل بن كسلان من عرب الأثبج ولحباس بن مشيغر على جسم ثم استولى على بجاية وطرقت جيوش الموحدين أبواب أفريقيا بعنف.

خشى عرب أفريقيا على استقلالهم الذاتى فتحالفوا مع صنهاجة أفريقيا جيرانهم واستغلوا الخلاف الذى وقع بين قائدى الموحدين بصلاش بن المعز وعبد الله وانودين صهر عبد المؤمن وانسحاب بصلاش وتركه عبد الله فى قلة من الجند فهاجموه وقتلوه وحاصروا مدينة القيروان وقام موسى بن يحى الرياحى المرداسى بمهاجمة مدينة باجة والاستيلاء عليها.

بلغ ذلك عبد المؤمن فغضب غضبا شديداً ووجه للعرب كافة الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن حتى لم يبق معه إلا الخاصة والسوقة. وبلغ جيش الموحدين أكثر من ثلاثين ألف فارس، اجتمعت القبائل العربية بأفريقيا من الأثبج وزغبة ورياح وبنو قرة بقيادة ملكهم يحى بن عبد

العزيز بظاهر باجة وتناسوا مابينهم من ثأرات، وتحالفوا لمحاربة عبد المؤمن وإخراجه من أفريقيا وجمعوا نساءهم وأولادهم وأموالهم وارتحلوا إليه ليكون لقاؤهم أشجع وثباتهم في الميدان أصدق.

والتقى الموحدون والعرب بناحية سطيف عام ٥٤٧/١١٥٢م وتمكن الموحدون من هزيمتهم بعد قتال استمر اربعة أيام ولوا بعدها منهزمين تاركين خلفهم أموالهم وأولادهم ونساءهم تتبعهم القرات الموحدية. مضحين بالأسلاب والغنائم طالبين ثأرهم لهزيمتهم السابقة يوما وليلة حتى حصن تبسه بجبل أوراس. فقسم عبد المؤمن جميع أموالهم على عسكره واحتفظ بالنساء والأولاد وعين لهم من يحميهم ويقوم بحوائجهم ثم أعادهم إلى قبائلهم ومنحهم الأموال الكثيرة فمالت قلوبهم إلى عبد المؤمن وبذلك ضمن ولاءهم.

الدولة الحفصية

ضمت حدود الدولة الحفصية الأراضى التى تشملها اليوم طرابلس الغرب وتونس وجزء كبير من الجزائر الذى يضم عنابة وقسنطية وبجاية وتدلس غربا إلى مابعد ورقلة فى الصحراء الجزائرية جنوبا.

استقل أبو زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص واستقام له حكم البلاد،حيث يعمل على نشر العدل والأمن فيها حتى وفاته عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م وخلفه ابنه محمد الذى تلقب بالمستنصر بالله وبأمير المؤمنين وسار فى حكم الجزائر شرقها وغربها على نهج أبيه فعم الأمن والاستقرار أنحاء البلاد، وتوفى عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م ثم دبت الخلافات بين أفراد الاسرة الحفصية فضعفت الدولة الحفصية وتمردت عليها الدولة

المرينية، ونافستها فى حكم الجزائر وتقلص نفوذ الحفصيين.

وفى عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م قام الخليفة الحفص بمحاولة استمالة الدولة المرينية إلا أن الدولة الحفصية بقيت على حالها من الضعف مما دفع السلطان أبو الحسن المرينى عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م إلى بسط سلطانه على تلمسان والجزائر وتظل العلاقة بين الدولة المرينية والدولة الحفصية بين وجزر حتى جاء عهد السلطان الحفصى أبى فارس عبد العزيز الذى تمكن من استعادة قوة الدولة الحفصية فى عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م.

وفى عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م تولى عمرو بن عثمان حكم البلاد الذى امتد إلى مايزيد من نصف قرن عم البلاد خلالها الاستقرار ثم امتد سلطان الحفص إلى تلمسان فى أقصى غرب الجزائر حتى وفاته فى عام ٨٩٣هـ/١٤٨٧م ثم تدهورت الأحوال فى الدولة الحفصية بعد ذلك.

بنو عبد الواد

ينتمي بنو عبد الواد إلى قبائل زناته التى كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط، ولما فتح الموحدون هذه البلاد، كان بنى عبد الواد عون لهم على ذلك فنالوا ثقة الموحدين وحصلوا منهم على إقطاعات وفيرة بأحواز تلمسان واستقروا فيها، وامتدت حدود دولتهم من البحر المتوسط شمالا إلى صحراء الجزائر جنوبا وغربا من جبال سعيد ووادى مينا شرقا إلى وادى ملوية ومدينة وجدة غربا ومن بطون عبد الواد وشعوبها. بنو ياتكين وبنو أولوا وبنو ورحطف وبنو نصوحه وبنو تومرت وبنو القاسم.

وقد تولى الحكم فى عهد الموحدين من بنى عبد الواد الزناتيين فى

عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م جابر بن يوسف على تلمسان ولم يلبث أن توفى وفى عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م تولى الحكم يغمراسن الذى أعلن نفسه أميرا للمسلمين واستقل بالحكم فى البلاد ثم عاد وأعلن الولاء للحفصيين بعد ماأحس منهم الخطر.

وفى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م حاربه السعيد الموحدى فانتصر عليه يغمراسن ثم شرع فى تثبيت ملكه وتوفى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م.

ثم دخلت دولة بنى عبد الواد فى صراع مع الحفصيين وبنى مرين حتى جاء عهد موسى الثانى الذى لجأ إلى سلطان تونس يطلب العون لتحرير تلمسان من المرنيين الذين استولوا عليها عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م.

وفى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م خرج موسى الثانى على رأس جيش من تونس والجزائر إلى تلمسان التى تمكن من فتحها وطرد بنى مرين منها. وحكم موسى الثانى أحد أحفاد يغمراسن أول من أعلن استقلال دولة بنى عبد الواد عن دولة الموحدين.

الفصل الثانى

الجزائر من العهد العثمانى حتى الاستقلال

* العهد العثمانى
* الاستعمار الفرنسى للجزائر
* الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى
* استقلال الجزائر

حكم موسى الثاني ٧٥٣-٧٩١هـ/١٣٥٢-١٣٨٩م البلاد ويعتبر عصره من أزهى عصور الدولة حيث نعمت تلمسان في عهده بالرخاء والازدهار.

حالف بنو عبد الواد القبائل العربية بالمغرب الأوسط خصوصا عرب زغبة وذوى عبيد الله من عرب المعقل المجاورين لبني عامر من زغبة المستنصرين بجوارتلمسان وبعد وفاة موسى الثاني من عرب المعقل المجاورين لبني عامر من زغبة المستنصرين بجوارتلمسان.

وبعد وفاة موسى الثاني في عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م دب الخلاف بين أبنائه وتنازعوا الحكم حتى تمكن الحفصيون من التدخل في شئون دولتهم فأسرع إليها الضعف وتدهورت دولة بني عبد الواد، كما تدهورت الدولة الحفصية في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس. وتعرضت أملاك الدولتين للاعتداءات الخارجية وسقط الساحل الغربي للجزائر في أيدي الأسبان نتيجة لإهمال حكام البلاد العربية بالمغرب الأوسط (الجزائر) الدفاع عن الثغور والوقوف في وجه الأعداء الصليبيين.

ظهور العثمانيون:

أخذ الاستعمار الأسباني يأخذ دوره في نهاية القرن ٩ هـ الخامس عشر الميلادي في السطو والاعتداء على السواحل الجزائرية والتونسية والمغربية والعرب في غيبة عن المقاومة الشرعيةضد المهاجمين الأسبان لانشغالهم في حروبهم وانقسامهم، حتى ضاع نفوذ الدولة الحفصية في البلاد.

كما أن دولة عبد الواد انحسر سلطانهم عن المغرب الأوسط واستقروا في تلمسان وبعض حواشيها وصاروا في مواقف دفاعية بسبب حالات

التشرزم التى شغلتهم عن مواجهة الأعداء.

استقر الأسبان فى السواحل الجزائرية إلا أن المقاومة الوطنية فى البلاد ظلت تلاحقهم.

ثم ظهر فى خلال تلك الفترة من نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر الهجرى الخامس عشر الميلادى أخوان بربروسا من أشهر قراصنة البحار أنذاك لجأ إليهم المهاجرون الأندلسيون لمساعدتهم فى الخروج فى صف الأندلسيين وساعدهم على اللجوء إلى الجزائر فنزلوا فى الجزائر فى عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م.

كما بعث الأمير الحفصى فى عام ٩١٨هـ/١٥١٢م إلى بربروسا يستنجد به فأسرع عروج إلى مهاجمة شرشال فى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م وتمكن من دخول مدينة الجزائر وتمكن من دحر المعتدين المحتلين الأسبان وعمل على إدارة البلاد متعاونا مع أهلها وهنا ارتفع نجم الدين بربروسا الذى رأى مواصلة تنفيذ خطته فى التعاون مع المغاربة مع اعلان ولائه للسلطان سليم العثمانى فى عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م وسرعان مامنحه العثمانيون لقب «بجلر بك» أمير الأمراء، وأمدوه بالفين من الانكشارية وأربعمائة من الأرناؤوط وعدد من المدافع وتمكن من اثبات وجوده فى أرض المغرب الأوسط.

ففى عام ٩٣٩هـ/١٥٢٢م هاجم قسنطينة وأنهى ثورات العرب فى أقاليم قبيلة رهدنة وشرشال وتنيس وتغلب عليهم جميعا. ثم وجه بربروسا جيشه لحصار حصن بيتون لمنع الأسبان من تهديدهم له واستطاع فتح الحصن فى عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م.

بعد ذلك اتجه بربرسا إلى عمل إصلاحات بميناء الجزائر لتمكنه من الرسو باسطوله فى أمان من الرياح الغربية أو الشرقية. وأصبح هذا الميناء الجزائرى مرقبا لمتابعة حركة السفن العابرة فيه من الناحية الغربية والشرقية، ثم أفسح مجالا للعثمانيين للإستفادة من هذا الميناء باعتباره من قادة الدولة العثمانية ذوى المكانة العالية.

وفى عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣ مد البجلر بك بربروسا نفوذه إلى تونس فدخل العاصمة وأعلن منها انتهاء العهد الحفصى فى البلاد، وصارت الجزائر وتونس تحت سلطان بربروسا ومن ثم فالدولة العثمانية وعند ذلك بعث السلطان العثمانى فى القسطنطية يستدعى بربروسا وهناك منحه لقب أمير الاسطول العثمانى وكلفه بإدارة الحرب ضد اعداء الدولة العثمانية وقام خير الدير بربروسا بدوره على أفضل مايكون وظل كذلك حتى وفاته فى عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م .

وعندما أحس الغرب الاوربى بخطر التطورات التى حدثت فى سواحل المغرب الاسلامى أعلن البابا لويس الثالث بضرورة اتحاد المسيحيين لمواجهة القوة الاسلامية الناهضة وفعلا انضمت القوات الأسبانية والإيطالية والبرتغالية واتجهوا إلى السواحل المغربية وهاجموا الجزائر وتونس ونجحوا فى النزول إلى تونس فى عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥ وتمكنوا من الاستعانة بحاكمها المعزول الأمير حسن وأعادوه إلى مكانه بعد تعهده بدفع جزية سنوية لهم.

ولم يستكن بجلر بك بربروسا لما حدث وأسرع فى نفس العام بالهجوم على جزر ميورقة على الساحل الأسبانى وعاد ومعه أعدادا كبيرة من

الأسرى ثم واصل غزواته حتى وصل إلى الساحل الإيطالى،حتى بلغ الخوف بالأهالى فى مدينة روما إلى حد ترك المدينة خوفا وهلعا.

كما قام بجلريك العثمانى باعداد السواحل الجزائرية للدفاع عن نفسها ضد الأساطيل المهاجمة، حيث أقاموا ترسانات قوية وأماكن للتربص ومراقبة الأعداء، فأقاموا الأبراج المحصنة.

وهكذا صارت الجزائر دولة اسلامية عثمانية وبعد وفاة خير الدين ، تولى الأمير حسن مكان ابيه وحصل على لقب بجلريك، وقد تغلب الأمير حسن باشا بن بربروسا على الأسطول الأسبانى الذى بعث به شارل الخامس ملك أسبانيا واستولى على ماكان بالاسطول من سلاح وعتاد وذلك فى عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م.

ثم عادوا الكرة فى الهجوم على الجزائر فى عام ٩٥٤.١٥٤٧ وفشلوا وفى عام ٩٦٦/١٥٥٨م وهاجموا الجزائر للمرة الثالثة وأداروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى المرسى الكبير ولكنهم هزموا وقتل قائدهم وانسحبوا إلى البحر خائبين.

وقد تمكن حسن باشا من بسط سلطان العثمانيين على الجزائر جميعه من الساحل إلى الداخل حتى تلمسان ولم تفلح محاولات الدولة العلوية فى المغرب الأقصى فى احتلال تلمسان الجزائرية فى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م وعام ١١١٤هـ/١٧٠٣م.

ثم منيت الجزائر منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى بعهد الدايات رؤساء الفرق الذى انتشرت فيه الرشوة والفساد.

ودخلت الجزائر في أزمة اقتصادية خانقة حتى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى، بسبب تضاؤل فرص القرصنة فى البحار وكانت القرصنة تدر دخلا عاليا للبلاد ومقبولة عرفيا عند الرأى العام والدولة عامة.

كما أن الحروب بين تلك الولايات المغربية والمتكررة أدت فى النهاية إلى عدم استقرار الأحوال فى كل من تونس والجزائر.

الجزائر فى عهد الدايات

وقد فقدت الجزائر خلال القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى تقدمها الداخلي وضعف شأن الاسطول الجزائرى. كما عملت الأوبئة والمجاعات التى اجتاحت البلاد فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى بالإضافة إلى الارتباك فى إدارة البلاد ضعف الحركة التجارية حتى أن الصناعات الوطنية النشيطة التى جعلت اعتمادها على المنتجات المحلية عانت هى أيضا من كساد الأسواق. وهكذا ضعفت الصناعة كما ضعفت التجارة.

كما توقف الدخل الكبير بسبب انتهاء عهد القراصنة بعد أن تمكنت الدول الأوربية من فرض سيطرتها على البحر الأسود. وهنا لجأت الدايات إلى الجزائريين وأعملوا معهم السلب والنهب وانتشر الفساد فى الحكم العثمانى، وكانت سلطة الداى الذى يعاونه الديوان والديوان العسكرى والمجلس البحرى ومجلس القضاء الأعلى - سلطة مطلقة استبدادية فى واقع الأمر.

كما كانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات قسنطية فى الشرق ويتطرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المدية وولاية غربية وعاصمتها مزونة. ثم صارت المعسكر وذلك فى عام ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم صارت وهران منذ عام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات وكان لكل وال سلطة واسعة فى ولايته وارتبط بالحاكم العثمانى المقيم بالجزائر بحماية الأموال لصالح خزينة الدولة وكذا تقديم الأفراد للخدمة فى الجيش العثمانى.

أما القبائل الجزائرية، فقد كلف بعضها بدفع ضريبة العشور، أما البعض الأخر من القبائل فقد أعفيت من دفعها فى مقابل تقديم الشباب للخدمة العسكرية والعاملين فى الخدمة المدنية للدولة العثمانية. كما أقطعت الدولة الأراضى لشيوخ تلك القبائل.

وفى عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م قامت ثورة الجزائر بسبب المشاكل الاقتصادية فى البلاد وكان من نتائجها قيام الداى على خرجه الذى خلع النفود العثمانى وجعل اعتماده على الجند الزواوى الجزائرى الوطنى بعد ذلك فى عام ١٢٣٢هـ/١٨١٦م مما أسبغ على الحكم العثمانى صبغة وطنية فى الجزائر فأسعد بذلك الشعب الجزائرى وتوفى على خوجه عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م وتولى بعده وزيره الداى حسين . وفى عهد الداى حسين فى عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م صدر قرار مؤتمر لاشايل بإلغاء القرصنة وأبلغوا الجزائر بإلغائها إلا أن الداى حسين أصر على الرفض.

وفى عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م كتب الداى حسين يطالب فرنسا بسداد قيمة مبلغ مليونان ونصف من الفرنكات مستحقة للداى قيمة قمح اشترته

فرنسا من الجزائر، وماطلت فرنسا الرد وتوترت العلاقات بين الداى حسين وفرنسا.

وفى عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م قامت حملة حربية فرنسية تضم ستمائة سفينة بها ثلاثة آلاف مدفع وأربعة وثلاثين ألف مقاتل غير سفن محملة بالمؤن ونزلت فى سيدى فروج غربى الجزائر وعلى الرغم من المقاومة الباسلة للجزائريين فإن الحملة الفرنسية تغلبت عليها ونزل الفرنسيون المدينة.

وقدم الفرنسيون شروطهم التى أرغم الداى على قبولها وتضمنت الشروط:

١ ـ تسليم جميع حصون المدينة.

٢ ـ ضمان حرية الداى وممتلكاته الشخصية.

٣ ـ حرية الداى فى البقاء أو الرحيل مع حقه فى الحماية الفرنسية.

٤ ـ حماية الجند الجزائرية من أية أعمال انتقامية ضدهم.

٥ ـ الحرية الدينية فى إقامة الشعائر لجميع الطوائف.

ثم حاول الفرنسيون التوغل إلى داخل البلاد إلا أن المقاومة الجزائرية وقفت حائلا دو ن ذلك.

وتزعم الأمير عبد القادر الجزائرى المعارضة الجزائرية للمقاومة ضد الغزو الفرنسى للجزائر، وتلقب بأمير المسلمين وواصل الجهاد ضد الفرنسيين حتى تمكن من الاستيلاء على تلمسان ، ومنع التعامل مع

الفرنسيين.

ودارت المفاوضات مع الفرنسيين وقبل الأمير عبد القادر أن يكتفى الفرنسيون باحتلال الساحل وتم الاتفاق على وقف القتال فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م.

وانتهت المفاوضات إلى اعتراف كل منهما بالآخر، فاعترفت فرنسا بسلطة الأمير على كل القبائل والمناطق الخاضعة له بشرط عدم قيامه بأى عمل يضر بالمصالح الفرنسية، واعترافه بالولاء لملك فرنسا ودفع جزية سنوية وعدم شراء أسلحة غير فرنسية. مقابل احتكار الأمير عبد القادر لتجارة الحبوب وعدم تعامل فرنسا مع أحد غيره.

كما أرسلت فرنسا السلاح للأمير عبد القادر وصار غربى الجزائر تحت سيطرة الأمير عبد القادر.

وفى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م عقدت فرنسا اتفاقا مع القبائل التى فى شرق الجزائر عرف بمعاهدة التبنة فى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م تم بموجبه إخضاع القبائل للفرنسيين مع الخدمة فى صفوف الفرنسيين نظير المرتبات والحماية الفرنسية.

حاول الفرنسيون فرض سيطرتهم على الجزائر وبدأوا فى احتلال المرسى الكبير ثم وهران ثم بونا.

ولما حاولوا التوغل إلى داخل البلاد لقوا مقاومة عنيفة اضطروا خلالها إلى إخلاء وهران وبونا والانسحاب منها.

على أن الاتفاق التى تم فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م والذى عرف باسم

(دى ميشيل) أعطى لفرنسا حق احتكار السلاح وتجارة الصادرات والواردات وبذلك تسيطر فرنسا على سوق الجزائر وتبتز أموالها وتبقى الجزائر تحت حماية فرنسا.

على أن الأمير عبد القادر أراد أن يستثمر الاتفاق فى تنظيم صفوف قواته وتقويتها. إلا أن هذه الهدنة عارضها بعض اتباع الأمير وتزعم هذه المعارضة أبو معزى المراكشى من أولاد سيدى الطيب من وازنة . فالتف حوله جماعة من المراكشين واتجه بهم إلى الجزائر فى عام١٢٥١هـ/١٨٣٥م.

وبدأ يقاتل القوات الفرنسية فى وهران الجنوبية ثم اتجه إلى زواده وانضم إليه المجاهدون المؤيدين له وظل يحارب الفرنسيين حتى عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م فاضطرت فرنسا إلى نقض الهدنة مع الأمير عبد القادر وعادت المعارك بينه وبين الأمير الفرنسيين واستطاع الجزائريون أن يحققوا النصر على الفرنسيين فى معركة سيدى ابراهيم وتمكين الأمير عبد القادر من استعادة نفوذه فحشدت فرنسا جيشا صخما يقوده القائد الفرنسى يوجو الذى قام بنسف حصن (الأوزو) فى عام١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولجأ الفرنسيون إلى استعمال أبشع أنواع الإفناء الجماعى، فأتلفوا وأحرقوا وضربوا فحدث تخلخل فى قيادة الأمير عبد القادر وتفرق بعض أتباعه فاضطر إلى الاحتماء بمراكش وسرعان ماانضم سلطان المغرب السلطان عبد الرحمن إلى صف الأمير عبد القادر وأعلن الحرب على فرنسا وجند الجيوش لمحاربتهم إلا أن الفرنسيين تغلبوا على الجيش المراكشى وهاجموا المدن المراكشية فاضطر المراكشيون إلى الانسحاب وتوقفوا عن الاستمرار فى مساعدة الجزائريين تحت ضغط التهديد الفرنسى لبلادهم.

لم يستطع أبو معزى الاستمرار فى المقاومة ضد الفرنسيين وتم اعتقاله. وواصلت فرنسا هجومها على الجزائريين فى حين انسحب الأمير عبد القادر بعد توقف الإمدادات التى كانت تصله من أنصاره المؤيدين له، واضطر الأمير عبد القادر إلى تسليم نفسه فى آخر عام١٢٦٤هـ/١٨٤٧م وسمح له بمغادرة الجزائر إلى حيث يشاء فسافر إلى الشام وتوفى بها.

وعلى الرغم من انسحاب الأمير عبد القادر من ميدان المقاومة إلا أن المقاومة الجزائرية بقيت على حالها وظلت تقاوم الفرنسيين، على الرغم من حملات الإبادة الجماعية التى شنتها فرنسا فى الأعوام من ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م إلى١٢٧٠هـ/١٨٥٣م لقد أباد الفرنسيون مئات القرى. وعلى الرغم من قسوة الفرنسيين فى حربهم ضد شعب الجزائر فقد واصل الجزائريون ثوراتهم ضدهم فى أعوام١٢٧٤هـ/١٨٥٧م و ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩م.

ثم قامت ثورة مارس الكبري عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م التى انضم إليها مائة وخمسون ألف مقاتل من رجال القبائل سقط فيها ستون ألف شهيد وقتل من الفرنسين عشرون ألف جندى.

ولما أفرجت ألمانيا عن الأسرى الفرنسيين الذى اعتقلتهم فى الحرب السبعينية سارعت فرنسا بإرسالهم إلى الجزائر لتنتقم من الجزائريين المدافعين عن بلادهم بالإعدام والمصادرة للأراضى وانزال الغرامات على الأهالى، فاستسلمت الجزائر وخضعت لفرنسا وعملت فرنسا على أن تحكم البلاد حكما مباشراً.

لقد كان هدف الاستعمار الفرنسى استغلال الجزائر فاتجه إلى الأرض

وإلى انتاج السكان، أما الثروة المنقولة فيمكن نقلها للفرنسيين لكن لابد من استغلال الجزائر استغلالا كاملا، فأذن تتم السيطرة على الأرض وعلى الانتاج الزراعي وبدلا من جعله انتاجا يخص الشعب الجزائرى فلا مانع من تصديره للسوق الفرنسية.

كما عمل الفرنسيون على خلق طبقة من العمال الأجراء وتكون طبقة اجتماعية جديدة، تنتج السلع اللازمة للسوق الفرنسية وترتبط المصالح بين الشعبين لمصلحة البقاء الفرنسى فى الجزائر.

وهكذا بدأ اغتصاب الفرنسيين للأراضى فصادروا ملكية الأتراك وملكية الأوقاف وبذلك استولى الفرنسيون على غالبية الأرض الجزائرية فقد كان أغلبها وقفا .

وفى نفس الوقت حرم الجهات الدينية والخيرية من مصادرها فخضعت للفرنسيين.

وفى عام١٢٦٠ هـ/١٨٤٤م صدر قانون لمصادرة أراضى العرش لمصلحة الدولة الفرنسية. ثم توالت القوانين التى تزيد من ملكية الدولة الفرنسية للأرض الجزائرية بكل الحجج الواهية ففى عام١٢٦٣هـ/١٨٤٦م صدر قرار باعتبار أرض المراعى أراض للدولة الفرنسية فأصبح كل من يعملوا فى الرعى أجراء عند الدولة كما عمد الفرنسيون إلى بذر بذور الفرقة والنزاع بين القبائل بأن طالبت كل قبيلة بتحديد ملكتها لأرضها. وفعلا قامت النزاعات بين القبائل فشكلت لجنة الصفقات التى ظلت تعمل على مدى ثلاثة عشر عاما تفصل فيها بين القبائل، وظهر من الناحية العملية تعذر اثبات ملكية الأراضى للقبائل وهنا تلجأ اللجنة حلا للنزاع بين

القبائل إلى أن تقوم ببيعها إلى الفرنسيين بثمن بخس.

وفى عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م اصدر الامبراطور نابليون الثالث قانون ملكية الأرض وجعل ملكية الأرض للقبائل وتحايل الفرنسيون فشكلوا لجنة مسح الأرض وكانت النتيجة أن وجد الجزائريون أنفسهم وقد خرجوا صفر اليدين، الأرض التى حصلوا عليها غير صالحة للاستغلال بأية صورة.

وفى عام١٢٩٠هـ/١٨٧٣م حولت الإدارة الفرنسية الملكيات الكبيرة للأرض إلى ملكيات صغيرة للغاية. ثم صدر قانون يجيز ملكية الأرض بسبب المديونية وبذلك تحولت الأرض الجزائرية إلى أملاك الدولة حيث صارت مساحة ملكية الدولة إحدى عشر مليون هكتار.

الهجرة الإجبارية :

عملت فرنسا على جذب الأجانب إلى الجزائر واسكانهم فيها ولما تعذر عليها إحضارالأعداد المطلوبة لجأت إلى إرغامهم بالقوة للهجرة إلى الجزائر حتى أن جماعة من الألمان أرغموا على السفر للجزائر للاستقرار بها بالقوة ثم لجأت فرنسا إلى ترحيل المسجونين غير المرغوب فيهم سياسيا إلى الجزائر.

وفى عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م تغيرت الأحوال فى الجزائر بعد ظهور الشركات الزراعية العقارية، وبدأ الاستثمار الأجنبى يعرف طريقه إلى الجزائر، وهنا بدأ الأوربيون يقبلون على الهجرة وزادت أعدادهم فى الجزائر وبدأ تملك الشركات الأجنبية للأراضى فحصلت شركة الجنغواز على إثنى عشر ألف هكتار من الأراضى وأقبل معها خمسمائة من الأوربين فى عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

وفى عام١٢٨٠هـ/١٨٦٣م قام بنك التسليف العقارى ثم توالى قيام شركات تسليف ونقل بحرى وتجارى.

كما حصلت الشركة العامة للجزائر على أرض بلغت سبعون ألف هكتار كضمان لقرض بلغ مائة مليون فرنك للاصلاح الزراعى ولكن لم يتم صرف ماتعهدت به الشركة إلا عشر المبلغ المحدد من قبل، كما قام الفرنسيون بتوزيع مساحات هائلة من الأراضى العقارية على ثلاثين رأسماليا أجنبيا.

وفى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى العشرين الميلادى كثرت رؤوس الأموال المستثمرة فى الجزائر. وبدأت الملكيات الزراعية الكبيرة فى الانتاج الزراعى الآلى. فظهر الانتاج التجارى. واتسعت زراعة قصب السكر والقطن والزيتون والتمباك.

الأحتكار الأجنبى:

خصص الاستعمار الفرنسى الأجنبى للقيام بدور المستفيد الأول والمستغل لخير الجزائر دون شعب الجزائر صاحب الأرض الأصلى. واستخدم فى سبيل الوصول لهدفه السيطرة على السوق الداخلية وتصدير رؤوس الأموال.

كما قامت فرنسا باحتكار النقل البحرى والوحدة الجمركية بين فرنسا والجزائر فكانت السوق الفرنسية هى السوق الوحيدة المحتكرة للانتاج الزراعى ويتم تصدير المحصولات الزراعية للسوق الفرنسية.

كما أنشأوا المصارف والصناعات للمواد الأولية كالحديد والفوسفات

والزنك وغيرها.

ومنذ بداية الاحتلال دخلت المنتجات الصناعية الفرنسية إلى السوق الجزائرية وحدث الاغراق بالأسواق ونتج عن تلك السياسة حركة ركود وكساد للصناعات الوطنية بعد ماكانت مزدهرة، وتقوم بمد البلاد بحاجاتها من المنسوجات والملابس والأسلحة ومإلى ذلك.

كما بيعت المصنوعات الفرنسية فى السوق الجزائرية باسعار رخيصة، وحرمت الجزائر كذلك من إقامة حماية جمركية لصناعاتها. وبسبب السياسة ا لتى اتبعتها فرنسا لقانون المنافسة الحرة فى السوق أن فقدت الصناعة الجزائرية القدرة على الوقوف فى وجه الصناعات الفرنسية حيث تفوقت فى الجودة والسعر.

وهكذا تم القضاء على الصناعات الحرفية فى الجزائر وتخلفت الصناعة الجزائرية تبعا لذلك.

لقد كان النظام الفرنسى سلسلة متصلة الحلقات خصصت جميعها لخدمة تثبيت أقدام الاستعمار الفرنسى وجعلوا منهم أجراء غرباء عن الأرض التى تملكها المستعمر . وأباح لنفسه حق التملك للأرض بغير حق، فضعفت القوة الشرائية لدى الشعب.

كم عملت فرنسا على منع ظهور أية محاولة لإنشاء صناعة وطنية حديثة يمكن أن تنافس الصناعات الفرنسية.

ولما أنشأ الجزائريون مصنعا كبيرا للنسيج خلال الحرب العالمية الثانية قامت فرنسا بإغراق السوق الجزائرية من المنسوجات الفرنسية فاضطر

أصحابه إلى إغلاقه.

النظام الإدارى للجزائر فى ظل الاحتلال الفرنسى:

وقعت فى عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م مجاعة راح ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين فقام الاقطاعيون الأجانب بالمناداة بالحكم المدنى وإلغاء الحكم العسكرى الفرنسى الذى يسيطر على البلاد.

وفى عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م تحولت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات فرنسية: قسنطينة والجزائر ووهران.

وفى عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م الغى الحكم العسكرى وتعين مكان الحاكم العسكرى حاكم مدنى يتبع وزير الداخلية الفرنسى، ثم عمل الأجانب فى الجزائر على بسط سلطانهم على إدارة الحكم فى البلاد، فاتهموا الإدارة الفرنسية بعدم فهم أحوال البلاد وعملوا على تحويل النفوذ الحكومى إليهم تدريجيا.

وفى عام ١٣١٤ هـ/١٨٩٦ أعيد الحاكم العام الكثير من نفوذه وأنشئ مجلس أعلى للجزائر له سلطة تشريعية يعينه الحاكم العام وتتكون أغلبيته من الأجانب.

وفى عام ١٣١٨ هـ/١٩٠٠م صار للجزائر ميزانية مستقلة يسيطر عليها الأجانب. ثم بدأ الاستعمار الفرنسى يعمل للقضاء على الروح الوطنية الجزائرية، فوقف ضد الدين واللغة والتعليم، وعارض التقاليد والعادات محاولا بكل جهده جعل الجزائر مقاطعة فرنسية. فأول ماأقدم عليه الاستعمار الفرنسى هو الغاء الاوقاف الإسلامية وجعلها ملكا للدولة وبذلك

تحولت ادارة الأوقاف من إدارة لخدمة المنشآت الدينية والهيئات الخيرية الشعبية إلى إدارة لخدمة الأهداف الاستعمارية المناهضة للشعب. ولم يكن مبدأ فصل الدين عن الدولة إلا حديث خرافة فى الجزائر.

ولم يكن للجزائريين حق المشاركة فى المحاكم القائمة فى الجزائر. وإنما هى من حق الأجانب فقط.

أما الجزائريون فى البلاد القبلية فلهم نظام العرف والتقاليد، ولم يعط للقضاء الشرعي الاسلامى حقه كما يجب أو كما كان عليه الحال من قبل.

التعليم في الجزائر في عهد الاستعمار:

أما التعليم فقد كان فرنسيا حيث جعلوا اللغة الفرنسية هى لغة البلاد لغة الوطن وفرنسا هى الوطن وتاريخ فرنسا هو تاريخ الوطن. وهكذا عمل الاستعمار على دمج الجزائر فى فرنسا. وفى نفس الوقت عمدت فرنسا إلى وجود نظام التفرقة العنصرية فى الجزائر ففى عام١٢٨٨ هـ/١٨٧١م قررت فرنسا منح يهود الجزائر صفة المواطنة الفرنسية كما عملت على إصدار قوانين أخرى بهدف إبعاد شعب الجزائر من دائرة الضوء فى الحياة الاجتماعية لتصغير شأن الجزائريين.

وفى عام١٢٨٢ هـ/١٨٦٥م أصدر الامبراطور نابليون مرسوما يسمح للجزائريين بشغل الوظائف العامة فى بلادهم، مع حقهم فى الحصول على حق المواطن الفرنسى بعد تقديم طلب التجنس مع التنازل عن الأحوال الشخصية للمسلمين.

وفى عام١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م بدأت الحركة الوطنية الجزائرية دورها

حين قام جماعة من الجزائريين هم : أحمد أبو درية المحامى والسيد صادق دندان والنائب المالى الحاج عمار. وطالبوا بوضع قانون نابليون لعام١٢٨٢هـ/١٨٦٥م الخاص بمساواة الجزائريين بالفرنسيين موضع التنفيذ. كما استعانوا بالعثمانيين لتحقيق فكرة الجامعة الاسلامية التى نادى بها السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى ومصطفى كامل فى مصر من قبل.

وفى عام١٣٣٣هـ/١٩١٤م قامت الحرب العالمية الأولى وقامت فرنسا بتجنيد الجزائريين لصالح الدفاع عن فرنسا وهنا نجحت المقاومة الجزائرية فى الوقوف موقف المعارضة وانسحب المجندون الجزائريون وفروا للاحتماء بالجبال فى الجزائر، بينما انضم آخرون للجيش العثمانى.

وهنا لجأ الاستعمار الفرنسى إلى حيلة لجذب الشباب الجزائرى إلى صفوف الدولة الفرنسية. ولذلك قامت فرنسا باصدار قانون يعطى للجزائريين حق انتخاب نوابهم فى المجالس البلدية وذلك فى عام١٣٣٨ هـ/١٩١٩م وفى نفس العام أيضا سافر وفد جزائرى برئاسة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائرى لعرض قضية الجزائر على مؤتمر الصلح فى باريس وفقا لمبادئ الرئيس الأمريكى ويلسون والتى تعطى للشعوب حق تقرير المصير فلم ينتبه إليه أحد. ولما رجع عائدا إلى بلاده شكل «كتلة النخبة من الجزائريين المسلمين» التى عملت على إصلاح الأحوال الاجتماعية وحق حصول الجزائريين على كافة الحقوق حتى عضوية مجلس النواب الفرنسى وطالبوا بوقف الهجرة إلى الجزائر.

وهنا قامت الإدارة الفرنسية بالجزائر بنفى الأمير خالد فسافر إلى مصر ثم تركها وسافر إلى فرنسا وهناك ألف لجنة أبناء الشمال الأفريقى. شارك

فيها مصالى الحاج الجزائرى وعبد القادر بن الحاج على المراكشى. ونادوا بعقد مؤتمر عام لشمال أفريقيا وطالبوا فيه بحرية الصحافة والاجتماع كما أيدوا حركة الزعيم عبد الكريم الخطابى فقامت الحكومة الفرنسية بإلقاء القبض على الأمير خالد الجزائرى وصحبه بتهمة إعادة تشكيل جماعة غير قانونية. إلا أن المحكمة أيدت عدم الحل للجماعة المغربية وأفرج عنهم وسمح لهم بممارسة نشاطهم.

كما أصدرت فرنسا قانونا فى عام١٣٣٨ هـ/١٩١٩م ، أباحت فيه للجزائريين الحصول على الجنسية الفرنسية ثم وافقت على أن يكون للمسلمين ربع المقاعد فى المقاطعات وثلث المقاعد فى المجالس البلدية. مع عدم الاشتراك فى انتخابات العمدة أو نائبه.

وفى عام١٣٤٤ هـ/١٩٢٥م ظهرت فى الجزائر ثلاثة إتجاهات:

١ـ الاتجاه الكفاحى، ويعتمد على الطبقة العاملة والفلاحين.

٢ ـ الاتجاه الاصلاحى، ويستند إلى النواب المسلمين ممثلى الملاك والبرجوازية.

٣ ـ الاتجاه المعتدل، الذى نادت به جمعية العلماء

وظل الكفاح الشعبى لتحرير الجزائر مستمرا فى الاتجاهات الثلاثة ولم يسفر ذلك عن شئ.

أما الإتجاه الكفاحى، فقد ربط بين العمال الجزائريين المهاجرين فى فرنسا وبين الحركة العاملة الفرنسية . وفى ظل تلك الجماعات ذوى الأفكار الثورية نشأت جمعية «نجم شمال أفريقيا» التى أنشأها الحاج عبد القادر

للدفاع عن المصالح الأدبية والاجتماعية لمسلمي أفريقيا. ثم تولى زعامة الجمعية «مصالي الحاج» وانفصل بها عن الحزب الشيوعي الفرنسي.

وفي عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م تقرر إنشاء حزب جزائري مستقل وتولى رئاسته جان شانترون المسمى ببارتل، وقد اكتسب هذا الحزب صفة محلية، ثم اسندت مناصب القيادة في الحزب إلى الجزائريين.

أما جمعية نجم شمال أفريقيا فقد طالبت باستقلال الجزائر. وتقدم الحزب الشيوعي الفرنسي بنفس الآراء وصار للجمعية والحزب برنامج واحد. وأعلنت الجمعية والحزب في عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م عن برنامج المؤتمر وهو:

١ - الاستقلال التام للجزائر.

٢ - انسحاب قوات الاحتلال.

٣ - إنشاء جيش وطني.

وفي عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م كان عباس فرحات والدكتور ابن جلول قد كونا «وحدة النواب الجزائريين» للمطالبة بتطبيق قانون عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م للمساواة بين الجزائريين والفرنسيين وحق الانتخاب للجزائريين، وعضد هذه الحركة بعض الفرنسيين الأحرار.

وفي عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧ دعت الحركة الجزائرية إلى عقد مؤتمر جزائري برئاسة الدكتور ابن جلول للمطالبة بانتخاب الجزائريين لعضوية البرلمان وإلقاء قانون دينية الجائر والاعتراف باللغة العربية تطورت وتعارضت مصالح العمال الجزائريين والعمال من المستوطنين الأجانب

الذين حذروا الحكومة الفرنسية من سياسة تطبيق مبدأ المساواة التامة التى تنادى بها الحكومة بين الجزائريين والفرنسيين.

وفى ظل هذه الظروف قام عباس فرحات ومصالى الحاج بتشكيل «حزب الشعب الجزائرى» فعارضته فرنسا باعتبار أنه محاولة لإحياء جمعية نجم شمال أفريقيا الملغاة ثم تبين للقادة الجزائريين أن فرنسا غير جادة فى تطبيق مبادئ العدل والمساواة التى نادت بها بالنسبة للجزائريين فرأوا القيام بحركة الكفاح الوطنى بالالتحام التام مع الشعب بعيداً عن حكومة الاحتلال.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م أسرعت الحكومة الفرنسية باعتقال الزعماء الجزائريين وتوقفت حركة التحرير الجزائرية عن نشاطها. ثم عمل الفرنسيون على تجنيد الجزائرين لصالح المجهود الحربى الفرنسى ووافق الزعماء الجزائريون وطلب عباس فرحات مقابل هذه الخطوة المساواة التامة بين الجزائريين والفرنسيين وقامت فرنسا بإجراء بعض الاصلاحات منها زيادة عدد المسلمين فى الجمعيات المحلية وفى الدوائر الانتخابية ومنح صفة المواطن الفرنسى لنحو نصف مليون جزائرى ولكن تلك الاجراءات التى نفذتها فرنسا تمت باعتبار أن الجزائر جزء من فرنسا، وهنا اجتمع الزعماء عباس فرحات ومصالى الحاج وكونوا «أصدقاء البيان والحرية» للمناداة بالجمهورية الجزائرية المتحدة مع فرنسا.

وبعد انتهاء الحرب فى عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م قام الجزائريون برفع العلم الجزائرى تعبيرا عن فكرتهم للقيام بدولة الجزائر المستقلة، فاشتبك معهم الفرنسيون فى صراع دموى وأعلنوا الأحكام العرفية وقبضوا على

عباس فرحات وغيره من الزعماء الجزائريين وأعلنوا حل الأحزاب الجزائرية وقدموا للمحاكمة وأعدم بعضهم وحكم على البعض الآخر بالأشغال الشاقة.

ثم عادت الحكومة الفرنسية وأصدرت عفوا عاما وأفرجوا عن الزعماء الجزائريين.

خرج الزعماء الجزائريين واتفقوا على تأسيس حزب جديد هو «الاتحاد الديمقراطى لوثيقة المطالب الجزائرية» برئاسة عباس فرحات. وحزباً آخر هو «الحركة المناصرة للحريات الديمقراطية».

وفى عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م بدأ الجزائريون توحيد صفوفهم للكفاح المسلح و أعلنوا الثورة المسلحة لانتزاع استقلالهم بقوة السلاح من أيدى المستعمرين وتكونت جبهة التحرير الوطنى إلى انضم إلى جيشها جميع أفراد الشعب.

كما حدث فى عام ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م أن أعلن زعماء الجزائر برئاسة عباس فرحات فى أثناء وجودهم فى القاهرة. انضمامهم تحت لواء جبهة التحرير الوطنية الجزائرية وقال عباس فرحات «ان رجال جبهة التحرير الوطنية الجزائرية هم أصحاب الحق فى المفاوضة إذ هم الذين يقاتلون دفاعا عن الحرية وعن شعب الجزائر وأن جميع القوات المكافحة فى شمالى أفريقيا متحدة تحت لواء واحد ولن يكون هناك سلام أو مهادنة ولكن أصرار على الكفاح الذى فرض الاستعمار على الجزائر حتى تتحطم جميع القوات الاستعمارية الفرنسية أو تجلو عن البلاد. ونحن على استعداد لمفاوضة فرنسا باسم الجبهة، ونعلن الآن أن لنا شرطا واحدا للمفاوضة وهو

أنه يجب على فرنسا أن تعترف بالوطن الجزائرى».

ثم بدأت هجمات الجزائريين المضادة تشتد على جنود الاحتلال التى ارتفع عددها إلى نصف مليون جندى فى محاولة للقضاء على مقاومة الثوار الجزائريين.

ومع اصرار الثوار على مواصلة الجهاد ضد فرنسا بدأت تزداد قوة المقاومة الجزائرية، حتى أعلن أصحاب المصالح الفرنسية فى الجزائر عجزهم مواصلة العمل فى ظل المشاعر الوطنية الملتهبة ضدهم.

وفى عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م أعلن الرئيس الفرنسى ديجول استعداده لفتح مفاوضة مع الجزائريين للوصول إلى تفاهم على الائتلاف مع فرنسا وعلى فتح استفتاء للشعب الجزائرى . وقبلت حكومة الثوار المفاوضة مع الفرنسيين.

وفتحت محادثات أولى فى ميلون فى عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م إلا أن الجزائريين رفضوا شروط المفاوضة وطلبوا اجراء استفتاء فى الجزائر باشراف هيئة الأمم.

وهنا أعلن ديجول أن الجزائر للجزائريين وطلب المفاوضة ثم رفض الجزائريون البدء فى التفاوض دون إعداد جدول أعمال مسبق.

وفى نفس عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م توجه عباس فرحات إلى موسكو لمقابلة الرئيس خروشوف، بقصد تشكيل جبهة لتأييد القضية الجزائرية فى عمل استفتاء وفعلا تم فى نهاية عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م تم الاتفاق على فتح استفتاء فى الجزائر إلا أن فرنسا رفضته.

وفى بداية عام ١٣٨١هـ/١٩٦١م ناقش مؤتمر وزراء خارجية الدول العربية فى بغداد مكونا من مصر والعراق وتونس والمغرب وليبيا والأردن والسودان وحكومة الجزائر المؤقتة وأصدر قرار تضمن مد حكومة الثوار الجزائرية بالمال والسلاح والمتطوعين وتقديم كافة التسهيلات لصالح الثوار الجزائريين.

وفى نهاية عام ١٨٣١هـ/١٩٦١م طلبت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة إلى حكومة فرنسا والجزائر العودة لاستئناف المحادثات لتحديد حق الشعب الجزائرى فى الوحدة وعدم تجزئته.

وفى عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢ توقف القتال بين قوات الاستعمار الفرنسى وقوات جبهة التحرير الجزائرية رسميا بعد عقد اتفاقية سرية فى ايفيان السويسرية واطلق سراح بن بيلا ورفاقه الأربعة الذين اعتقلتهم فرنسا فى حركة طيران باسلوب القرصنة وتضمنت الاتفاقية اعتراف فرنسا بحق الجزائر فى الاستقلال وتقرير المصير. والاعتراف للشعب الجزائرى بحقوق السيادة على أراضيه، مع تكوين فرقة بوليسية من ستين ألف عسكرى مسلم لصالح الأمن فى زمن وقف إطلاق النار والاستفتاء مع تشكيل هيئة مكونة من اثنى عشر شخصاً لتولى سلطة الحكم فى الجزائر خلال تلك الفترة.

وقد اعترف الحكومة الفرنسية صراحة بأن الصحارى جزء من الجزائر وبذلك فقد تخلت عن فكرة ضم الصحارى الجزائرية نهائيا إلى الممتلكات والأراضى الفرنسية. وبذلك احتفظت الجزائر مع حق الاستقلال بوحدة أراض الوطن. وكان هذا تحقيقا للمطلبين الأساسين اللذين أيدتها الأمم

المتحدة فى دورتيها السابقتين لاتفاق ايفيان وهما الاستقلال وحدة التراب الجزائرى.

وقد تضمن نص الاتفاق الذى تم توقيعه بين الحكومة الجزائرية المؤقتة والحكومة الفرنسية كما أذاع رئيس الوفد الجزائرى فى المفاوضات أن وقف اطلاق النار يضع حدا للعمليات العسكرية فى القتال المسلح فى شتى أنحاء الجزائر ابتداء من اليوم وأن الضمانات الخاصة بتقرير المصير وتنظيم السلطة العامة فى الجزائر أثناء فترة الانتقال، قد حددت فى اتفاق مشترك. وأن قيام دولة مستقلة، أمر يتفق مع الحقائق الثابتة عن القطر الجزائرى.

وفى ربيع أول ١٣٨٢/٢٧أبريل من عام ١٩٦٢ صدر قرار تشكيل الحكومة المؤقتة للجزائر وأعضائها. وتعد اتفاقية ايفان نصرا سياسيا عظيما للشعب الجزائرى كما أنها تضع حدا للنظام الاستعمارى وللسيطرة الأجنبية.

وهكذا عادت إلى الجزائر السيادة والاستقلال ، إلا أن المعركة لم تنته بانتهاء الحرب، بل لابد من دعم وتقوية الانتصارات التى تحققت بفضل النضال المسلح والعمل الجاد المستمر لبناء الدولة والمجتمع.

لقد تحررت الجزائر من الاستعمار ومن العهد الاقطاعى ولابد من التغيير الجذرى للمجتمع. لقد كان الاستعمار الفرنسى غزوا سكانيا استغلاليا استمر مدة قرن كامل.

الجزائر بعد الاستقلال:

لقد واجهت الحكومة الجزائرية المستقلة مهام مطلوب منها القيام بها.

وهو خلق دولة ذات سيادة ولها اقتصادها ولها ثقافتها القومية، وفى سبيل تنفيذ ذلك لابد من القضاء على التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية التى ولدها الاقطاع وعلى مخلفاته وبناء هيكل وتنظيم جديد يساعد ويضمن تحرير الأرض وممارسته لجميع حرياته.

وفى ظل نظام ديمقراطى سليم يستند إلى إدارة الشعب ورقابته المستمرة مع تضافر كافة طبقات الشعب بكل فئاته . كما أن الاهتمام باللغة العربية التى هى التعبير الصادق عن قيمنا الثقافية ودعم فعاليتها مع إحياء التراث الاسلامى للبلاد الجزائرية، وإنماء روح البحث العلمى فى كافة الاتجاهات وذلك لتقوية الشخصية الجزائرية مع مسايرة حركة التاريخ دون قطع الصلة بالماضى، فطاقة الشعب الجزائرى طاقة عظيمة وجبارة.

أن أول ماتتطلبه التنمية الاقتصادية فى البلاد، الابتعاد عن فكرة الاحتكار، وذلك بتأسيس علاقات تجارية مع الخارج مع الاتجاه إلى التصنيع وبتوجيه اقتصاديات البلاد بأسلوب التخطيط الحديث مع مساهمة القوى العاملة فى إدارة الاقتصاد وفقا للإمكانيات القائمة.

إن اتفاق ايفيان بسويسرا فى شوال ١٣٨١هـ/١٩ مارس ١٩٦٢م يعد أول وثيقة رسمية تعترف بها فرنسا بحق الشعب الجزائرى فى تقرير مصيره وفى صفر عام ١٣٨٢هـ/يوليو ١٩٦٢م أجرى استفتاء على تقرير المصير وأعلن شعب الجزائر تمسكه بالاستقلال التام وبدأ عملية بناء الدولة الجزائرية العربية التى انضمت لجامعة الدول العربية وللأمم المتحدة وأصبحت تتمتع بمكانة هامة فى المجتمع الدولى.

الفصل الثالث

المجتمع الجزائرى

* السكان
* الدين
* التصوف

سكان المغرب الأوسط (الجزائر):

يتألف شعب المغرب الأوسط (الجزائر) من عنصرين هما العرب والبربر. والبربر شعب عاش فى شمال افريقيا كلها منذ القدم ثم انحسر بعد ذلك عن الشرق وتركز فى الغرب من برقة إلى المغرب، وهذا الشعب كثير التفرع والانتقال والتداخل بحيث لم يعد من الممكن ربط أشتاته سواء فى الجنس أو الأصل أو اللغة أو التقاليد والعادات. وهو يكثر عادة فى الجبال ومناطق الصحراء ومايجاورها.

أما العنصر العربى فقد انتقل إلى هذه البلاد فى صدر الاسلام وان كان هذا الانتقال محدودا لايتجاوز الجند ولم تحدث هجرة بالمعنى الصحيح إلا بعد أن انتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر وانقطعت دعوتهم من هذه البلاد فشجعوا أربعة من أعظم القبائل إلى الانتقال إلى أراض المغرب، ويتألف العنصر العربى أيضا من العرب الذين هاجروا من الأندلس إلى هذه البلاد بعد أن أجلاهم الأسبان عنها.

وليس هناك فاصلا واضح المعالم بين هذين العنصرين فالامتزاج بينهما مستمر وهو يتم بسهولة ويسر وقد امتزجا امتزاجا كاملا بحيث لايمكن التفريق بينهما فالجميع يتحدثون باللغة العربية ويدينون بدين واحد هو الاسلام، وإن كانت بعض القبائل البربرية التى تسكن الجبال تحتفظ بلهجتها البربرية بعض الشئ إلى جانب اللغة العربية.

وإذا كانت الهجرة الهلالية قد ساعدت على اكتمال حركة التعريب، فإن الهجرة الأندلسية إلى الجزائر قد أدخلت إليها الزراعة المتطورة والصناعات الحديثة مثل صناعة النسيج والأقمشة المختلفة وصناعة

السجاجيد والصناعات اليدوية وهى قديمة فى نشأتها ثم زادت إزدهارا كالحدادة والنجارة والدباغة.

كما أفادت تلك الجماعات المهاجرة من العلماء والأدباء فى الحياة العلمية والأدبية الجزائر، وكان من بينهم كثير من اليهود الفارين من الاضطهاد الأسبانى.

على أن العهد العثمانى حين دخل الجزائر ، جاءت معه أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن الأسرى الذين جمعتهم أعمال القرصنة البحرية بالآلاف من أنحاء البحر المتوسط وكثيرون منهم دخلوا فى الاسلام وسرعان ماندمجوا فى شعب الجزائر وقد عادت إليهم حريتهم وحينئذ صاروا من أهل البلاد دينا ولغة.

هذا بالإضافة إلى العناصر القديمة التى عاشت فى الجزائر من أفريقية وآسيوية وأوربية واندمجت مع أهلها من البربر وهؤلاء مثل الفينقيين والرومان والوندال والبيزنطيين ثم العرب والعثمانيين وجميعهم تصهرهم الصقة الجزائرية حتى يستحيل تمييزهم فى أغلب الأحيان فلم يعودوا يذكرون شيئا عن أصلهم الحقيقى أو لغتهم أوعادتهم.

المعيشة:

المغرب الأوسط (الجزائر) بلاد زراعية بطبيعتها ويرجع ذلك إلى صلاحية طقسها ووفرة أمطارها ، كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة والرعى وقد احتلت حرفة الزراعة والرعى مكانة هامة فى الإقتصاد الجزائرى حيث يوجد أغلب أنواع الحيوانات فى الجزائر من غنم وماعز

وبقر وابل وغير ذلك. وتصدر الجزائر كميات هائلة من الأغنام.

المدن الساحلية:

ويمتاز السهل الساحلى للجزائر حيث توجد مدينة عنابة بالقرب من مصب نهر سيبويه التى يكثر بها العناب حتى سميت باسمه، ويصدر بعد تجفيفه.

كما تنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل وجميع أراضيها صالحة لزراعة الحبوب وخاصة القمح . وتملك القبائل بهذه المدينة الكثير من الأبقار ، والثيران والأغنام.

وتقع جيجل غرب عنابة ويزرع بها الشعير والكتان والقنب وبها شجر الجوز والتين، وتليها غربا بجاية وبها كثير من القمح والشعير والتين وكثير من أنواع الفواكه الأخرى.

وتلى بجاية غربا الجزائر ويسكنها بنو مزغنة وأقاموا بها المبانى والعمائر والدولة الزيرية فى العهد الفاطمى. ويزرع بها أجود أنواع القمح وتكثر بها الأشجار والبساتين.

وغرب الجزائر توجد شرشال ويزرع بها الكرم والتين والسفرجل. وهى من المدن التى عمرها المهاجرون الأندلسيون فى نهاية القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى. ويلى شرشال مدينة تنيس ويزرع بها القمح والسفرجل وتنتج العسل، وقد عمرها أيضا الأندلسيون مثل المدن الأخرى التى نزلوا بها عقب خروجهم من الأندلس.

وأخيرا مدينة وهران ، وكانت مدينة صغيرة فلما دخلها الأندلسيون

المهاجرون انتشر العمران وكثرت بها البساتين والحدائق وأنواع كثيرة من البقر والغنم.

أما المدن التي بالداخل فتوجد جنوب عنابة مدينة قالمة وهى غنية بالأبقار المميزة عن غيرها من الأنواع الأخرى ويلى ذلك مدن نقاوس وقسنطينة وميله والمسيلة وطنجة عاصمة اقليم الزاب الأعلى وبغاية وبسكرة وتقع فى اشهر الواحات الجزائرية وكانت تسمى قديما فسكرة وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع ويكثر بها النخيل والزيتون وتعد التمور التى تنتجها بسكرة من أجود أنواع التمور فى العالم.

وفى الشمال الغربى من الجزائر توجد تاهرت وكانت عاصمة الدولة الرستمية الأباضية، وجميع تلك المدن عامرة بأنواع المزروعات المثمرة من الحبوب والفاكهة والأنعام والخيل.

كما عرفت المدن الجزائرية بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة والحياكة. أما المدن الساحلية مثل بجاية فكان بها دار لبناء الأساطيل والسفن، وقد ساعد على هذه الصناعة وجود الغابات التى امتلأت بها الأودية والجبال فى جنوب البلاد.

كما كان يوجد بها الحديد وغيرها من المواد اللازمة لصناعة السفن كذلك اشتغل سكان المدن الساحلية الجزائرية بصيد السمك والحيتان. وهذا الانتاج الزراعى الصناعى البحرى هو الذى مهد لبلاد المغرب الأوسط (الجزائر) للتصدير لمنتجاتها إلى أنحاء العالم المختلفة مثل أوربا شمالا ومصر والشام وتركيا شرقا وإلى الجنوب الأفريقى فى السودان الغربى وغانه والسنغال.

الفنون:

عرف الجزائريون الموسيقى فى أشكالها البسيطة وعرفوها أكثر بعد الهجرة الأندلسية إلى الجزائر فقد اشتغل الأندلسيون بالموسيقى وبرعوا فيها حتى أنهم عرفوا «النوتة» وهى الأنغام الموسيقية المسجلة قبل أن يكتشفها الأوربيون (١).

كما عرف الجزائريون الموسيقى التركية فى العهد العثمانى وهكذا تشكلت الموسيقى الجزائرية خاصة بعدما استخدم الجزائريون العديد من الآلات الموسيقية مثل الناى والعود والمزمار.

الدين:

دخل المسلمون المغرب الأوسط (الجزائر) وهدفهم الأساسى من الفتح فى بلاد المغرب هو نشر الاسلام وإيضاح الطريق أمام سكان البلاد الأصليين الذين وقعوا تحتى سيطرة البيزنطيين ليتعرفوا على الاسلام ومبادئه. كما كان يوجد من هو على دين المجوسية وعرفوا كذلك اليهودية مثل قبيلة جراوة أهل جبال أوراس. لقد بعث الخلفاء الأمويون بالعلماء الذين كان لهم دور بارز فى تعليم البربر قواعد الاسلام.

كما حرص القادة والولاة على بناء المساجد والزوايا وتجديدها لأداء المسلمين شعائرهم ولتلقى العلم ومعرفة أمور الدين.

ولم يكد ينتهى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى إلا وقد أسلم البربر وصار المغرب اسلاميا وشارك غيره من أقطار العالم الاسلامى فيما

---

(١) تاريخ دولتى المرابطين والموحدين. دكتور محمود السيد. صـ ١٣٠ ط اسكندرية.

ظهر فيه من أفكار ومذاهب فظهرت الفرق الاسلامية من خوارج ومعتزلةوشيعة وغيرهم وجدت فى أرض المغرب مكانا صالحا لإعلانها بين السكان فبجانب المذهب المالكى، وكان هو الملجأ الذى احتمى به سكان المغرب ضد التيارات المذهبية والانحرافات الدينية إلا أن المذهب المالكى ظل هو المذهب الذى لاتحيد عنه جميع البلاد العربية.

لقد وجد دعاة المذاهب الخارجية فى أرض المغرب فرصة لنشر مبادئهم بعيدا عن أعين الرقباء؛ إذ أنهم تمادوا فى خططهم حتى اتخذوا من الثورات والكفاح المسلح طريقا لتحقيق أهدافهم فظهر دورهم المؤثر فى البلاد. وذلك مثل الأباضية والصفرية الذين تحالفوا بقصد توجيه ضربات موجعة للعباسيين. ومن هؤلاء الخوارج.

الأباضية:

هم أتباع أقدم فرقة فى الإسلام وقد نشطوا أواخر عهد على بن أبى طالب وتولية معاوية الخلافة.وأحدثوا اضطرابات كثيرة فى الدولتين الأموية والعباسية، وقدر لبعضهم النجاح فى فترة من الزمن.

نادت الأباضية مثل بقية الخوارج بأن الخلافة - أو إمامة المسلمين - لايصح أن تقتصر على قريش، بل تتولاها أفضل المسلمين تقوى وعدالة ولو كان عبدا حبشياً، ونازعوا الخلفاء وتأسست لهم دولة فى المغرب الأوسط فى تاهرت فى شمال غرب الجزائر، قامت على المذهب الأباضى واستطاع مؤسسها عبد الرحمن بن رستم موادعة صاحب القيروان روح بن قبيص فى عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م واستمال البربر وتمكن ابن رستم من استمالتهم إلى الاسلام وفرض عليهم الضرائب ثم بسط سلطانه على بقية

القبائل واستكمل بناء عاصمته وأرسى قواعد نظم الدولة وتوطد سلطانه حتى استقرت وقويت.

وكان سياسيا قديرا جمع القلوب حوله في يسر وسهولة.

من نظم الأباضية مجلس العزابة ويؤسس في كل مدينة أو منطقة غالبيتها أباضية، وجعل لكل جماع رئيس ينتخبونه بمن عرف بحسن الخلق والتمسك بالتعاليم الأباضية، فجعل منهم القضاة للحكم فى المنازعات، ومنهم شيوخ لتعليم المذهب الأباضى، وجعلوا مجالسهم سرية، ولغتهم مبهمة للاحتفاظ بالسرية للمذهب، وكان منهم مشرفون على المساجد والمساجد الجامعة للمتابعة فى تطبيق المذهب الأباضى.

ويعملون على نشر الوفاق بين الناس فى المجتمع عن طريق النصح والارشاد، والعمل لمساعدة الأغنياء للفقراء وكان منهم من يراقب الأسواق ويدعو إلى الإستقامة فى التعامل فى الأسواق.

كما كان للأباضية مدارس خاصة بهم وللمدرسة شيخها المسئول عن تدبير أمورها. كما ساعدت الأباضية على نشر اللغة العربية بين السكان. وعملوا على تعليم القرآن وعلوم التفسير والحديث، كما قام أصحاب المهن والحرف من الأباضيين وخاصة التجار بدور هام فى نشر الاسلام فى البلاد الإفريقية فى جنوب الصحراء.

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى قضت الدعوة الشيعية على الأباضية فى تاهرت.

. الزهد والتصوف:

عرفت الجزائر التصوف كما عرفته سائر البلاد الاسلامية وهو مذهب أخلاقي اجتماعي نفسي له منشؤه وتاريخه وأسلوبه وطريقته، وفائدته تهذيب النفوس وطهارة الصدور وحسن الخلق وهو لايخالف شريعة الاسلام ولايناقض ماتم عليه إجماع الأمة من أصول، وهو لايبتدع في الإسلام مبادئ ليست منه، ولإيضاح شروط الدخول في التصوف يكشف عن هذا الحوار الذى وقع بين أبى العتاهية وإبنه.

دخل أبو العتاهية على ابنه وقد تصوف فقال له: ألم أكن نهيتك عن هذا؟ فقال: وماعليك أن أتعود الخير وأنشأ عايه؟ فقال له: يابنى يحتاج المتصوف إلى رقة حال وحلاوة شمائل، ولطافة معنى. وأنت ثقيل الظل، مظلم الهواء، راكد النسيم، جامد العينين، فأقبل على سوقك فإنها أعود عليك.

والذين أشاعوا الزهد والتصوف في الجزائر هم الوعاظ في أيام الجمع بالمساجد وكانوا يدعون إلى الزهد في الحياة وطلب القناعة والكفاف. وانتشرت أماكن العبادة فبنوا الرباط والزوايا في الثغور لحماية البلاد من القراصنة.

كما انتشرت في داخل البلاد وفي الواحات وعرف المغرب الأوسط (الجزائر) الطريقة القادرية التى نادى بها الشيخ عبد القادر الجيلانى وهى طريقة سنية.

كما عرف في الجزائر الصوفى أبو مدين شعيب، وهو من العلماء الذين قدموا في الهجرة الأندلسية إلى الجزائر منذ القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وعاش ببجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية وتوفى

بتلمسان.

وفى العهد العثمانى كثر اتباع التصوف لاهتمام الحكام العثمانيين بهم والتعاطف معهم وزيارتهم.

كما عرفت الجزائر الطرق الصوفية التى عرفها العثمانيون فى بلادهم مثل البكداشة والنقشبندية والمولوية اتباع جلال الدين الرومى، ثم انتشر التصوف فى أنحاء الهضاب والصحارى الجزائرية.

الباب الرابع

المغرب الأقصى

المغرب الأقصى منذ الفتح العربى إلى قيام المملكة المغربية

* الوصف الجغرافى
* الفتح العربى بالمغرب الأقصى
* الحركات الثورية فى المغرب الأقصى
* الصفرية
* الأدارسة
* المرابطون
* الموحدون
* بنو مرين
* بنو واطس
* السعديون
* العلويون
* الاستعمار الأوربى فى المغرب الأقصى
* هزيمة الاستعمار واستقلال البلاد

يقع المغرب الأقصى فى شمال غرب أفريقيا يحده شرقا بلاد الجزائر وغربا المحيط الأطلسى وشمالا مضيق جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط من حدود الجزائر إلى طنجة، ثم ينحرف الساحل جنوبا فى خط هلالى مع المحيط الأطلسى ثم يمتد من طنجة حتى حدود الصحراء فى أقصى الجنوب.

ويمتد من داخل البلاد سلسلتان من الجبال سلسلة جبال الريف، وهى متوسطة الارتفاع وتمتد فى شكل هلالى بين مدينة طنجة، ويطلق اسم الريف، على القسم الشرقى منها. وتبلغ هذه السلسلة أقص ارتفاعها فوق سطح البر عن جبل «تدغين» وسلسلة الريف امتداد لجبال جنوب أسبانيا وهى منفصلة عن سلسلة جبال أطلس.

ثم سلسلة جبل أطلس المعروفة، وهى أكثر ارتفاعا من سلسلة الريف، ويفصل بينهما «ممرتازة»، ومجموعة جبال اطلس ثلاثة سلاسل وتمتد من سيرت إلى شاطئ المحيط الأطلسى مخترقة شمال أفريقيا كله. وهى:

١ - الشرق الكبير ويخترق المغرب من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى وهذا الجزء يمثل أقصى ارتفاعا فى السلسلة الجبلية للمغرب. وتغطى قمة الثلوج طوال العام.

٢ - الأطلس المتوسط: ويتجه محاذيا للنصف الأعلى من الأطلس الكبير حتى يقترب منه عند منتصفه عند منابع نهر الملوية، وهو شاهق الارتفاع.

٣ - الأطلس الصغير: وينفصل عن الأطلسى الكبير عند جبل سروعة من

الشاطئ، وهو فاصل بين الأطلس الكبير والصحراء وهو شاهق الإرتفاع، وتفصل سلاسل الأطلس الجبلية بين غرب البلاد وشرقها، ويصل ممر تازة بين الجهتين ولكنها تفصل الشمال عن الجنوب. بينما تربط بينهما الأودية والفجوات.

وتعد بلاد المغرب الأقصى أكثر البلاد بالمياه والأنهار إلا أن عدم وجود سدود لاختزان المياه يفقدها الكثير من المياه التى يتعذر الاحتفاظ بها.

أما الأنهار التى بالمغرب الأقصى فهى:

أنهار تصب فى البحر الأبيض المتوسط ومنها نهر الملوية وينبع عند التقاء الأطلس الكبير والأطلس المتوسط وتغزر مياهه فى الربيع، ويستخدم النهر للملاحة قرب المصب.

وأنهار تصب فى المحيط الأطلسى. ويعد نهر «سبو» الذى ينبع من فاس ويصب فى المحيط الأطلسى شمال مدينة سلا ونهر «أم الربيع» وينبع من جنوب «سبو».

وهناك أنهار تنحدر جنوبا وتصب فى جوف الصحراء وهى تنبع من سلسلة جبال أطلسى كذلك.

أما مناخ المغرب الأقصى فهو مناخ البحر الأبيض إلا أنه يختلف من مكان لآخر وذلك بسبب السلاسل الجبلية والسواحل الشمالية والغربية وكذلك الصحراء التى فى جنوب البلاد.

فهو عند شاطئ المحيط معتدل صيفا بارد شتاء شديد الرطوبة، والفرق

عال فى درجة الحرارة بين الليل والنهار. كما تكثر الزوابع فى الصيف، ويشتد ـبرد فى الشتاء، وعلى الرغم من كثرة الأمطار إلا أنها غير منتظمة.

وتكثر الأمطار فى الغرب وتقل فى اتجاه الداخل نحو الشرق. ويضعف كذلك تأثير المحيط الأطلسى على المناخ فى الداخل.

بينما تتحكم غابات السنديان والأرز المنتشرة فى تلك المناطق. وتأتى الرياح من الشمال والغرب محملة بالأمطار بينما يأتى من الجنوب والشرق الرياح الحارة. والجو عموما حار صيفا بارد شتاء.

السهول والوديان:

يتكون السهل الغربى من سهول متسعة تمتد من الرباط إلى مراكش وهى سهول «الشاوية، ودكاله وتادله وعبده والحوز»، وهى منطقة حافلة بالمروج والحقول والمزارع لخصوبتها الوفيرة وجودة الأرض.

أما السهل الشمالى، فيقع بين السهل الغربى وسلسلة جبال الريف، ويسير نهر سبو فى الطريق مابين فاس فى الداخل والمهدية على ساحل المحيط، ويمتد غربا حتى يشمل ممر تازة وسهل الملوية، ثم يستمر غربا حتى الحدود الجزائرية، وتوجد بالسهل الشمالى بعض الهضاب.

ويوجد به إقليم وجده والملوية والغرب وسايس.

أما منطقة السوس فتقع فى الجنوب الغربى من ساحل المحيط وهى منطقة صغيرة محصورة بين جبال أطلس العليا وأطلس الخلفية وساحل المحيط.

أما الوادى الذى يجرى فيه نهر الملوية فى منطقة شرق المغرب، فتمتد حتى الحدود الجزائرية. وتوجد منطقة درعة وتافيلالت عند جنوب السلاسل الأطلسية وهى ساحل عمرانى، وفى الجنوب منها صحراء قاحلة وتتخللها بعض الواحات.

السكان:

يتألف الشعب المغربى من عنصرين هما العرب والبربر، والبربر شعب عظيم عاش فى شمال أفريقيا منذ القدم، فالبربر هم العنصر الأصل، الذى عاشت قبائله وبطونه وعشائره فى المغرب وسواحله وسهوله وهضابه ووديانه من برقة إلى المحيط الأطلسى، وهم أفريقيون حاميون وتنقسم شعوبهم إلى قسمين البتر والبرانس وهما من أصل واحد، وترجع فكرة التقسيم إلى أساس اجتماعى فغالبية قبائل البتر تعيش حياة أقرب إلى البداوة على عكس معظم البرانس فهى قبائل عاشت حياة حضارية مستقرة.

وهذا هو الفرق بينهما.

وقد تفرعت قبائل كل قسم منها إلى قبائل عدة وخرجت من كل قبيلة بطون عديدة تداخلت بعضها ببعض واختلطت أنساب بعض القبائل بحيث تكون بترية أحيانا وأحيانا برانسية.

أما العنصر العربى فقد انتقل إلى هذه البلاد فى صدر الاسلام انتقالا محدودا ... فلم تحدث هجرة حقيقية إلا عندما انتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر وضعفت دعوتهم بالمغرب، فدفعوا بقبائل بنى هلال وسليم على الهجرة من مصر إلى المغرب، كما جاءت هجرة ثانية من الأندلس إلى

المغرب. كما حضرت جماعات عربية من البلاد الحجازية.

وجميع تلك الفئات العربية امتزجت مع العنصر البربرى حتى تغير البربر تغيرا عظيما لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم فى أغلب الأحيان فهم لم يعودوا يذكرون شيئا عن أصلهم الحقيقى أو لغتهم أو عاداتهم فالجميع يتحدثون باللغة العربية، ويدينون بدين واحد هو الإسلام.

المدن الهامة:

الرباط:

تقع على ساحل المحيط الأطلسى. وهى تتميز بحضارة رفيعة، بناها يوسف بن عبد المؤمن فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، فجعلها رباطا لحشد الجيوش والأساطيل لغزو الأندلس واكمل بناءها يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن.

الدارالبيضاء (آنفا):

تقع على ساحل المحيط الأطلسى، فتحها عقبة بن نافع عام ٦٢هـ/٦٨١م واطلق عليها اسم الدار البيضاء فى العهود التالية ويحيط بها زروع كثيرة ويزرع بها الحبوب، وتعمرها الجوامع والفنادق.

فاس:

تقع فى منطقة جبلية بين منطقتى الأطلس والريف وتغمرها الغابات وبها اشجار البرتقال والتين وأكثر السكان فى مدن الساحل صيادون وفلاحون، والجبال قليلة السلكان، وشغلت دورا كبيرا فى العصور الاسلامية

وتعتبر إحدى المراكز العلمية الاسلامية الكبيرة.

أنشأ بها أدريس الثانى جامعة القرويين عام ١٩٢هـ/ ٨٧٠م وهى أقدم الجامعات الاسلامية. ودرس بها كثير من زعماء الحركة الوطنية بالمغرب الأقصى. حافظت على التراث الاسلامى لما جمع بها من نفائس الكتب والمخطوطات العلمية القيمة.

مراكش:

أسس يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين مراكش عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م فى السهل الذى يقع شمالى أغمات وجعلها عاصمة للدولة وعمرها ببناء المسجد الجامع وأعقب ذلك البناء المخصص لإدارة شئون الحكم وماإلى ذلك من مدارس وصناعات. ثم أتمها من بعده الخليفة عبد المومن الموحدى الذى بنى بها عدة مآثر من بينها مسجد الكتبية الذى بنى منارته الشهيرة الخليفة يعقوب المنصور الموحدى.

وقد لعبت مراكش دورا هاما فى تاريخ المغرب العربى منذ عهد المرابطين ومن بعدهم الموحدين ثم السعديين. فقد صارت عاصمة المغرب الجنوبية وبلغت شهرة عالمية.

طنجة:

تقع طنجة فى الشمال الغربى من منطقة الهبط وهى أهم مدنها، بين المحيط الأطلسى والبحر الأبيض فى مواجهة الشاطئ الأسبانى. وكانت طنجة مركزا للتجمع العسكرى العربى المغربى منذ عهد طارق بن زياد حتى عهد الدولة المرينية.

تطوان:

وتقع على البحر المتوسط شمالاً لشرق فى منطقة الهبط التى تكثر فيها المجارى النهيرات المائية وهى أرض خصبة وافرة الانتاج. يعمر فيها السكان بالسهول والوديان تم بناؤها فى عهد يوسف المرينى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ونزلها الأندلسيون فى أيام هجرتهم من بلاد الأندلس فعمروها وأصلحوا مرافقها.

الحياة الاقتصادية:

الزراعة: تمتاز المغرب بجودة الطقس وغزارة الأمطار وكثرة الأنهار فلذلك أرضها جيدة وزراعتها ممتازة إلا أنها تفتقر إلى بناء خزانات وسدود للاستفادة من مياه الامطار التى يتعذر التحكم فيها فتتسرب إلى البحر دون الاستفادة بها فى الزراعة.

كما الزراعة تحتاج إلى تطويرها واستخدام الوسائل الحديثة فى الرى ويعمل غالبية السكان بالزراعة وتكثر أشجار الزيتون فى مناطق طنجة وفاس ومكناس وتادله ومراكش.

كما تكثر أشجار اللوز فى سفوح الجبال الشمالية بالمغرب. وتكثر أشجار النخيل وأشجار التين فى تارودانت وتافيلالت ومراكش.

وتنتشر فى بلاد المغرب اشجار البرتقال والليمون واليوسفى وأشجار الجوز والمشمش والبرقوق والتوت.

أما مناطق فاس وشمال الأطلسى ومراكش وسوس فتكثر فيها زراعة العنب ويشغل مساحات شاسعة فى هذه المناطق.

الغابات:

تشغل الغابات مساحات شاسعة فى بلاد المغرب ومن أشهر اشجارها السنديان والبلوط والصنوبر والعرعر والسرو والسندروس وتوجد فى اقاليم كتامة والمعمورة والحرشة وويلماس وباب الأزهار وتستخدم منتجات الغابات محليا كما يصدر منها كميات كبيرة.

الثروة الحيوانية والسمكية:

تعد الماشية من المصادر الهامة لاقتصاد البلاد المغربية من البقر والغنم والماعز ويصدر المغرب كميات كبيرة من الأغنام.

الثروة السمكية:

تمتد شواطئ المغرب الأقصى مئات الكيلومترات، فتطل شمالا على البحر الأبيض المتوسط وغربا المحيط الأطلسى. وتشتهر بتنوع أسماكها وخاصة مناطق الخلجان.

الثروة المعدنية:

تشكل المعادن قسما مهما من الصادرات المغربية. ويوجد بأرض المغرب الأقصى من المعادن الزنك والرصاص والحديد والمنجنيز والفحم والفوسفات. وتجرى عمليات التنقيب عن المعادن وخاصة الفوسفات الذى يتطور استخراجه بشكل مستمر ويصدر منه كميات وفيرة.

وفى جنوب مدينة وجده يوجد الفحم فى منجم حرادة ويصدر منه لأوربا.

كما يصدر الحديد الذى يستخرج من مناجم خنيفرة والسوس وتيفلت والسهل المغربى ومناطق الشرق إلى أوربا.

أما مناطق الأطلسى فيوجد معدن الزنك كما يوجد معدن المنجنيز والكوبلت فى أبو عرفة وأبو عزاز وفي مراكش ويوجد فى المغرب من الكوبلت قدر سدس مافى العالم.

كما يوجد فى بلاد المغرب القصدير والجرانيت وحجر الملح والرخام والجبس والكبريت.

الصناعة:

عرف المغرب الأقصى الحرف اليدوية منذ القدم منها الحدادة والنجارة والدباغة وصناعة السجاد والجلود والأوانى والأقمشة المختلفة والصناعات الكيماوية.

التجارة:

ازدهرت التجارة فى البلاد المغربية مع أوربا وتركيا ومصر والسودان والسنغال وغيرها من دول شمال أفريقيا، وتتكون الصادرات المغربية من المنتجات الزراعية والحيوانية والمعدنية وأهمها الفوسفات والجلود والصناعات اليدوية.

الفتح العربى للمغرب الأقصى:

قام عقبة بن نافع فى ولايته الثانية فى عام ٦٢هـ/٦٨١م بعمليات عسكرية كبيرة فبدأ بالمغرب الأوسط واستولى على ماكان بأيدى البيزنطيين من القلاع والحصون باقليم الزاب وسار إلى المغرب وأذعنت له قبيلة غمارة فى شمال المغرب الأقصى بالريف والهبط وانقادت لسلطانه وأخضع وليلى فى منطقة فاس.

وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وواجه جزوله وخضعت له جميعها حتى صار فى بلاد السوس وهى آخر معاقل البربر فى بلاد المغرب الأقصى يرفع راية الاسلام، وفى ماسة التى على ساحل المحيط الأطلسى عمد إلى فرسه فضرب بأرجل فرسه فى الماء وأعلن أنه قد بلغ أقصى مايستطيع من أرض الله ليرفع راية الاسلام ودعوة التوحيد المحمدية.

لذلك يعد عقبة بن نافع القائد الحقيقى الذى فتح بلاد المغرب الأقصى.

وفى عام ٦٩هـ/٦٨٨م تولى حكم المغرب الأقصى زهير بن قيس وتمكن خلال معاركه مع البربر من هزيمة كسيله ثم تولى حسان بن النعمان حكم المغرب فى عام ٧١هـ/٦٩٠م وهو الذى دون دواوين الجند والخراج والرسائل وطارد الروم فى عقر دار عاصمتهم قرطاجة وأنشأ مدينة تونس وجعلها قاعدة للأسطول.

كما بنى دار صناعة للاسطول الاسلامى. وحارب الكاهنة وهزمها

وقتلت فى المعركة. ثم استطاع بسياسته الرشيدة مع البربر أن يستميلهم إلى الاسلام وينتظموا فى صفوف جيش المسلمين، وساوى بين العرب والبربر فى المعاملة فانجذبت قلوب البربر إلى الاسلام، ونتج عن تلك السياسة انتشار الاسلام بين أفراد شعب المغرب الأقصى. ولما تولى موسى بن نصير حكم بلاد أفريقيا والمغرب فى عام ٨٦هـ/٧٠٥م بعث بالحملات العسكرية إلى مختلف أنحاء المغرب ثم بعث من يعلمون الناس مبادئ الاسلام، واتجه بعد ذلك شمالا إلى طنجة، كما اتجه جنوبا إلى بلاد السوس، وأقام النظم الإدارية فى مختلف الأنحاء فجعل ولايات برقة وتونس والقيروان فى شرق المغرب الأوسط وجعل تلمسان عاصمة المغرب الأوسط فى الناحية الغربية منه.

أما فى بلاد المغرب الأقصى فجعل سلجماسة عاصمة لأرض السوس. وجعل من مدينة طنجة عاصمة للأقليم الشمالى للمغرب الأقصى.

وتولى طارق بن زياد حكم طنجة بأمر من موسى بن نصير ثم جعله قائدا للحملة العسكرية لفتح الأندلس وقد شكلت جيوش طارق غالبية من الشعب المغربى وبذلك صار العرب والمغاربة صفا واحدا فى الجهاد لرفع راية الإسلام فى بلاد المغرب وفى بلاد الأندلس.

لقد نجح موسى فى دفع الدعاة إلى أنحاء البلاد يعلمون الناس الإسلام، كما نجح موسى فى تكوين جيش ضم العرب والبربر المغاربة جنبا إلى جنب وعبر به الأندلس وهكذا دفع موسى براية الإسلام من المغرب إلى آفاق جديدة فى بلاد جنوب أوربا فى أسبانيا ، وانطلق يبسط سلطان المسلمين فى قرطبة وطليطلة حتى صارت قلاع للإسلام ينتشر نور

الإسلام فى ربوعها.

لقد كان لسياسة الولاة أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير آثارها فى تثبيت أقدام المسلمين فى بلاد المغرب.

وفى عام ٩٦هـ/٧١٤م تم عزل موسى بن نصير من منصبه فى حكم بلاد أفريقيا والمغرب فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) وتولى مكانه محمد بن يزيد الذى قام بنشاط عسكرى فأرسل فرق الاستطلاع والبعوث إلى نواحى متفرقة من بلاد المغرب أحرزت نصرا واضحا واستولت على كثير من الغنائم وبقى محمد بن يزيد فى ولايته حتى وفاة سليمان بن عبد الملك ثم عزل من منصبه بعد عامين من توليته.

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩٠-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) أسند مقاليد الأمور فى أفريقيا والمغرب إلى اسماعيل بن عبد الله فى عام ١٠٠هـ/ ٩٨٩م وقد عرف بالاستقامة وحسن السيرة ورافقه فى رحلته إلى بلاد المغرب مجموعة من التابعين ليعاونوه فى نشر الاسلام وتعليم الناس أصول الدين وفى عهد اسماعيل بن عبد الله أقبل البربر على الإسلام واعتناقهم له لحسن تدبيره للأمور فى سياسة البلاد.

لقد كان للدور الإيجابى الذى قام به اسماعيل بن عبد الله أن تملكت قلوب الأهالى تعاليم الاسلام وعرفوا الحلال والحرام وأدركوا تعاليم الاسلام فى تحريم الخمر واستجابوا للدعوة الى تحريم شربها بفضل جهود هذا الوالى وأعوانه من الدعاة المخلصين.

ثم توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز فى عام ١٠١هـ/ ٧٢٠م وتولى خلافة المسلمين يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/ ٧٢٠-٧٢٤م) وقد ترتب على ذلك تغيير عام فى سياسة الدولة فلم يكن يزيد بن عبد الملك يقر بسياسة التسامح واللين التى عرف بها عمر بن عبد العزيز. وتم عزل الولاة فى الأمصار ومنهم اسماعيل بن عبد الله.

ثم أعقب هؤلاء الولاة حكام عرفوا بالشدة والقسوة فى معالجة الأمور، وقد نتجت عن هذه السياسة السخط والتذمر فى صفوف كثير من عناصر المجتمع المغربى ترتب عليها الخروج عن طاعة الحكام وبلغت إلى أقصى مداها فدبرت المؤامرات ضد الحكام للتخلص منهم بالقتل.

لقد اشتعلت نيران الثورة وأظهرت شعوب المغرب العصيان فقاموا بالثورات المدمرة، ودخلوا فى صراع مسلح مع حكامهم العرب ظل فترة طويلة حتى انفصل المغرب الأقصى عن سلطان الخليفة الأمرى فى دمشق فمهد ذلك لقيام دولة الأدارسة. وكذلك قيام ثورات أخرى فى مناطق مختلفة. وقد أشعلت تلك الثورات زيادة الضرائب والاجحاف بحقوق المواطنين بشكل تعذر عليهم معه السكوت عليه. كان الولاة يجمعون المال بغير وجه حق فاشتعلت الثورات التى أوجدت للخوارج أرضا خصبة خاصة وأن أرض المغرب بعيدة عن مقر الخلافة.

وهكذا ظهرت الثورة فى طنجة ونتج عنها انفصال المغرب الأقصى عن الخلافة الأموية.

ثورة الصفرية

الصفرية جماعة من ممثلى المعارضة الاسلامية. فقد قامت الدولة الأموية والمعارضة تحيط بها من كل جانب. ولم تكن المعارضة حزبا واحدا وإنما كانت عناصر وأحزابا كثيرة. ومن أحزاب المعارضة الحزب الشيعى وهم الذين تشيعوا لعلى بن أبى طالب ورأوا أن الإمامة حق لعلى ولأولاده من بعده. وقد حارب الأمويون الشيعة واضطهدوهم وكانت لهذه السياسة آثارها السلبية فقوى الحزب الشيعى وكثر أتباعه وتحول إلى العمل فى السر.

ثم حزب الخوارج الذى رفض الوراثة كأساس للحكم بل الاختيار هو الأساس لنظام الحكم وقد خرج هؤلاء الخوارج على علىّ حين قبل التحكيم بينه وبين معاوية كما خرجوا على بنى أمية لأنهم جعلوا الخلافة ملكا وراثيا، وكثرت ثورات الخوارج واستنفذت الدولة الأموية جزءا كبيرا من قواها وجهودها فى سبيل القضاء على ثورات هؤلاء الخوارج.

كما أن العصبية العربية التى أضعف الاسلام شوكتها إلا أنها ظلت كامنة فى النفوس ثم ظهرت فى العصر الأموى فكان عرب الشمال العدنانية المضرية فى ناحية وعرب الجنوب اليمنية القحطانية فى الناحية الأخرى. هذا فضلا عن أن عرب الشمال أنفسهم ينقسمون بدورهم إلى قيسية وربيعية وكان معظم اليمنيين فى الشام فى عهد بنى أمية وكانوا مناصرين لبنى أمية.

وكانت القيسية فى جانب المعارضة للأمويين غالبا وكان الولاة يميلون إلى هؤلاء مرة وإلى أولئك مرة أخرى مما أشعل نار العصبية بين القبائل

العربية فى العاصمة وفى الأمصار البعيدة فى المشرق وفى المغرب. وظهر ذلك جليا فى أخريات الدولة الأموية وكثيرا ماأشعلت الحروب بين القبائل.

كذلك حدث فى بلاد المغرب حين وجد أهل البلاد من البربر الذين أسلموا أن العرب لم يحسنوا معاملتهم وخرجوا عن تعاليم الإسلام فى سبيل جمع الأموال بغير حق ظهرت القومية البربرية، وامتلأت قلوب البربر بالحقد على الحكام العرب، فلجأوا إلى أحزاب المعارضة وكان منها الصفرية.

لقد عملت جماعة الصفرية على بث عقيدتهم فى نفوس البربر التى كانت ممهده سياسيا واقتصاديا لقبول دعوة الخوارج، فأخذت غالبية بطون زناته بدعوة الصفرية، وتحول إليهم بنو دمر وبنو واسين كما أخذت بعض بطون مغراوه وبنو يفرن الذين أخذوا مبدأ الصفرية بقوة وتملكت من نفوسهم وقبلتها غالبية زناته وصاروا صفرية.

لقد كان خروج البربر على الولاة الذين خالفوا تعاليم الاسلام، ولم يسقطوا الجزية عمن أسلم وفى عام ١٢٢هـ/٧٤٠م ثارت زناتة وتزعمهم ميسرة المطغرى واتجهوا إلى طنجة واستولوا على مقاليد الحكم فيها وأعلنوا ميسرة خليفة ولقبوه بأمير المؤمنين ثم اتجهوا بعد ذلك إلى بلاد السوس ثم دارت المعارك بين جيوش الدولة الاموية وبين الزناتيين. وبعد معارك طاحنة قتل خلالها ميسرة وتولى مكانه خالد بن حمود الزناتى الصفرى وفى عام ١٢٣هـ/٧٤٠م وقع القتال بين جيوش الأمويين وخالد الزناتى انتصرت فيها جيوش خالد الزناتى على العرب وبلغ ذلك الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) فأقسم ليغضبن غضبة

عربية وليبعثن لهم جيشا أوله عندهم وأخره عنده. ووقع القتال بين العرب وخالد بن الزناتي عند وادى نهر سبو في موضع يقال له بقدوره وانتهت المعركة بانتصارخالد الزناتي وهزيمة العرب.

وكان من أسباب هزيمة العرب الخلاف الذى دب بين الجند الشامى وعرب أفريقيا من اليمنيين وهو الصراع القديم بين قيس ويمن وكان من أسباب ضعف الدولة الأموية فضلا عن براعة خالد الزناتي الحربية في قتاله مع العرب.

لقد خرج المغرب الأقصى من سلطان الخلافة وصار الحكم لزناته.

ثم تولى حكم المغرب كلثوم بن عياض القشيرى الذى اتجه بجيش كبير إلى طنجة لمحاربة خالد الزناتي في طنجة ودارت معركة في جنوبها انتصر فيها خالد الزناتي ثم امتد نفوذ الصفرية من المغرب الأقصى إلى المغربين الأدنى والأوسط. وفي عام ١٢٤هـ/٧٤١م تولى حنظلة حكم المغرب وواجه حنظلة جيوش الصفرية وقد بلغه خبر خططهم الحربية لغزو القيروان فاستعد لملاقاة جيوشهم ودبر ضدهم خطته لهزيمتهم.

فقد عمد حنظلة إلى ضم أهالى القيروان والفقهاء إلى صفه وقدم لهم السلاح، وزادت حماسة الأهالى للقتال حين انضم إليهم النساء لتشجيعهم للدفاع عن المدينة وانتهى الموقف بهزيمة صفرية المغرب الأوسط.

أما أهالى المغرب الأقصى، فقد انتقلت زعامتهم إلى أبى قرة المغيلى، الذى شارك في القتال في القيروان حين هاجمت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان في عام ١٣٩هـ/٧٥٦م واستولت عليه واستحلوا المحارم بها

فعارضتها زناته طرابلس وهوارة وتزعم أبو الخطاب عبد الأعلى المعافرى إمام الأباضية وزحفوا معا إلى القيروان فى عام ١٤١هـ/٧٥٨م وهزموا ورفجومة ونفزه وولى أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم على مدينة القيروان وعاد إلى طرابلس مع بطون زناته.

ثم يهزم والى القيروان العباسى الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافرى فى معركة فاصلة ، فينسحب عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس بها دولته الرستمية الأباضية فى تاهرت.

أما أبو قرة فقد انسحب من المعركة ليكون إمارة صفرية مستقلة فى تلمسان، ثم يأتى أحد زعماء الصفرية من اتباع ميسرة الصفرى وهو أبو القاسم سمكو بن واسول فينشئ للصفرية دولة فى سجلماسة بدلا من طنجة وذلك فى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م.

بنو مدرار:

بعد فشل حملة الصفرية العسكرية على القيروان أجمعوا على أن يجعلوا من سجلماسة عام ١٤٠هـ/٧٥٧م مقرا لهم لبعدها فى أقصى الجنوب الشرقى من المغرب الأقصى على نهر زيز، ويصعب الوصول إليها لوعورة مسالكها، واختاروا عيسى بن يزيد إماما لدولتهم بعد مارشحه أبو القاسم سمكو ودعا قومه لطاعته وبايعته الصفرية فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واهتم بالزراعة وبالنخيل ونمت الدولة وكثرت خيراتها وخاصة بعد اتساع تجارتهم مع السودان.

وفى عام ١٥٥هـ/٧٧١م قام المكناسيون بتنحية عيسى بن يزيد وبايعوا

أبو القاسم سمكو بن واسول ولقبه مدرار الذى ظ فى الحكم حتى عام ١٦٧هـ/ ٧٨٣ م وتوراثه أبناءه فلقبت الدولة باسم بنى مدرار، وجعل من مبتدأ الدولة عدم الثورة على الخلافة، فإن الصفرية تعد فى الحقيقة من السنة [1] ولذلك فقد كانوا حلفاء طبيعيين للخلافة.

وفى عام ١٦٧هـ/٧٨٣م تولى إلياس بن سمكو الإمامة وظل بها حتى عام ١٩٤هـ/٩٠٨م فتولى مكانه اليسع بن أبى القاسم سمكو بعد خلعه من الإمامة وشيد اليسع سور سجلماسة واختط القصور والدور والأسواق فأكمل بناء سجلماسة وقويت الدولة فى عهده. واتسع العمرا، وشقت الترع وغرست الأشجار المثمرة، وكثر العمران بها وجذبت بذلك جماعات الصفرية من مختلف الأنحاء للإقامة بها.

وفى عام ٢٠٨هـ/٨٢٣م تولى ابنه مدرار بن اليسع إمامة الصفرية بعد وفاة أبيه الذى صاهر بابنه مدرار للحاكم الرستمى عبد الوهاب فى إبنته أروى فتوثقت العلاقة بين الدولتين الصفرية والرستمية فى الجزائر ثم أنجب مدرار ولدان يدعى كل منهما مأمونا أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجته بقية الذى عرف بميمون بن بقية.

ولما كان مدرار المنتصر يفضل ابنه من أروى الرستمية عهد إليه بولاية العهد مما تسبب فى صراع فى أسرة بنى مدرار دام ثلاث سنوات فاضطر مدرار إلى خلع نفسه من الإمامة وعهد إلى ابن الرستمية بالإمامة ونفى ابن بقية من سجلماسة فأغضب بذلك شيوخ الصفرية الذين رفضوا ازدايد نفوذ الأباضية فى بلدهم ، كما أن ابن الرستمية خلع نفسه من

---

(١) دكتور جمال الدين الشيال، تاريخ الدولة العباسية ، صـ ٧٦ ط. دار الكتب الجامعية ١٩٦٨ .

الإمامة، فأعادت الصفرية مدرارا إلى إمامتهم. ولما عاد مدرار المنتصر إلى إعادة ابن الرستمية إلى الحكم قاموا بتولية ميمون ابن بقية فى عام ٢٢٩هـ/ ٨٤٣ م ولقبوه بالأمير وبقى فى حكم البلاد حتى وفاته فى عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م.

ثم انتهى أمر الدولة الصفرية المدرارية بعد ظهور الفاطميين ودخولهم سجلماسة فى عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م .

الأدارسة:

الدولة الادريسية (١٧٢-٣٦٣هـ/٧٨٨-٩٧٤م) قام العلويون فى عام ١٦٩هـ/٧٨٥م بثورة كبرى فى المدينة يطالبون بالخلافة لأنفسهم وكان من بين الثائرين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي.

ولما أخمدت الثورة وقتل معظم القائمين بها فر إدريس إلى مصر ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى، ونزل إدريس ومعه مولاه راشد فى مدينة وليل بجبل نزهون فى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م وبايعته قبيلة أوريه وزعيمها اسحق بن محمد. ثم انضمت إليه قبائل زواغة ولواته وغماره ونفزه ومكناسه، وهكذا التقى الناس حول راشد الذى ظهر بزى التجار وادعى أنه السيد إدريس خادمه، إضفاء الشخصية إدريس وقام راشد يدعو لأمير علوى يرفع راية التوحيد الاسلامية ليخلص الناس من الظلم ويعيدهم إلى الطريق القويم.

بدأ إدريس يدعو لنفسه بين القبائل فى وليل الذين نظروا إليه باعتباره من آل البيت النبوى يهديهم إلى طريق الحق ويقيم لهم دولة تحميهم وتكون

سندا قويا لهم. ثم اسندت شيوخ القبائل إلى إدريس حكم وليلى الذى سعى إلى مد سلطانه حتى أنه لم يمض غير قليل إلا وقد اتسع نفوذه إلى أماكن كثيرة فى المغرب الأقصى.

ولما وصلت أخبار إدريس إلى الخليفة العباسى الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) وأدرك أن بعد المسافة بينه وبينهم قد تكون عائقا للوصول إلى تحقيق أغراضه فى القضاء عليه لجأ إلى تدبير خطة للتخلص منه، فبعث إليه من يدس له السم وتوفى إدريس فى عام ١٧٥هـ/٧٩١م بعد حكم دام ثلاث سنوات. واستطاع راشد مولى إدريس أن يعمل على استقرار الأوضاع فى الدولة الإدريسية، وعقد إتفاقا مع شيوخ القبائل على رعاية زوجة إدريس التى كانت حاملا حتى تلد، فلما أنجبت ولدا لإدريس اسمته باسم أبيه إدريس، وصار راشد وصيا على إدريس الثانى حتى بلغ العاشرة من عمره. ثم أسند إليه حكم الدولة فى عام ١٨٦هـ/٨٠٢م.

قام راشد برعاية إدريس فتعلم القرآن وحفظه ودرس الحديث وعلوم اللغة وسير الملوك وأخبارهم وأيام الناس ودرب على ركوب الخيل وجعله فى خير حال.

ولما أدرك ابراهيم بن الأغلب ان راشد هو الموجه الحقيقى الذى يعمل على تقوية دولة الأدارسة وتنميتها عمد إلى التخلص منه، ونجح الأغالبة فى خطتهم إلا أن الأدارسة سرعان ماتداركوا الموقف فولوا أبو خالد يزيد بن الياس العبدى أمور الدولة فقام بمهمته خير قيام حتى قويت الدولة الإدريسية. بعكس ماكان يهدف إليه الأغالبة، وقد ساعد استقرار الدولة

ونموها الاقتصادى على جذب جماعات من العرب. ورحب إدريس بهم وقربهم إليه وأحسن إليهم حتى صاروا بطانة لإدريس .

ولما قوى شأن إدريس الثانى إختار مصعب بن عيسى الأزدى وزيرا له، كما تخلص إدريس من اسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربه لما علم بإتصاله بأعدائه الأغالبة.

ثم قام ببناء مدينة فى موضع قريب من عاصمة دولته وليل، وكانت مدينة فاس التى شرع فى بنائها فى عام ١٩٢هـ/٨٠٧م فى موقع يقع بين جبلين على ضفتى نهر فاس وقد سمى هذا الجزء من مدينة فاس باسم العدوة الأندلسية. وذلك بعد هجرة الأندلسيين ثوار الحى الربض فى عهد الحكم بن هشام الأموى الذين نزلوا بفاس فسميت باسمهم.

تم شرع إدريس فى بناء الشطر الثانى من مدينة فاس فى العام التالى وسمى بعدوة القرويين (المغاربة) وحول إليها ادارة الدولة وجعلها مقرا له وصارت مدينة فاس تشمل العدوتين.

ثم قام إدريس بعد ذلك بغزو قبيلة مصموده التى خضعت لسلطانه واستولى على أغمات فى عام ١٩٧هـ/٨١٢م ثم اتجه إلى الصفرية فى تلمسان ودخلها صلحا وقام بإدارة المدينة وأصلح من أحوالها . ثم امتد سلطان الدولة الإدريسية غرب الجزائر إلى نهر شلف ولم يواجه الأدارسة مقاومة من أحد.

ويعد بحق إدريس الثانى مؤسس دولة الأدارسة فقد تغلب على خطر الدولة الأغالبية، وبسط سلطانه على البربر ثم مد سلطان دولة الأدارسة

عبر جبال أطلس الأعلى فى جنوب مراكش حتى درعه فضمن لدولته الوصول إلى موانى المحيط الأطلسى. كما سيطر على مضيق جبل طارق وسبته.

كما أمدت الدولة الإدريسية فى عهده إدريس الثانى سلطانها عبر جبال منيعه إلى الصحارى الواسعة فى الجنوب. وعمل على نشر الاسلام بين القبائل البدائية المحتمية بتلك الجبال.

وفى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م توفى إدريس الثانى وخلفه من بعده أبناؤه الذين اقتسموا البلاد بينهم فتفرقوا وضاعت وحدةالدولة وصارت البلاد إلى مستوى من الضعف فدخلتها جيوش بنى أمية الأندلسية والشيعة الفاطميين حتى صارت جزء من الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا. ثم خرجت من قبضة الفاطميين إلى الأمويين الأندلسيين وظل الحال كذلك حتى انتهى سلطان دولة الأدارسة فى بلاد المغرب الأقصى فى الربع الأخير من القرن الرابع ا لهجرى العاشر الميلادى.

المرابطون

المرابطون هم صنهاجة الجنوب الملثمون ، اتخذوا اللثام على وجهوهم وصار شعارا لهم ، عاشوا فى صحراء المغرب الأقصى والمناطق المدارية حتى السنغال إلى بلاد السودان.

يعيشون على الأنعام يركبوها فى تنقلاتهم ويتغذون من ألبانها ولحومها.

ومن أهم قبائل صنهاجة اللثام كداله والمتونه ومسوفه دخلوا الاسلام

فى القرنين الثانى والثالث الهجرى الثامن الميلادى والتاسع أيضا، وحملوا رايته ونشروا دعوة التوحيد بين القبائل فى الجنوب حتى بلاد السودان.

وفى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ظهر من بين صفوفهم الأمير يحى بن ابراهيم الجدالى الذى عرف بالتقوى والصلاح وبعد النظر ورجاجة العقل مما يؤهله لأن يحمل رسالة الإصلاح بين القبائل.

وقد دفعه طموحه الدينى لأن يعمل على توحيد صفوف القبائل الصنهاجية ويدفعها إلى المجاهدة والنضال بين القبائل المغربية فى جميع الأنحاء.

بدأ يحيى بن ابراهيم رحلة البحث عن أصول الدين وفى دعوته اتجه إلى القيروان فى عام ٤٢٧هـ/١٠٣٥م وتقابل مع آل عمران الفاسى وتلقى منه العلم ثم طب منه أن يرشح من تلاميذه فقيها يصحبه إلى بلاده ليعمل على نشر الدين بين صنهاجة اللثام ويهديهم إلى طريق الصلاح.

ووجه ابن عمران الأمير يحى إلى أحد تلامذته وهو وجاج بن زولو من فقهاء المغرب الأقصى ليختار أحد تلاميذه ليرافق الأمير يحى إلى بلاده ليعلم الناس الدين الصحيح.

وتقابل الأمير يحى مع الفقيه المالكى وجاج فى سجلماسة واختار وجاج الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى الصنهاجى الأصل ليرافق الأمير يحى الجدالى فى رحلة العودة .

عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير على الصنهاجي اللثامى سافر إلى بلاد الأندلس فى عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م فى عهد ملوك الطوائف وتلقى العلم من أئمة العصر وأعلام الفكر ثم عاد إلى المغرب الأقصى وقابل فقيه السوس وجاج اللمطى العالم الزاهد ثم رحل عبد الله بن ياسين إلى لمتونه قبائل صنهاجة اللثام فأعجبوا به والتفوا حوله ثم رأوا أنه يحرض عبيدهم عليهم بدعوته إلى المساواة بين البشر، ووجدوان أن وجودهم فى خطر بسبب دعوة عبد الله بن ياسين لتحرير العبيد انفضوا من حوله، بل أكثر من هذا عزلوه وأبعدوه عن ديارهم.

ولما لم يجد استجابة من سامعيه وانصرفاهم عنه عمد إلى اللجوء إلى جزيرة فى مصب السنغال فى رباط يتعبد فيه بتشجيع من يحى أمير جداله فسمع به الناس والتفوا حوله وكثر عددهم أولئك الذين يملأ الإيمان قلوبهم وصاروا قوة يعتد بها الفقيه بوجودهم حوله وقد صحبه الأمير يحى فى رباطه حتى توفى فى عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وبقى عبد الله فى رباطه حتى بلغ عدد مريديه الف فاجتمع بهم وأمرهم بالجهاد فى سبيل الله قائلا لهم : «اخرجوا فأنتم ا لمرابطون».

وهؤلاء المرابطون الملثمون صاروا جيشا يدافع عن الحق ويحمل الناس على الاستقامة واتباع الحق.

دولة المرابطين (٤٤٨ـ٥٤١هـ/١٠٥٦ـ١١٤٧م)

خرج عبد الله بن ياسين هو وعمر اللمتونى الذى خلف ابراهيم الجدالى ـ وعارض جداله تعصبا فلم يأبه عبد الله للمعارضة واتجه وجماعة من المرابطين إلى غانة جنوبا واستولوا على أودغشت ودخلت غانة فى الاسلام

ثم اتجهوا إلى السودان وتوفى يحى بن عمر اللمتونى وخلفه أخوه أبو بكر عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وخضعت جداله لعبد الله كما خضعت لمتونه من قبل وصارت غانه وجداله ولمتونه فى طاعة المرابطين.

أصلح عبد الله أحوال هذه البلاد وقضى على المنكر وألغى الضرائب ثم اتجهوا إلى الشمال واستولوا على درعة وسجلماسة واقليمها.

ثم بدأ المرابطون يتجهون إلى بقية القبائل الملثمة لتوحيدها فى سبيل الجهاد، فانضمت إليهم مسوفه ولمطه وجزوله.

وفى عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م تمكن المرابطون يقودهم أبو بكر اللمتونى وعبد الله بن ياسين من فتح مدينة ماسة على المحيط من بلاد السوس.وقضوا على دعوة الرافضة. ثم اتجهوا الى الشمال واستولوا على أغمات ثم اتجهوا إلى برغواطه فى ساحل المحيط فى سلا باقليم فاس وانفه وآزمور فى تامسنه وآفى فى اقليم وكالة، وحاربوا الصفرية وهزموهم واستشهد عبد الله بن ياسين فى عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م.

حقق الزعيم المرابطى أهدافه بعد الانتصارات التى تمت وانتشرت فى جميع الأنحاء فتوحات المرابطين. وتمت حركة مقاومة الفساد وصلحت أحوال البلاد والعباد وكثرت جموع الملثمين الذين انضموا لجموع المرابطين فقوى المرابطون المجاهدون واستطاعو أن يواصلوا الحملة إلى أبعد مايستطيعون.

لقد تمكن المرابطون من إخضاع غانة وجداله ولمتونه فارتفع بذلك شأن المرابطين أولئك الذين جاهدوا لإحياء الدين الحق ونشر الفضيلة، ووأد

الفساد ورفع راية العدل فى جميع أنحاء المغرب.

لقد تحولت جموع تلك القبائل البدوية من التفرق والتخلف إلى جنود منظمة متحدة تدافع عن الاسلام وتبذل فى سبيل ذلك أرواحها.

لقد ألغى عبد الله بن ياسين الضرائب غيرالعادلة التى تنافى ماجاء فى الكتاب والسنة وحل محلها الزكاة والأخماس والأعشار، طالب الأغنياء بمراعاة الفقراء وخصصت لبيت المال عمالا يسهرون على المراقبة والمحاسبة حرصا على صيانة أموال المسلمين ونشر العدل ورفع الظلم فى أنحاء المغرب، وهو يواصل فى نفس الوقت الاشتغال ببث الدعوة بين اتباعه حتى ظهر من تلاميذه الذين عرفوا بإنكار الذات ولم يحفلوا بالمآرب الفردية فطهرت نفوسهم من أدناس الأنانية وحب الذات، ووطدوا أنفسهم على الإيثار والعمل لخير المجتمع، منهم لمتاد بن نصير اللمتونى فقيه الصحراء وميمون بن ياسين الصنهاجى.

بعد استشهاد عبد الله بن ياسين فى بلاد السوس وهو يقاوم الجماعات الخارجة على الجماعة واصل أبو بكر الجهاد ضد تلك الجماعات حتى قضى عليهم.

ولما بلغه أن خلافا وقع بين قبيلة لمتونه ومسوفه بالصحراء أسرع إليهم فى عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م لإصلاح أحوالهم وندب ابن عمه يوسف بن تاشفين ، ليحل محله بالمغرب الأقصى، وجاهد أبو بكر فى بلاد السودان حتى استشهد فى عام ٤٨٠هـ/١٠٧٨م وتابعه خلفاوه من بعده فى الجهاد فى الجنوب.

أما فى الشمال فقد تولى قيادة الشمال يوسف بن تاشفين ذلك البطل الشجاع المجاهد فى سبيل الله الذى أسس مدينة مراكش عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م فى السهل الذى يقع شمالى أغمات وجعلها عاصمة للدولة، وعمرها ببناء المسجد الجامع وأعقب ذلك البناء المخصص لإدارة شئون الحكم. وماإلى ذلك من مدارس وحمامات.

ثم بدأ ابن تاشفين يزيد من عدد جيشه حتى بلغ عدد الجيش المرابطى مائة ألف مقاتل من صنهاجة وفى عام ٤٦٠هـ/١٠٦٧م استولى على غمارة مرورا بمنطقة الريف إلى طنجة ثم أعاد فتح فاس عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م للمرة الثانية. ثم توالت فتوحات المرابطين فى بلاد المغرب الأقصى ثم استولى على طنجة عام ٤٧٠هـ/١٠٧٧ واستولى على تلمسان فى عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م.

ثم اتجه المرابطون إلى بلاد المغرب الأوسط واستولوا على الجزء الغربى من بلاد الجزائر، كما استولوا على ميناء سبته بالمغرب الأقصى فى عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م . ومنح يوسف بن تاشفين نفسه لقب أمير المسلمين، وأعلن تبعيته للخليفة العباسى فى بغداد وطبع اسمه على السكة فى عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م خلفا للأمير أبى بكر.

كما عمل يوسف بن تاشفين على اصلاح الأحوال الاقتصادية فرفع الضرائب وعين عمالا على البلاد من ذوى السمعة الطيبة الذين عملوا على نشر الأمن والعدالة فى البلاد وعين لكل حاكم فقيها برتبة مستشار حتى لايحيد أحد عن الشريعة الإسلامية فى احكامه.

وبعد أن تم للمرابطين سيادتهم على الصحراء فى جنوب المغرب

الأقصى وبعد أن اتجهوا إلى الشمال وتم لهم النصر على الزناتيين وبسطوا سلطانهم عليهم وأصبح المرابطون سادة المغرب بعد صراع دام عشرون عاما.

وبينما كان أمر المغرب يقوى كانت الأندلس تعانى من مرارة الخلافات الداخلية مما أضعفها أمام الأسبان فى عهد ملوك الطوائف الذين استنجدوا بجيوش وأساطيل يوسف بن تاشفين الذى زحف عبر البحر إلى الأندلس والتحم مع الأسبان فى حروب وهزمهم فى معركة الزلاقة الشهيرة التى غيرت وجه تاريخ الكفاح العربى فى أسبانيا. ودانت الأندلس كلها للمغرب وأصبح المرابطون الدرع القوى الذى أخر زحف الأسبان وزحزحه نحوالشمال.

وتولى الأمر بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين ثم فى مراحل تالية تزعزع ملك المرابطين فعاد الأسبان إلى التقدم فى أرض الأندلس مرة أخرى ونبتت فى المغرب حركة أخرى هى حركة الموحدين.

الموحدون: ٥٤٢ـ٦٦٨هـ/ ١١٣٠ـ ١٢٧٠م

قامت دولة الموحدين لتحكم البلاد المغربية والأندلس بعد ماغاب سلطان دولة المرابطين وانزوى.

أقام الدولة الموحدية أبو عبد الله محمد بن تومرت من هرغة إحدى بطون مصموده بالمغرب الأقصى فى السفح الجنوبى لجبال أطلس وفى السهول وتعرف بجبال درن ولمصموده بطون أهمها هرغة وهنتانه وتينملل ودكاله وهيلانه ويشكلون غالبية المغرب الأقصى.

ولد ابن تومرت عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م لأسرة تعيش فى قرية من قرى هرغة على سفح جبل اجليز. قضى حياته فى حفظ القرآن، وحضر حلقات الدرس فى بلدته ثم فى مراكش وفى نحو العشرين من عمره رحل إلى الأندلس عام ٥٠٠هـ/١١٠٧م ونزل فى قرطبه ثم اتجه إلى المشرق ونزل الاسكندرية وتتلمذ على الطرطوشي كما تتلمذ على غيره من الأندلسين والمغاربة وكان منهج الطرطوشي وهو الورع والتقوى والتمسك الشديد بأهداب الدين ووسيلته هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى عنف وصرامة

وقد أخذ تلاميذه بهذا ا لمنهج وهذه الوسيلة وكان أثره فيهم قويا وواضحا. ونادى بن تومرت بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأخرج من المدينة وركب البحر متجها إلى الغرب. وفى هذه الرحلة كسر جرات الخمر التى على السفينة، وعندما ارتفع الاذان للصلاة لم يجد من يهتم بالتوجه لأداء الصلاة فدعاهم إلى الصلاة وهم ينظرون إليه ويهزون أكتافهم ولما هبت عاصفة بحرية وارتبك ركاب البحر قام ابن تومرت يدعو، فهدأت فكأن الله قد استجاب لهذا الرجل الصالح الدعاء. وتمت الرحلة البحرية بسلام.

وابتدأ ابن تومرت وكأنه في نظر من حوله من الركاب وليا صالحا مستجاب الدعوة. فكان إذا تكلم أصغوا إليه وصار ملء العيون والأسماع. ونزل في طريقه بالمهدية ،وهناك أعاد الكرة فكسر ماراه من آلات اللهو وأوانى الخمر، ثم لما اتجه غربا إلى بلاد المغرب وكان قد ظهر معجبون التفوا حوله وظلوا برفقته وقد اطمأنوا إليه.

ومن هؤلاء الحـاج يوسف الدكـالى والحـاج عـبـد الرحـمن أبو بكر الصنهاجي ويكنى بالنيذق بمعنى الجندى فى مباراة الرياضة الذهنية، وقد قام البيذق بتسجيل تحركات ابن تومرت الذى فيما كتبه عن استاذه أن الطلبة المغاربة اجتمعوا عند ابن تومرت ليستمعوا إلى مايلقى من دروس وعظات، وقد استعان فى عظاته بأسلوب الترغيب والترهيب الذى جذب إليه الكثير من الشباب.

ولما انصرف ابن ترمرت من تونس متجها إلى قسنطينه ثم إلى بجاية عاصمة الدولة الحمادية، وتقابل مدينتى تونس ومراكش فضلا عن مرونة الحكام فى معاملة الأهالى بالرفق فى حدود الشريعة المحمدية.

وفى مسجد الريحانة كان مقام ابن تومرت . ثم اخذ يعدو فى أسواق المدينة يدعو الناس إلى اتباع السنة وعدم الخروج عنها. ثم اتجه إلى ملاّله واستقر فى زاوية بها واشتغل بالتدريس والعبادة وينطلق أحيانا إلى الطريق متجها إلى شجرة خروب، يتأمل كيف يمكنه أن يهدى الطالبين من أمة محمد إلى الرشاد وقد كثرعدد المارقين، غير الملتزمين.

وكان كأنه يقرأ الغيب وماتخبئ له الأيام من مستقبل باهر. ثم ظهرت شخصية عبد المؤمن الخليفة الموحدى المنتظر، تلقى عبد المؤمن تعليمه ى تجرا ثم ذهب إلى جامع تلمسان ليكمل تعليمه ثم عقد العزم على الرحيل إلى المشرق ليواصل تعليمه هناك، ومات أبوه وتزوجت أمه ورافقه عمه للاتجاه إلى بجاية فى الاتجاه إلى المشرق.

سار عبد المؤمن برفقه عمه إلى هدفه الذى حدده لنفسه. ونزلا فى بلاد متيجة لأيام ثم واصلوا الرحلة إلى بجاية فى مسجد الريحانه، ثم

انحرف عن قصده واتجه إلى ملاله رغبة منه فى سماع أخبار الفقيه السوسى عالم المشرق والمغرب، كما أطلق على ابن تومرت. فعبد المؤمن سمع وهو بالمسجد مناجاه لبعض المصلين يتكلمون عن الفقيه، فأراد أن يستمع إليه. وهذا مادفعه إلى أن يغير من خط سيره الذى كان قد عقد العزم على السير فيه. وقد سار عبد المؤمن وحده، ثم تقابل التلميذ والأستاذ، عبد المؤمن وابن تومرت. وطلب ابن تومرت من عبد المؤمن أن يبقى بالمغرب ولايبرحه إلى المشرق قائلا له: «العلم الذى تريده بالمشرق قد وجدته بالمغرب».

ثم طلب منه أن يقيم معه الليل فى ملاله. فلما كان منتصف الليل أطلع ابن تومرت عبد المؤمن بأن أمر الدين يقوم بعبد المؤمن، سراج الموحدين، وأعطاه كتابا وتنبأ له ولاتباعه بالخير والبركة. والويل لمن خالفوك ونصحه بكثرة الذكر فينال العصمة والأمان.

وهكذا كشف ابن تومرت لعبد المؤمن عن الدور الذى سيقوم به وبقى عبد المؤمن شهورا كثيرة فى ملاله.

وأخيرا أصدر ابن تومرت تعليماته بالرحيل فانطلقت الطاقة الموحدية إلى طريقها المرسوم.

وفى عام ٥١٥هـ/١١٢١م بلغ أتباع ابن تومرت أعداد كبيرة بايعته أنه المهدى. وأخذ ابن تومرت ينظم أتباعه فى طبقات. فأول طبقة أهل عشرة ثم صحابته ويليهم أهل خمسين. وسمى حفظة المذهب وفقهاءه الطلبة أى الدعاة. وسمى أهل دعوته «الموحدين».

وفي عـام ٥٢٢هـ/١١٢٨م توفى المهـدى ثم أعلن أتبـاعـه مـوتـه بعـد البـيـعـة لعـبـد المؤمن من كـافـة المرحـدين في مـدينة تينملل عـام ٥٢٤هـ/١١٢٩م باسم خليفة ابن تومرت.

ولم يلبث أن أبعـد في الغـزوات في منطقـة تادله واسـتـولى عـام ٥٢٦هـ/١١٣١م على درعه وتسابق الناس في المغرب إلى دعوته.

عبد المؤمن علي (٥٢٤هـ-٥٥٩هـ/١١٣٠-١١٦٣م)

تولى عبد المؤمن بن على خلافة الدولة الموحدية وقضى على الدولة المرابطية، وعمل على بسط سلطان الموحدين على بلاد المغرب. واستولى الموحدون على تلمسان في عام ٥٤١هـ/١١٤٦م.

وتتابعت سقوط المدن وكذا العاصمة مراكش. أما في بلاد الأندلس فقد ظهر عصر الطوائف الثاني.

وفي عـام ٥٤٣هـ/١١٤٨م اسـتـولى ريموند صـاحب برشـولونه على طرطوسه وعلى لارده وإفراغ وقاوم أهل بلنسيه ومرسيه الموحدون إلى عام ٥٦٨هـ/١١٧٢م ثم اذعنوا للموحدين.

وخضعت للموحدين أشبيله وغرناطه واسترد الموحـدون المرية من الفونسو. وتوفى الفونسو حزينا بعدها.

وفي ظروف مواتية حين ظهر الصراع بين القبائل العربية الهلالية ودولتي بني زيرى في القيروان والقلعة مما أضعف الدولة وصار نفوذها إسميا. هاجم النورمانديون بعض ثغور أفريقيا من صفاقس وسوسة إلى المهدية واستقل بعض شيوخ القبائل ببعض النواحي.

ثم هاجمت جيوش الموحدين المغرب الأوسط بقيادة عبد المومن بن علي في عام ٥٤١هـ/١١٤٦م فقابل عرب الأثبج وجشم وأعلنوا ولاءهم فعقد لأبى الخليل بن كسلان شيخ الأثبج ولحباش بن مشيفر شيخ عرب جشم واستولى على بجاية ثم اتجه إلى أفريقيا.

وفى أفريقيا تحالفت صنهاجة مع جيرانهم وقاموا بالهجوم على مدينة باجه واستولوا عليها. فبعث إليهم عبد المؤمن بجيش يقوده عبد الله بن عبد المؤمن بلغ ثلاثين ألف مقاتل وفى عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م تقابل الموحدون والعرب فى ناحية سطيف وظلت الحرب أربعة أيام انتهت بهزيمة العرب وسقوط أموالهم وأولادهم ونسائهم غنيمة للموحدين.

وبعث عبد المؤمن بنساء العرب وأولادهم إلى مراكش فى الحفظ والأمان وفى رعاية الموحدين وعنايتهم، فاجتمع أمراء العرب واتجهوا إلى عبد المؤمن بمراكش فرحب بهم وأعاد عبد المؤمن نساءهم وأولادهم ليضمهم إلى صفه ورجعوا جميعا لبلادهم سالمين.

وفى عام ٥٣٣هـ/١١٣٨م هاجم الموحدون المهدية ثم عملوا على تصفية الإمارات العربية التى خرجت على بنى زيرى واستولوا عليها جميعا. وخضعت لهم كل أفريقيا واستولوا من النورمان على كل ماكان بأيديهم من مدن الساحل فى طرابلس بأفريقيا.

وأصبح سلطان الموحدين يمتد من برقة حتى تلمسان فى المغرب الأقصى. ولما حاول عبد المؤمن ضم العرب الهلالية لم يجد منهم الحماس فأخرج منهم الفا من كل قبيلة ونقلهم إلى المغرب لإضعاف شوكتهم فى أفريقيا وللإستعانة بهم فى حروبه ضد الفرنج فى بلاد الأندلس.

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يوطد عرشه بالمغرب بعد أن هزم الخارجين عليه وصارت دولة الموحدين من الشرق إلى ماوراء القيروان. وبلغ إتساع دولة الموحدين إلى أبعد مدى. فصارت تحدها من الجنوب الصحراء الكبرى ومن الغرب المحيط الأطلسى ومن الشرق صحراء لوبية ومن الشمال البحر المتوسط والبلاد الأندلسية. كما بعث عبد المؤمن بولده أبى يعقوب يوسف إلى الأندلس.

وبدأ عبد المؤمن فى تنظيم دولة الموحدين فألغى النظم الحربية المرابطية العسكرية لصرامتها الشديدة واطلق حرية الفكر للعلماء. وجعل مراكش عاصمة الدولة وأقام بها المساجد والمدارس وأغدق عليها حتى صارت مراكز للعلوم والمعارف ونظم الإدارة وعلوم الدين.

واهتم عبد المؤمن بلقاء الطلبة وتابعهم بنفسه فيما يلقوه وشجعهم ورغبهم فى حبهم للناس.

وكذلك اهتم بنشاطهم الحربى فى المبارزة والفروسية والسباحة وكان يدربهم فى بحيرة بجوار قصره و تابعهم على أساليب القتال فى البحر وشؤنه وأثار فيهم الحماس بتقديم الجوائز للمتفوقين منهم.

وأسند عبد المومن إلى هؤلاء مناصب الدولة الهامة وأنشأ لهم نظاما جديدا حاز عنده الثقة وتوطد بهم سلطان الموحدين. وجعله ملكا وراثيا لأسرته وجمع الولاة ومشايخ القبائل من جميع الأنحاء وعقد معهم مجلسا فى عام ٥٤٩هـ/١١٥١م أسند ولاية العهد لولده الأكبر محمد وذكر إسمه فى خطبة الجمعة. ثم عين بقية أولاده على بعض الولايات وجعلها وراثية فى عقبهم وعين مع كل واحد حاكما واثنين من الكتبة.

أما ولده أبو يعقوب يوسف فعين معه أبا زيد بن بكيت واختار أبا حفص لولاية سبته وطنجة وبعض ثغور الأندلس وأبا محمد عبد الله لولاية بجاية وأبا الحسن لولاية فاس وأبا يعقوب يوسف لولاية الأندلس وأشبيلية وماإليها من المناطق.

هذا وقد احتفظ عبد المؤمن لنفسه بالقيادة العليا ليحول بين الطغاة والمستبدين من التفرد بالشعب ومع ذلك فقد وقعت المخالفات من بعض الحكام ولم يكن بوسع عبد المؤمن التصرف فيها حيث كانت تصله أخبارها بعد وقوعها ولكنه كان يوقع العقاب على من أساء التصرف من الحكام.

واتبع عبد المومن سياسة الرفق وحرية الرأى وسمح بتداول الكتب التى سبق حظر كتابتها أو نشرها وحتى الكتب المعارضة سمح بتداولها والرد عليها فى نفس الوقت.

كما اهتم عبد المومن بتنظيم شئون الحرب والجهاد فى حروبه مع النورمان، وحين استيلائه على تونس والمهدية وطردهم منها.

بلغ عدد الجيش الموحدى فى إحدى معاركه ضد النورمان ستين ألف من المشاه فضلا عن الفرسان وقسم الجيش إلى أربعة أقسام يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم.

ويبدأ الجيش سيره بعد صلاة الصبح قبل شروق الشمس وحتى الظهر، ويبدأ السير بعد ثلاث قرعات من طبل ضخم من خشب رنان يسمع من مسيرة يوم.

وكل قبيلة تحت علمها الخاص. ثم يتوقف الجيش استعدادا للسير فى

اليوم التالى، وذلك لتنظيم تموين الجيش ولإمكان التصرف والسيطرة على الجنود ويحمل العتاد من خيام وخلافه على ظهر الجمال والدواب ويقود الرعاة قطعان من الثيران والأغنام لحاجة الجند إلى الطعام.

ويحيط بعبد المؤمن من بعض الولاة والشيوخ والقادة وهم فوق ظهور جيادهم ومسلحون وجماعات الموسيقى العسكرية والولاة القضاة والوزراء والكتاب ثم يأتى الجند. ولكل مكانه ولايجوز لأحد مغادرة مكانه بالمعسكر دون إذن من القائد، ثم توزع الأقوات بالتساوى بين الجميع.

واهتم عبد المومن بالمشاة المدربة المسلحة أكثر من الفرسان إذ أن قوات المشاة هى التى تحسم المعركة عادة.

كما اهتم عبد المؤمن بجمع الضرائب من المدن فجمع المعلومات من سكان كل مدينة، وثرواتها وغلاتها لإمكان تحديد مايقرر عليها من ضرائب.

فالثغور تقدم البحارة والسفن والصحراوية تقدم الفرسان والخيل والحمير والجمال، ويقدم البعض الآخر الجند المشاة وأنواع الأسلحة. ومن توقع عليه عقوبة لسبب ما يفرض عليه ضعف ماهو مطلوب منه عادة.

كما أنشأ عبد المؤمن مصانع السلاح فصنع القسى والنشاب والخوذات والدروع والسهام وغيرها من أنواع الأسلحة الأخرى وخصص المخازن لحفظ السلاح لحين الحاجة إليه.

وفى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م انتهى عبد المؤمن من تطهير جميع الأراضى الأفريقية. ثم أعد نفسه للاتجاه للجهاد ضد الأعداء فى بلاد

الأندلس.

وفى عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م توفى عبد المؤمن وهو فى الثالثة والستين. وقد حكم ثلاثة وثلاثين سنة. وأخفى خبر وفاته حتى دخل يوسف بن عبد المؤمن إلى المغرب قادما من أشبيلية.

ازدهرت العلوم والفنون فى عهد عبد المؤمن الذى اشتهر بغزارة علمه فضلا عن شجاعته وبعد نظره وكان حاضر البديهة يتحمل المشاق والشدائد بروح عالية ويميل إلى الزهد والتقشف، غايته الجهاد ضد أعداء الإسلام وخلف امبراطورية تمتد من المحيط إلى غرب حدود مصر، ومن الصحراء الكبرى إلى بلاد الأندلس.

فتح عبد المؤمن جميع تلك البلاد خلال عشرين عاما بعد استيلائه على مراكش. وبلغت دولة الموحدين أوج عظمتها فى عهد يعقوب المنصور عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م فقد توغلت جيوشه فى أفريقيا وفى أسبانيا وخاصة معركة الأرك فى الأندلس وهى معركة شبيهة بمعركة الزلاقة وباستتباب الأمن والنظام اللذين أقرهما الموحدون اتسمت الحضارة الأندلسية بمظهر جليل فازدهرت الصناعة وشهدت القصور الوانا غاية فى الجمال المعمارى وجمال النقش والزخرفة وراجت التجارة. إلا أن إتساع رقعة دولة الموحدين وضعف الرقابة على حكام المقاطعات النائبين ساعد على تمكن تلك المقاطعات من الانفصال عن الدولة فانسحبت أفريقيا (تونس).

ثم فقدت الأندلس قوتها بعد معركة العقاب عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م وبدأ العد التنازلى لدولة الموحدين فدخلت فى دور التفكك والضعف حتى سقطت فاس فى يد بنى مرين.

وفى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م احتل بنو مرين مراكش عاصمة الدولة الموحدية فانهارت دولة الموحدين وظهرت الدولة المرينية.

دولة بنى مرين (٦٦٨-٨٧٦هـ/ ١٢٧٠-١٤٧٢م)

كان بنو مرين من القبائل الزناتيه التى لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عمومتهم بنى عبد الواد. ولهذا أثروا الهجرة إلى الصحراء جنوبا على الدخول فى طاعة الموحدين. وكانت حياة الصحراء توافقهم لأنهم من البدو الرحل. وكانوا يرحلون فى فصل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى لرعى إبلهم ومواشيهم فيقضون شهورا من السنة نازلين بين فجيج وملوية. حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم (من زاب أفريقيا إلى سجلماسة).

وفى عهد الخليفة الموحدى المستنصر دخل عبد الحق أمير بنى مرين بجموعه فى وادى تازا وشرقى وادى سبو واشتبك معه الموحدون وفى عام ٦١٣هـ/١٢١٦م فهزمهم عبد الحق وتوفى عبد الحق فخلفه ابنه عثمان الذى تمكن من إخضاع بنى رياح الهلالية وتوفى فخلفه أخوه محمد وحاربه الموحدون فى مكناسة فهزمهم وتوفى عام ٦٤٣هـ/١٢٤٩م وخلفه أبو يحى بن عبد الحق وهو الذى استطاع تأسيس دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى. فهو الذى حارب الموحدين وغزا مكناسة ثم اتجه إلى فاس ودخلها سلما، وحارب بنى عبد الواد وهزمهم فى عهد يغمراسن زعيمهم وانتصرعليهم المرينيون. ثم اسرع أبو يحى إلى فاس لنقضهم عهدهم مع بنى مرين، ولكنهم طلبوا الصفح عنهم فقبل ذلك منهم ثم اتجه أبو يحى إلى سلا والتقى مع الموحدين فيها وحقق النصر عليهم.

ثم واجه جيوش بنى عبد الواد وهو متجه إلى درعة فهزمهم وأخضع درعه لسلطان المرينيين.

وفى عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م توفى أبو يحى بن عبد الحق ثم تولى قيادة المرينيين يعقوب بن عبد الحق الذى فى عهده بسطت الدولة المرينية سلطانها على المغرب الأقصى فى عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وهو الذى دفعه إيمانه تلبية نداء الأندلس إلى الجهاد ضد أعداء الإسلام بالأندلس إلى تجهيز جيش من ثلاثة آلاف مقاتل فضلا عن كتائب المجاهدين من بنى مرين والمتطوعين من أهل المغرب وتمكن المسلمون فى غرناطة بقيادة ابن الأحمر بفضل نجدة بنى مرين لهم من مواجهة النصارى وصدهم عن أراضيها.

وازدادت الدولة المرينية قوة بعد ماصار لها اسطولا كبيرا فى دار الصناعة بمدينة سلا فى عهد السلطان أبى الحسن على.

استرد السلطان أبو الحسن على (٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٢١-١٣٤٨م) استرد جبل طارق من الأسبان بعد استيلائهم عليه فى عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م ثم أعاد فتح الجزائر وتونس عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م وقد أسس المرينيون مدينة فاس الجديدة وتطوان.

وأنشأوا المدارس والمعاهد العلمية فى جميع أنحاء المغرب وعادت بذلك البلاد التى ضاعت من المغرب إبان حكم الموحدين وحظيت المغرب بروح علمية وأدبية فى العهد المرينى.

لقد ظهر فى عهد أبى الحسن أزهى عهود بنى مرين ذلك السلطان

القدير الذى تمكن من بسط سلطانه على جميع المغرب الأقصى، مع نمو وازدهار العمران، حتى فاق حكام عصره وحظى بمكانة مرموقة.

وعرف عن أبى الحسن حبه لسماع القرآن وكان يحفظ أجزاء كثيرة منه. وقرب العلماء وبالغ فى اكرامهم واهتم بأحوال الرعية واستمع إلى شكاواهم وعمل على اصلاح الأحوال وعلى الاجتماع بزعماء القبائل من عرب وبربر ومعاونتهم فى حل مشاكلهم.

ثم اشتعلت الحروب بين بنى مرين وبنى عبد الواد، وتفقد الدولة المرينية المغرب الأوسط ويقود إلى حدودها الأولى. وبذلك تمكن الأسبان من اكتساح الأندلس باستثناء غرناطة قلعة الصمود. كما احتل البرتغاليون معظم موانى المغرب تباعا.

وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فيتولى الأمر الوطاسيون بنو واطس (٩٥٧٫٨٧٥هـ/ ١٤٧٠ـ١٥٥٠م) وهم فرع من بنى مرين بدأ ظهور بنى واطس حين قام أبو زكريا يحى الواطسى حاكم إقليم سالى بالولاية على الطفل المرينى عبد الخالق أبى سعيد عثمان المرينى. ففى عام ٨٤٠هـ/١٤٣٧م ظهر الخطر البرتغالى عندما هاجم البرتغاليون طنجة فقام أبو زكريا الواطسى بالدفاع عن المدينة حتى انسحب البرتغاليون منهزمين.

ثم قام الخلاف بين بنى واطس والقبائل فى المناطق الصحراوية ثم تمكن الوطاسيون بقيادة محمد الشيخ من بسط سلطانهم على مراكش الشرقية وجعلوا مدينة فاس عاصمتهم.

وفى ظل تلك الظروف المضطربة تمكن البرتغاليون من النزول إلى

طنجة واحتلالها دون مقاومة فى عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م ولم يستطع الوطاسيون فى عهد محمد البرتغالى وأبو العباس أحمد من مقاومة البرتغاليين الذين استولوا على كل الساحل المراكشى حتى مضيق جبل طارق. ثم عاد الصراع بين الوطاسيين وبين قبائل بنى سعد فى الجنوب وقد تمكن السعديون بزعامة الشريف محمد المهدى من الاستيلاء على فاس واسقاط أسرة بنى واطس فى عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م.

السعديون (٩٦١-١٠٦٦هـ/١٥٥٣-١٦٥٥م)

بعد أن استقر على كل اقليم مراكش، شرعوا فى مقاومة الأتراك الذين كانوا ينزلون فى بلاد أفريقيا والمغرب واستولوا على تلمسان فى غرب الجزائر. ولكى يتمكن الشريف محمد المهدى من تمويل جيشه لجأ إلى سكان الجبال يجمع منهم الخراج، كما فعل مع سكان السهول. فانتهزت المعارضة الفرصة وهم من بقايا المرابطين ومن أنصار بنى واطس والأتراك وثاروا فى وجه السعديين.

وهنا أضطر السعديون إلى مواجهة تلك الثورة باستخدام أشد قوة لهم فقاموا بطرد المرابطين من الزوايا التى يقيمون فيها وقتلوا كل من عارضهم. ثم انتقل السعديون من فاس إلى مراكش وجعلوها عاصمة للدولة السعدية.

اتجه السعديون فى سياستهم إلى محاربة من يعاديهم حتى ولو كانوا من المرابطين أو الأتراك وعملوا على التحالف مع الأسبان لكى يتمكنوا من مواجهة التحالف الداخلى الذى تزعمه الأتراك العثمانيون فحاصر محمد المهدى فاس واستولى عليها فى عام ٩٥٢هـ/١٥٣٩م وطرد منها بوحسون

الوطاسى الذى مكنه العثمانيون منها. وبذلك صار المغرب الأقصى تحت سلطان السعديين.

وتولى بعد محمد المهدى ابنه عبد الله الغالب ٩٦٥-٩٨١هـ/١٥٥٧-١٥٧٣م وتابع عبد الله سياسة أبيه فى القضاء على الخطر العثمانى، فعمل على التحالف مع الفرنسيين فى مواجهة أعدائه فى الداخل، وأنشأ مدرسة ومسجدا بالإضافة إلى كثير من الإنشاءات التى أقامها فى عاصمة ملكه.

وفى عام ٩٨١هـ/١٥٤٧ مات الغالب وخلفه ابنه محمد المتوكل (٩٨١-٩٨٣هـ/١٥٧٣-١٥٧٥م عندما تولى محمد المتوكل الحكم، وظهر منافسان له هما عماه عبد الملك وأحمد وقد عاشا فى ظل الحكم العثمانى فى الجزائر وعملا على مناهضة ابن أخيهما محمد المتوكل ومنافسته فى الحكم، ونجح عبد الملك بن المهدى فى إبعاد السلطان محمد المتوكل عن الحكم بمساعدة العثمانيين، كما عقد حلفا مع الأسبان وانسحب محمد المتوكل متجها إلى البرتغال.

عمل عبد الملك السلطان الجديد للمغرب على تجديد بلاده بمعونة العثمانيين الذين أعجب بهم عبد الملك وقد بايع شعب المغرب عبد الملك الذى تلقب بالمعتصم (٩٨٤-٩٨٦هـ/١٥٧٥-١٥٧٧م) .

لجأ المتوكل إلى البرتغاليين لنصرته على عمه عبد الملك واسترداد ملكه والتقى الجيش البرتغالى مع الجيش المغربى فى عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨ وكان الجيش المغربى مكونا من فرق منتخبة أرسلها إليه حكام الولايات المختلفة بدافع الحماس الدينى فكانت النتيجة انتصار المغاربة على

البرتغاليين انتصارا ساحقا وقتل المتوكل فى المعركة كما مات السلطان عبد الملك خلال المعركة بسبب مرض ألم به. وتولى السلطان أحمد بن الغالب حكم البلاد ولقب بالمنصور.

السلطان أحمد بن الغالب (المنصور) (٩٨٦ـ١٠١٢هـ/١٥٧٨ـ١٦٠٣م).

اهتم المنصور بالتجارة واحتكر الصناعة وجمع الضرائب وقضى على التهريب وعرف بالحزم والنزاهة فى إدارة البلاد، فقضى على الثورات التى قامت بها جماعات المعارضة المتصفة بالشدة مع شعبه ولقنها لحكام القبائل فنظم حكومة مراكش التى عرفت بالمخزن وهى مكونة من اتحاد القبائل البربرية يديرها جهاز مركزى هو حكومة المخزن عن طريق الجيش ورجال الحكم وهى التى تفرض الضرائب وتقسم الأراضى.

فالإدارة الحكومية تتكون من إدارة مراكش (المخزن) وهى المشرفة على الأراضى التى تسكنها القبائل وتحصل منها الضرائب ثم مراكش المستقلة (السّبا) وهى التى يعادل نفوذها نفوذ السلطان نفسه.

كما أنشأ السلطان الديوان ويضم رجال الدولة ومن يختارهم من ذوى النفوذ ويجتمع مرة فى الأسبوع للنظر فى شئون الدولة ومصالحها.

كا أعاد تنظيم الجيش وأخذ من الأتراك نظامهم الحربى، وضم إليه أعدادا من الأسرة من مختلف الجنسيات من الأندلسيين والزنوج ومن الأتراك اللاجئين ومن مسيحيى أوربا على أنه خصص من يقوم بتدريبهم بما يتفق مع النظام المغربى والنظام التركى.

أرسل المنصور جيشا ضخما فى نهاية القرن العاشر الهجرى السادس

عشر الميلادى إلى السودان والذى تمكن من الوصول إلى النيجر واحتلالها وجمع المنصور من وراء ذلك ثروات طائلة من الذهب والعبيد.

وتبادل المنصور التجارة مع الانجليز فقدم لهم الذهب والسكر والكبريت مقابل الأقمشة التى كانوا يرسلونها له.

تنافست كل من انجلترا واسبانيا على مصادقة المنصور فتشكلت شركة البربر التجارية فى لندن ٩٩٣هـ/١٥٨٥م لعقد معاهدة بين مراكش والقسطنطينية من ناحية وانجلترا من ناحية أخرى لولا أن المنصور كان متخوفا من العثمانيين فلم تتم تلك المشاركة.

وعملت أسبانيا على صداقة السلطان المنصور فتنازلت له عن مدينة أرزيلا فى عام ٦٩٨هـ/١٥٨٩م.

لقد ازدهرت الحياة فى عهد المنصور فى بلاد المغرب ونمى العمران فى البلاد وفى عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م توفى المنصور وبسبب ماقام من صراع بين أولاد المنصور الثلاثة على السلطة انهار نفوذ مراكش، فقد قام مولاى فارس والشيخ الملقب بالمأمون ينافسان أخاهما زيدان فى مراكش وقتل فارس فى عام ١٠١٨ هـ/١٦٠٩م وقتل زيدان أخاه المأمون فى عام١٠٢٢هـ/١٦١٣م بسبب تنازله عن لارش للأسبان.

وبقى زيدان يبسط نفوذه على مراكش دون فاس التى بقيت مستقلة عن سلطانه، ولم يحسن زيدان فى سياسته فى الدولة حين انفق أموال الدولة بإسراف فى بناء المساجد. وأهمل ماعدا ذلك فضعفت قوة الدولة . ولما مات السلطان زيدان عام ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م تنازع أولاده عبد الملك

والوليد ومحمد شيخ. وفي عام ١٠٦٥هـ/١٦٥٤ تولى محمد شيخ وبوفاته انتهت الدولة السعدية وزاد نفوذ الطرق الصوفية التي آلت إليها السلطة في حفظ البلاد.

العلويون (١٠٦٥ـ ١٢٤٦هـ/١٦٥٤ـ ١٨٣٠م)

عاشت الأسرةالعلوية في منطقة سجلماسة ونالوا مركزا طيبا بين أفراد تلك المنطقة لقرابتهم لآل البيت النبوي ولما اتصفوا به من سمعة حسنة في معاملتهم ونزاهتهم. حتى أن الرشيد مؤسس الأسرة العلوية عرف بلقب مولاي الذي ناداه به الأهالي حبا وكرامة لشخصه ولنسبه الشريف.

كان الشيخ بوحسون شيخ زاوية خليج يبسط نفوذه على منطقة امتدت من سوس إلى تافيلت دون معارضة، ثم بدأ بوحسون يوسع نفوذه في مناطق الصحراء الجنوبية فاستولى على سجلماسة ودرعه، وبدأ الصراع بين العلويين وبوحسون أدت إلى انتصار العلويين وبسط سلطانهم على سجلمساة ودرعة واقليم السوس. ثم بدأ العلويون يوسعون منطقة نفوذهم حتى اتجهوا إلى مراكش وتمكنوا من النزول على ساحلها الشمالي. وفي عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م حارب مولاي الشريف قوات الشيخ ارارس ودخل فاس وأعلن نفسه سلطانا وأصبح العلويون يسيطرون على منطقة أنجاد وتازا وتافيلت، والريف وفاس. ثم استمر العلويون في توسيع رقعة نفوذهم فبعثوا بالحملات الحربية إلى الغرب لإخضاع إقليم طنجة ثم دخلوا مراكش عام ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م وأقام الشريف الرشيد القناطر والحصون على نهر سبو ويبعد أربعة كيلومترات من فاس، وأقام الحصون في مراكش الشرقية، وبنى مدرسة.

وفى عام١٠٨٢هـ/١٦٧٢م توفى الشريف الرشيد بعد جهوده فى توحيد المغرب الأقصى. وخلفه أخوه اسماعيل (١٠٨٢-١١٣٩هـ/١٦٧٢-١٧٢٧م) اهتم السلطان اسماعيل بالتعمير فأقام المنشآت فى مراكش وبلغ به حب الاقتناء وجمع الأموال إلى مصادرة الأموال من ذوى الثراء فى البلاد.

عمل على توطيد سلطانه فواجه المؤامرات التى دبرت ضده بشجاعة وثبات واستطاع أن يتغلب على معارضيه من أفراد أسرته ومن أخيه هارون فى تافيلت وابن أخيه أحمد بن محرز فى مراكش والسوس فضلا عن المؤامرات التى دبرتها ضده الدولة العثمانية.

وقامت الثورات فى ولايات الغرب حيث قام المرابطون يؤيدهم العثمانيون فى ويلا وامتدت الثورات إلى تافيلت، وحرضوا القبائل العربية فى شبانه.

وظل السلطان اسماعيل يجاهد ضد المؤامرات والثورات حتى تمكن من التغلب عليها جميعا. لم يثنه عن ذلك مضى الشهور والسنين فى طريق الكفاح حتى استقرت أحوال البلاد واستتب الأمن فى ربوعها ثم شرع السلطان اسماعيل بعد ذلك فى تكوين جيش منظم وجعل غالبية جنده من السودان وقام بتدريبهم وضم إليهم أسرى المسحيين والقرصان والمتطوعين من الشباب الأندلسى.

وقد شكلت الغالبية من هذا الجيش من جماعات من الأطفال الصبيان دون سن المعاش، ويبعث بهم إلى مشترى الرمل (من مكناس وسالى) ويتم تعليمهم حرفة فى عدة سنوات قبل أن يبدأ تدريبهم الحربى. وخصصت

أعمال التدبير المنزلي للبنات ومنهن من يتعلمن الموسيقى ويتم تزويج الفتيان في سن الخامسة عشر.

أما جهة التمويل لهذا الجيش من الأطفال فهم جماعة المتعهدين يجلبونهم من منطقة حوض النيجر وجنوب الصحراء من مركز تواجدهم في تمبكو ويودعون في مشترى الرمل.

أما نسل هذه الجماعات من شباب مشترى الرمل فهو مصدر الجيش النظامي.

بلغ عدد الجيش النظامي في عهد السلطان اسماعيل مائة وخمسين ألف جندي نصفهم من مشترى الرمل ومن مكناس خمسة وعشرون الف جندي غير من في القصبة وشكلت جماعات وجنود مكناس الحرس الخاص للسلطان وهو يشرف ويدير سياسة الدولة. ثم تحول بمضي الوقت إلى مجرد حرس خاص للسلطان بغير نفوذ.

وقد تمكن السلطان اسماعيل بهذا الجيش من حراسة الشواطئ خاصة في ناحية المحيط حيث كان قادة هؤلاء الجند من ذوي الصرامة في القيادة بحيث يبسطون نفوذهم على الجند ويطيعونهم طاعة مطلقة تمكنهم منالتغلب على قراصنة البحار بغير مهادنة أو ضعف.

وهكذا استطاع السلطان اسماعيل استرداد البلاد التي وقعت في يد الأسبان وغيرهم من البرتغاليين.

واستولى على المعمورة في عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م ثم استولى على طنجة ونقل إليها سكان منطقة الريف ثم استولى على لارش في عام

١١٠١هـ/١٦٨٩ وأرزيلا فى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م وبذلك بسط المغرب نفوذه على الشاطى الأطلسى.

ثم عمد السلطان اسماعيل إلى موانئ البحر المتوسط وتمكن من الاستيلاء على مليله.

ولم يتمكن السلطان اسماعيل من مواجهة العثمانيين فى المغرب الأوسط (الجزائر) لقوة المدفعية العثمانية فاضطر إلى مهادنة العثمانيين وتثبيت الحدود معهم.

ثم شرع اسماعيل فى مواصلة الجهاد وبسط نفوذ الدولة المغربية إلا أن الظروف الداخلية أجبرته على التوقف.

وعلى الرغم من النشاط التجارى الكبير فى البلاد المغربية فإن السلطان اسماعيل طالما شارك رجال البحر من القراصنة فى غنائمهم بنسبة تصل إلى العشر وأحيانا الخمس.

وعاشت مدينة فاس كمصدر لتجارة المغرب بأنواعها من جلود وأصباغ وأقمشة، والموسيلين الغطاء والزيوت العطرية وأنواع الأسلحة وأدوات القتال.

كما كان لمراكش دور هام فى الحركة التجارية وكذلك تارونت وعليج، وكانت مكناس أنشط فى تجارة والشمع والنحاس وقد فضلها السلطان اسماعيل على غيرها من المدن.

كما كانت تافللت تستورد كثيرا مما يحتاجه العرب، وغيرهم من السكان بمقايضهم بتبر الذهب والعاج وريش النعام والبلح حيث حركة

القوافل النشطة عبر تلك المدينة إلى السودان.

كما شارك الرحالة والقناصل فى الأعمال التجارية خاصة مع القراصنة من رجال البحر. وقد كانت المنافسة التجارية بين انجلترا وفرنسا ثم تغلبت انجلترا على فرنسا فى عام ١١٢٢هـ/١٧١٠م وأخذ الانجليز مكان الصدارة.

اهتم السلطان اسماعيل ببناء القصبات وخاصة فى مراكش، وتحتوى القصبة عادة على أراض زراعة ومخازن ومسجد ومساكن وحراسة وتحاط بالأسوار والأبراج للمراقبة وقد ساعدت تلك الأبنية على الاستقرار والأمن فى ربوع البلاد. فضلا عن خضوع المرابطين والعثمانيين للنظام الذى فرضه السلطان.

وتوفى السلطان اسماعيل عام ١١٤٠هـ/١٧٢٧ وقد اعقب وفاة السلطان انهيار نظام الدولة الذى خططه السلطان حيث برز المرابطون والعثمانيون ورؤساد القبائل وعمل الجميع على استرداد حريتهم فى العمل فاضطربت أحوال البلاد.

ثم ظهر أحد أحفاد السلطان اسماعيل وهو محمد بن عبد الله الذى ساهم فى ولاية أبيه فى تنظيم الجيش ونشر الأمن وكان قد أظهر كفاءة إبان حكمه لمنطقة مراكش وأسفى فى دكالة. أظهر محمد بن عبد الله ١١٧١هـ/١٧٥٧ م نشاطا حين قام بتشييد الأبراج والحصون حول المدن المغربية والعتاد الحربى، وزاد من عدد سفن الاسطول وخصص فترات لتدريب الجنود على القتال وحارب البرتغاليين واسترد ميناء المعمورة شمالى سلا فى عام ١١٨٢هـ/١٧٦٩م وعمل على توثيق صلاته بالدولة

العثمانية، وفى عهده اتسعت التجارة الفرنسية اتساعا كبيرا، ومد كثير من الأجانب إلى البلاد والإقامة فى الموانى وفى عام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م توفى السلطان محمد بن عبد الله وخلفه ابنه يزيد فى عام (١٠٢٤ـ١٠٢٦هـ/١٧٨٩ـ١٧٩٢م) وكان عهده مليئا بالإضطرابات وخلفه أخوه سليمان (١٠٢٦ـ١٢٣٨هـ/١٧٩٢ـ١٨٢٢م) ودخل فى حروب فى المناطق الشمالية وفى الجنوب للاستيلاد على مراكش التى استولى عليها عام ١٢٠١هـ/١٧٩٥ وسيطر على الجنوب على مدى عشرين عاما. إلا أن ثورات البربر فى أطلس الوسطى والصراع الداخلى دفع بالبلاد إلى التحول من الهجوم إلى الدفاع عن استقلال البلاد أمام الأطماع الخارجية.

وتولى بعده ابنه عبد الرحمن (١٢٣٨ـ١٢٧٦هـ/١٨٢٢ـ١٨٥٩م) وحاول استعادة مكانة ادولة الى ماكانت عليه من قبل إلا أنه تعذر عليه ذلك لقوة الأساطيل الأوربية حتى أن فرنسا استولت على مراكش عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م فتحول مجرى الأحداث إلى غير صالح البلاد، وانتهى الأمر إلى أن فقدت البلاد استقلالها.

المغامرات الاستعمارية ضد المغرب

ظهرت المطامع الأوربية وخاصة الفرنسية فى شمال أفريقيا وبصفة خاصةالمغرب الأقصى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، ويرجع ذلك الموقع الاستراتيجى حيث يسيطر المغرب الأقصى على مدخل البحر المتوسط بموانيه ومدنه الساحلية مثل طنجة وسبتة ومليلة.

كما توجد غرب المغرب الأقصى على ساحل الأطلسى موانيه الهامة

مثل القنيطرة والدار البيضاء وأجادير الأمر الذى دفع الدول الأوربية إلى التنافس فى الدخول إليها بوسيلة ما ، إلا أن يقظة الشعب المغربى جعلته يقاوم محاولات تلك الدول الطامعة وظل يحافظ على استقلاله على مدى قرون من الزمان.

لقد قاوم المحاولات الأوربية الاستعمارية وفى سبيل ذلك حشد الجيوش لمقاومة التحركات العدائية من الأسبان والبرتغال وصدهم ودمرهم فى معارك الدار البيضاء وساحل السوس وفى أجادير وفى معركة وادى المخازن فى عهد الدولة السعدية فى عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م حيث الحق هزيمة ساحقة بالبرتغاليين.

كما تمكن الجيش المغربى فى عهد الدولة العلوية استعادةالجديدة والمهدية من البرتغال والعرائش وأحيلا من الأسبان كما استرد طنجة من الانجليز.

وعلى الرغم من احتفاظ المغرب الأقصى باستقلاله حتى بعد ظهور العثمانيين فى الشمال الأفريقى إلا أن تحول الدولة العثمانية من القوة إلى الضعف أدى إلى ظهور أطماع الدول الأوربية فى الدولة العثمانية وتدبير المؤامرات لاحتلال الشمال الأفريقى.

احتلت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م فدخلت مراكش حرب مع فرنسا حتى عام ١٢٦١هـ/١٨٤٥م وساندت الأمير عبد القادر، واحتلت فرنسا تونس عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م. وانطلقت الدول الأوربية فى مغامرات استعمارية عقب مؤتمر فيينا عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م وقام سباق بينها لاحتلال بقية الأقطار العربية وهنا أدرك المغرب أن عليه مواجهة تلك

الأخطار فاتجه إلى مدينة تلمسان فدخلها ليمنع الفرنسيين من احتلالها وامدت الأمير عبد القادر الجزائرى بالسلاح لمحاربة فرنسا وواجهت فرنسا الموقف بهجوم مماثل على بلاد المغرب فدخلت مدينة وجده واشتعل الموقف بين فرنسا والمغرب وبدأ فى مهاجمة طنجة والصويرة ، واضطر المغرب الى عقد صلح مع فرنسا وبذلك بدأ التدخل الأوربى الاقتصادى ونشأت المراكز التجارية فى مدن الساحل وأثر النفوذ الفرنسى فى الأحوال التجارية والمالية للبلاد المغربية فى الداخل.

ثم بدأت أسبانيا تظهر أطماعها هى الأخرى فى بلاد المغرب فافتعلت مشكلة مع المغرب عند حدود سبتة التى يحتلها الأسبان وأعلنت الحرب على المغرب فى عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م وانتهت بهزيمة الجيش المغربى واحتلال تطوان وانتهى الأمر الى عقد صلح تقوم المغرب بموجبه بسداد مبلغ عشرين مليون ريال مقابل اخلاء مدينة تطوان ثم قامت فرنسا باحتلال المغرب، خاصة بعد بسط سلطانها على تونس بعدالجزائر وشرعت فى إثارة الفتن فى داخل البلاد حتى تجد مبررا لتدخلها.

وفى عام ١٢٢٦هـ/١٩٠٨م استطاعت فرنسا أن توعز إلى عبد الحفيظ شقيق السلطان عبد العزيز وممثله فى مراكش إلى تولى عرش البلاد بدلا من أخيه ونجحت خطة فرنسا وصارت مراكش منذ ذلك الوقت تحت الحماية الفرنسية الحقيقية ثم امتد النفوذ الفرنسى إلى مصلحة الجمارك المغربية وانتهى موقف السلطان عبد الحفيظ بالتنازل عن الحكم لابنه يوسف نتيجة الحماية الفرنسية بموجب اتفاق وقعه مع فرنسا فى عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.

ثم عادت الثورات الداخلية ضد القوات الفرنسية حتى عام ١٣٤٠هـ/١٩١٢م.

اتجه النظام الاستعماري الفرنسي في المغرب بنفس الاتجاه الذي سار عليه في الجزائر وتونس فيستولى على الأراض الزراعية ويملكها للفرنسيين وحق نزع الملكية للمصلحة العامة، وفرض تسجيل الأراضي مقابل رسوم معينة ومن لم يسجل أرضه تنزع ملكيته لها.

كما عهدت فرنسا إلى إدخال المصنوعات الفرنسية للبلاد للقضاء على الصناعات المحلية. كما عامل الفرنسيون أهالي البلاد باسلوب يختلف عن معاملتهم للفرنسيين المقيمين بحيث فضلوا الأجنبي الدخيل في حق تكوين النقابات بينما حرم منها العمال الوطنيون، ومنحت الشركات الفرنسية الامتيازات التي حرم منها الوطنيون، وطبق في كثير من النواحي الامتيازات التي تمنح للفرنسي مثل البدلات للسكن والغلاء وبدل التخصص في حين حرم منها المواطن المغربي.

وشارك الأسبان الفرنسيين في احتلال المغرب بعد أن فرضوا القادة الفرنسيين على الجيش المغربي بحيث صار تحت سيطرتهم وبعد أن أطمأنت القيادة الفرنسية إلى خطتها تلك، فوجئ الفرنسيون بانتفاضة مغربية دفعت بالجنود المغاربة إلى الانقضاض على القادة الفرنسين الكبار الذين بلغ عددهم ثمانية وستون ضابطا وقتلوهم عن آخرهم. ثم قاموا بالتوجه إلى فاس واستولوا عليها وانضم الثوار من الأهالي المغاربة الذين عددهم نحو عشرين ألف مقاتل ثم اشتعلت البلاد بالثورات ضد الفرنسيين وظل الصراع مستمرا بين المغاربة والمحتل الفرنسي حتى امتد إلى منطقة

الشمال التى تحتلها أسبانيا.

وقامت معركة بين المغاربة والقوات الأسبانية فى عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١م تمكنت خلالها القوات المغربية التى لايزيد عددها عن الألف بينما عدد القوات الأسبانية قد بلغ خمسة وعشرون ألف مقاتل مجهزين بأحدث الأسلحة ولكن المعركة انتهت على الرغم من ذلك بتغلب القوة المغربية على القوات الأسبانية فى معركة أنواك، دفعت نيتجة معركة أنواك بفرنسا إلى الاسراع بمديد العون إلى اسبانيا خشية أن يؤدى الانتصار المغربى الأخير إلى امتداد المقاومة ضد فرنسا.

وفعلا اتحدت الجيوش الفرنسية والأسبانية التى تمكنت من التغلب على المقاومة المغربية فى عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

لقد ظل المغرب فى صراع مع المستعمر الفرنسى واستمر النضال بين السلطان المغربى والمقيم العام الفرنسى، وتولى عرش المغرب خلال فترة الحماية ثلاثة أولهم السلطان عبد الحفيظ الذى عمل على مقاومة السياسة الفرنسة ثم اضطر إلى التنازل عن العرش عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م ثم السلطان يوسف الذى تولى الحكم منذ عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م حتى وفاته فى عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م وتولى عرش البلاد فى نفس العام السلطان محمد الخامس الذى دخل صراع مع المستعمر الفرنسى فلجأت فرنسا إلى نفيه إلى جزيرة كورسيكا فى عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م ثم انتهى الصراع بين فرنسا والسلطان محمد الخامس إلى إعادة السلطان محمد الخامس إلى عرشه وبدأت فرنسا المفاوضات فى عام ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م التى انتهت باستقلال مراكش وتم تعديل اسم دولة مراكش إلى دولة المغرب.

وهكذا بدأ المغرب بعدما عادت إليه سيادته فى تكوين جيش قومي فى ظل حكومة وطنية مستقلة.

الباب الخامس

موريتانيا

موريتانيا منذ الفتح العربى حتى قيام الجمهورية

* الوصف الجغرافى
* السكان
* البرانس
* الملثمين
* صنهاجة
* المرابطون
* العلويون
* حركة التحرر الوطنى والاستقلال

الوصف الجغرافي:

جمعت موريتانيا فى العهد الرومانى بينها وبين المغرب الأقصى معا، فموريتانيا تعد امتدادا طبيعيا للمغرب إذ لايوجد بينهما فاصل جغرافى، وتقع موريتانيا فى الشمال الغربى من أفريقيا جنوبى المغرب الأقصى، وتقع الجزائر فى أقصى شمالها الشرقى من الصحراء الغربية ويجاورها فى الغرب المحيط الأطلسى وفى الجنوب منها السنغال.

كما تقع موريتانيا عبر طريق القوافل التى تأتى من المغرب الأقصى متجهة إلى السودان جنوبا وبالعكس، يبدأ من تارودانت إلى نول ثم إلى أوليل وتمر قوافل التجار من الأمصار والتلول.

وقد سيطر الملثمون الصنهاجيون الذين نازعوا الزناتيين وناضلوا مملكة غانا وغيرها من الممالك الزنجية للاستفادة من الثروات الضخمة التى تعبر بها القوافل التجارية الذاهبة إلى السودان والعائدة منه.

وتوجد فى موريتانيا منطقتان طبيعيتان هما:

١ - المنطقة التى تبدأ عند وادى السنغال وهى تمتد بمحاذاة الساحل ومكونة ن تلال وسهول ثم تأخذ شكل سلسلة من الجبال نصف الدائرية فى مواجهة المحيط جنوب ريودى أورو الذى كان يعرف باسم شنقيط وهو الاسم العربى لهذه الناحية أما نواكشوط فهى فى الجنوب الغربى من موريتانيا وهى عاصمة موريتانيا وفى أقصى الشمال الغربى لموريتانيا الساقية الحمراء.

٢ - المنطقة الصحراوية التى تمتد من شمال الساحل وهى منطقة

جرداء تتكون من تلال رملية وسهول حجرية. وهناك أماكن أخرى عبارة عن هضاب صخرية ووديان جافة لأنهار قديمة كما توجد واحات يمكن الحصول منها على المياه الجوفية، وأعلى الجبال أو المرتفعات أدرار تمار في الشمال وتاجلت في الجنوب الشرقي وبفضل هذا الارتفاع يوجد بعض الانتظام في سقوط الأمطار مما يمهد لظهور المراعى الممتازة وفي هذه المنطقة كثير من القرى مثل شنقيط وآثار في الغرب وأجيدز في الوسط.

كما يوجد بعض السهول الخصبة كسهل الشاماه في الأراضي التي تحيط بنهر السنغال. وكذا سهول براكنا وجور جول.

وتعد المنطقة صحراوية وتغطيها مساحات رملية كبيرة من الرمال، وتتوزع بعض الأعشاب المتفرقة والمناخ شديد الحرارة، وذلك أن تأثير البحر لايتجاوز عدة كيلو مترات في الداخل.

أما الأمطار في الجنوب فغير منتظمة وتسقط في شهر يوليو. أما في الشمال فتسقط الأمطار وهي شحيحة. ولأن موريتانيا تعد امتدادا طبيعيا للمغرب الأقصى حيث لايوجد بينهما فاصل جغرافي، فلابد من التعرض لدراسة المغرب الأقصى عند دراسة موريتانيا.

ويعد المغرب الأقصى «منطقة أطراف» لأنه في النهاية القصوى للوحدة الجغرافية للمغرب، فلا يوجد وراء هذا الإقليم غير البحر المحيط، الحاجز المنيع لبلاد المغرب.

ويربط المغـــرب بالجنوب طريق برى طويل يؤدى إلى الجنوب الأقصى، وإلى صحراء السودان الغربي وفي الجنوب تحيط به سلسلة جبال

درن الـذى يعد مانعا ضد القادمين من قلب الصحراء حتى صار هذا الإقليم بعيدا عن المؤثرات القادمة من الشرق والتى تتعرض لها المناطق الأخرى فى أفريقيا والمغرب.

وعند الفتح العربى لبلاد المغرب، صار المغرب الأقصى الحصن المنيع للمقاومة، ولم يبسط العرب سلطانهم عليه بقوة السيف وحده، وإنما هو نور التوحيد الإسلامى الذى وصل شعاع منه إلى قلوب الشعوب المغربية فأقبلوا عليه عن طواعية واختيار، ثم صاروا حصنا للإسلام.

لقد ساعدت الطبيعة بلاد المغرب الأقصى وموريتانيا على نمو الحركات الدينية ذات الطابع السياسى مثل حركة المرابطين، وحركة الموحدين، بعيدا عن الغارات التى اجتاحت بلاد أفريقيا والمغرب قادمة من مصر فى العصر الفاطمى، وهزت العروش بعد ماتجاوزت الحدود تلك الهجمة الهلالية التى تعذر عليها دخول المغرب الأقصى إلا بعد استدعاء من قادة الدولة الموحدية وكان قدومها للمغرب الأقصى قوة وإيجابية.

لقد ساعدت جغرافية المغرب المانعة عند شاطئ المحيط إلى توجه الموجات العربية المتدفقة إلى غرب أفريقيا ومنطقة السنغال ومنطقة النيجر وعن هذا الطريق انتشر الاسلام فى السودان الغربى، وازدهرت حركة المتاجرة مع شعوب السنغال والنيجر وقلب أفريقيا، كما أن الطريق البحرى عند المضيق الذى يصل المغرب بالأندلس مكن من ربط إقليم الريف بالأندلس، فساعد على نشر المؤثرات الحضارية الأندلسية فى إقليم الساحل والمتصل بالمغرب الأقصى وترتبط العدوتين (الأندلسية والمغربية) بروابط وثيقة فساعد ذلك حين عبرت قوات يوسفبن تاشفين المرابطى المضيق

لإنقاذ بلاد الأندلس من الأعداء المتربصين.

السكان:

البرانس:انتشرت قبائل البرانس المغربية في بلاد المغرب من أفريقيا حتى المغرب الأقصى وامتد وجودهم في غرب أفريقيا حتى منحنى نهر النيجر وهذا الفرع من قبائل البربر المغاربة اشتهر بالقوة وشدة البأس وهم كثرة غالبية من البربر.

انتشرت هذه القبائل في الجهات الشمالية وعلى سفوح الجبال الصالحة للزراعة، وفي جبال أوراس وفي جنوب ووسط الجزائر، كما نزلوا بمراكش، وفي الجزء الشرقي من جبال أطلس الكبرى واحتلوا ساحل المحيط الأطلسي حتى مصب نهر السنغال، ومنحنى النيجر.

ومن قبائل صنهاجة ظهرت دولة بني زيري. وقامت دولة صنهاجة بالمغرب، منذ أن قلد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أمر بلاد المغرب إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وصارت صنهاجة صاحبة السلطة الفعلية على أفريقية والمغرب كما استولى بلكين بن زيري على المغرب الأقصى كما قامت دولة المرابطين من صنهاجة كذلك. أما قبائل الملثمين مؤسسو دولة المرابطين.

فهم الذين اتخذوا اللثام شعارا لهم يميزهم عن سائر القبائل المغربية، وهم الذين قامت من بينهم دولة المرابطين. وهم الذين نشروا لواء الإسلام في أنحاء أفريقيا والسودان الغربي، فقد ظلت قبائل الملثمين تجاهد بغير كلل تدفع قبائل السودان إلى الاسلام دفعا حتى تمكنت في نهاية الأمر من

النجاح فى مهمتها المقدسة، وظللت راية التوحيد الاسلامى شعب السودان.

كما قامت دولة المرابطين وانتشر نفوذها من منحنى النيجر فى الجنوب حتى البحر الأبيض فى الشمال ثم عبرت المضيق واتجهت إلى الأندلس.

وقبائل الملثمين كثيرة العدد وأهم هذه القبائل. لمتونة وجدالة ومسوفة أما الزعامة فقد كانت للمتونة فى بنى ورتنطيق وقد ظهر منهم يوسف بن تاشفين.

لقد أخذت القبائل المغربية من البرانس الصنهاجية تنتقل بين مناطق الشمال والجنوب فى صورة يسيرة بعد ماأدخل الرومان الإبل فى البلاد المغربية وبدأ اتجاههم نحو الجنوب فى السنوا ت الأخيرة من القرن السابع الميلادى فى نفس الوقت الذى ظهر فيه المسلمون.

وبدأ المغاربة يستعينوا بالشعوب السوداء ليعملوا معهم بعد اتصالهم بهم فى المناطق الجنوبية.

كما اتجه عدد من القبائل الصنهاجية فى المغرب الأقصى إلى التوغل فى الصحراء خاصة عقب الغزوات العربية وقد تمكنوا من الاستيلاء على بعض المراكز فى تاجنت وبسط رئيس قبيلة لمتونة الصنهاجية تيلوتان نفوذه على القبائل السوداء وحصل منهم على الجزية كما اتخذ له مركزا فى أودغشت. ثم انحسر هذا النفوذ الصنهاجى ثم لم يلبث أن عاد الصنهاجيون إلى توحيد صفوفهم فى بداية القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى للأسباب الاقتصادية وحركة القوافل وقد كان لقبائل لمتونة

وجدالة قوة تشكلت باتحادهم بزعامة تارسينا لمواجهة قبائل الجنوب، وقد تبنت جدالة الحركة الدينية للمرابطين وتزعمهم يحى بن ابراهيم الحركة المرابطية.

لقد ساعد الاسلام الصنهاجية على هجرتها الى الجنوب والعمل على نشر الاسلام بين قبائل السودان ودفعتها صدق عقيدتها إلى التقدم نحو الجنوب بقوة العقيدة حتى وصلت إلى منحنى النيجر.

فلما كان القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى بدأ عبد الله ابن ياسين العمل على توحيد القبائل المغربية الصنهاجية ثم اتجهت الى الشمال فى طريقها إلى إقامة الدولة الجديدة.

وتحديدا للمناطق التى سكنتها تلك القبائل الصنهاجية فهى تمتد من غدامس فى جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسى فى المناطق الصحراوية، فيما يلى سلسلة جبال درن ثم تمتد مساكنها من جبال درن فى الشمال إلى مصب نهر السنغال ومنحنى نهر النيجر ويمتد شرقا حتى يصل إلى بعض من أرض الصحراء الكبرى.

أما المناطق الخاصة لكل قبيلة من تلك القبائل الصنهاجية فقد اختصت لمطية وجزولة بالمنطقة الممتدة من جبال درن إلى نول قرب المحيط الأطلسى ، وأخذت ترغة وادى درعة إلى سلجماسة.

وقد امتد نفوذ لمتونة من وادى نون على المحيط الأطلسى حتى رأس بوجادور وإلى الشرق من وادى نون تقع مدينة أركى حصن لمتونة المنيع، وقد وصلت رحلات لمتونة فى المنطقة التى بين غانة وسلجماسة. وقد

بسطت لمتونة نفوذها على الطرق الهامة مثل طريق غانة سجلماسة وتمتد ديارهم مسيرة شهرين طولا وعرضا مما يسر لها الثراء المادى فضلا عن وفرة عددهم حتى سهل عليها بسط سلطانها على بقية القبائل.

أما جدالة فتمتد مناطقها من جنوب لمتونة حتى مصب نهر السنغال حيث اوليك مقرا لها حيث يوجد الملح الذى ينقل شمالا وجنوبا وجدالة قريبة من غانة ومن شعب صنغانه على منحنى نهر النيجر وقريبة من أودغشت وطريق سلجماسة، فساعد ذلك جدالة على استخدام هذا الطريق فى تجارتها وربحت من ذلك كثيرا بسبب قربها هذا من بلاد السودان.

وتمتد مضارب قبيلة مسوفة فى منطقة تقع بين سلجماسة فى الشمال وأودغشت فى الجنوب، كما امتد نشاط بعض بطون مسوفة شرقا حتى تادمكة وكوكو.

وقد سيطرت مسوفة على طريق التجارة السودانى بين اودغشت فى الجنوب وسجلماسة فى الشمال منذ زمن طويل وهكذا سيطرت تلك القبائل الصنهاجية على مساحات واسعة من الصحارى وتحكمت فى طريق التجارة الهامة فغلب عليها الثراء وكثر جاهها بين القبائل الأخرى.

دور صنهاجة الموريتانية في العهد الاسلامي.

يعد عقبة بن نافع أول من دخل ديار الملثمين من العرب، وأول من ساعدهم على الدخول فى الاسلام وبعدها عرف التجار العرب الطريق الى الصحراء الجنوبية. وجعلوا من مدينة أرقى قاعدة لهم ثم وصلوا إلى أدوغشت حاضرة مسوفة، وفى عهد عقبة وصل المسلمون إلى أواسط

أفريقيا.

وفي عهد موسى بن نصير الذي امتدت فتوحاته حتى وادى درعة وحتى السوس فى الأطراف الشمالية لأماكن الملثمين وهو الذى أنشأ مسجدا فى أغمات ودعا الملثمين إلى الاسلام فأقبلوا عليه بقلوبهم بعد أن أسند موسى بن نصير إليهم أعمالا قيادية، وزاد إقبال لمتونة على الإنضمام إلى صفوف المسلمين وشكلوا كتلة بربرية بجانب العرب الذين اتجهوا لفتح الأندلس.

كذلك عمل الأدارسة بالمغرب الأقصى على نشر الاسلام فى ربوع صنهاجة اللثام وامتد نفوذ الأدارسة من ديار الملثمين حتى إقليم الواحات.

وهكذا فإن اسلام صنهاجة اللثام أخذ منذ عهد عقبة ينمو ويقوى حتى بلغ أوج قوته فى عهد الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى فقد تحالفت قبائل الملثمين بقيادة زعيم لمتونة تيولوتان بن تيكيلان التى عملت على القيام بدور قيادى لبسط نفوذها ونشر الراية الإسلامية بين القبائل الزنجية فى الجنوب.

وفى منتصف القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بدأ حلف صنهاجة فى الاتجاه جنوبا وتقدم صوب ديار غانة، ذلك الشعب الزنجى المشرك ولم يصمد أمام صنهاجة التى سارت قدما فى توسعها حتى صارت على مسيرة أيام من منحنى النيجر واستولوا على مدينة أودغشت وفرضت الجزية على شعب غانة وجعلوا من أودغشت مقرا لهم.

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ومع

قدوم الهجرة الهلالية من مصر إلى بلاد المغرب.

تغيرت الأحوال وعم الاضطراب الحياة الاقتصادية وتحول الموقف حيث ان سجلماسة التى على طرف الصحراء من الشمال وأودغشت التى على طرف الصحراء من الجنوب وهما من أهم مدن المغرب وأكثرها ثراء.

تحولت القوافل التجارية إلى الطريق الذى يمر بديار الملثمين من جدالة ولمتونة فاحتكرت جدالة ولمتونة التجارة بين ا لمغرب والسودان. وتفوقت جدالة على مدينة أودغشت وكان الملح كما كان التبر والصمغ والصوف والخرز من أهم السلع المتبادلة بين السودان والمغرب ثم ينقل من موانئ المغرب إلى الشرق وإلى أوربا.

على أن القبائل الملثمة التى استطاعت أن تستولى على الموارد الضخمة من أيد القبائل الزناتية تسببت فى اضطراب الأحوال الاقتصادية فاشتد الغلاء وانقطعت الموارد وعم الخوف فاندفع ذلك القبائل الزناتية إلى اقتحام الدور للسطو والنهب وعز الأمن فى ربوع المغرب وصار الناس يتطلعون إلى الخلاص من سوء الأحوال وانتشار المجاعة.

المرابطون:

قامت دولة المرابطين بجهود من رجال جدالة الكبار يتقدمهم زعيمهم يحى بن ابراهيم الذى عرف برجاجة العقل وحسن البصيرة الذى أوصله إلى النظر فى مصالح الاسلام والمسلمين ليس فى بلاده هو بل فى أنحاء الدنيا فعمل على سياسة تربطه بالمجتمع الاسلامى الكبير فى أنحاء البلاد المغربية كلها، فكانت خطته هذه خير وبركة على الملثمين من صنهاجة

وعلى من حولهم من القبائل إلى أبعد مايكون، فقد وصل جهاد يحى بن ابراهيم الى السودان جنوبا كما امتد إلى الشمال وإلى الشرق والغرب.

خرج يحى بن ابراهيم الجدالي من دياره في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م القصد ارتياد مدارس المغرب طلبا للعلم والبحث عن فقيه يعود به إلى قومه عله يخرجهم من الظلمات إلى النور فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الإسلام .

لقد رحل يحى بن إبراهيم إلى القيروان وقابل الفقيه أبا عمران الفاسى ذلك الذى اشتهر بين العلماء فقصده الطلاب من فاس وأغمات ومن الأندلس من سرقسطة واشبيلية ومن غيرها.

أما المكانة التي حصل عليها هذا الفقيه الجليل فقد حصل عليها بعد رحلة علمية في بلاد المشرق حيث سمع من علماء مصر والحجاز والعراق.

تقابل مع أبى الفتح بن أبى الفوارس وسمع منهم ومن أستاذه الفقيه أبى بكر الطبيب الباقلانى درس منه علم الأصول وهو من أعظم العلوم الشرعية وأجلها امتدادا وأكثرها فائدة وأصول الأدلة الشرعية هى القرآن والسنة.

ثم عاد أبو عمران الفاسى إلى القيروان ليعلم الناس وهو قد بلغ الغاية فى علم الأصول وعلم الكلام والمناظرة وعاش بين الفقهاء المالكية الذين عرفوا بالشدة والبعد عن اسباب الترف.

تتلمذ على ابن عمران الفاسى الفقيه عبد العزيز التونى وفقيه السوس وجاج بن زللو اللمطى، كما تتلمذ يحى بن ابراهيم على أبى عمران الفاسى

ثم طلب منه أن يختار له من تلامذته أحد فقهاء المالكية يستعين به على إرشاد قومه من الملثمين الصنهاجية وهنا قال أبو عمران ليحى عليك بفقيه السوس وزاهدها وجاج بن زللو اللمطى وطلب أبو عمران من وجاج ان يختار من تلاميذه فتيها ممن يثق فى دينه وفى كثرة علمه وحسن بصيرته ليصحب يحى بن ابراهيم فى عودته الى قومه الملثمين ، يعلمهم القرآن وشرائع الاسلام ويفقهم فى الدين.

وقد استجاب وجاج واختار تلميذا له صنهاجى الأصل هو عبد الله بن ياسين، فقبل عبد الله على الفور القيام بالمهمة التى وكلها إليه وجاج ورحب بها باعتبارها الطريق إلى الجهاد فى سبيل رفع راية الاسلام عالية خفاقة.

عبد الله بن ياسين:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سيرعلى ، تلقى العلم من الفقيه وجاج بن زللو اللمطى، كما تلقى العلم من فقهاء الأندلس.

تقابل يحى بن ابراهيم مع عبد الله، ودعاه إلى بلاده ليعمل على إحياء الدين الصحيح والمنهج القويم الخالص من شوائب الشرك الذى إذا تحقق فى حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة أتى أينع الثمرات وحقق أنفع الآثار فى الحياة.

فمن ثمرات التوحيد وآثاره تحرير الأنسان من كل عبودية إلا الله الذى خلقه.

خطط عبد الله بن ياسين لنفسه المنهج الذى سيسير عليه فى ديار القبائل الملثمة من جمع القلوب حوله كلمة التوحيد التى تهدى إلى تحرير البشر فالتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التى تميزت وجهتها فى

الحياة وتوحدت غايتها وتحدد طريقها لما يرضى ربها. وهذا المنهج الذى جعله عبد الله هدفا له أخذ اتجاهان.

الأول اتبع فيه الاسلوب السليم الهادئ وبدأ يعظ الناس بالحسنى. فقد سد منافذ الخوف على الأجل والخوف على النفس والخوف على الأهل والأولاد، وعرفهم أن المؤمن الحق لايخاف أحدا فهو دائما آمنا مطمئنا هدائا.

وبهذا الاسلوب اجتذب الناس إليه واجتذاب الطلبة الذين وفدوا عليه من كل فج يستمعون إليه وهو يلقى عليهم دروسه، يعلمهم الدين الصحيح وجذب إليه قلوبهم والتف حوله العامة، وأصبح عبد الله بن ياسين ملء أسماعهم وأبصارهم بعدما وثقوا به وتلقوا علمه وتمسكوا به لايلتفتون إلى غيره.

وقد لقى عبد الله بن ياسين معارضة بين صفوف الزعماء والقادة الذين رأواه ينتقص من حقوقهم التقليدية ويصدهم عن العدوانية، ويطلب المساواة بين جميع البشر، فتآمروا عليه وعملوا على إبعاده من ديارهم.

لجأ عبد الله بن ياسين إلى الانسحاب من ديار لمتونة إلا أن يحى بن ابراهيم استطاع أن يغير من عزم عبد الله بن ياسين ودعاه إلى الصبر والمثابرة وعدم التخلى عن دعوة الحق، واستجاب عبد الله إلى دعوة عمر الجدالى واتجه عبد الله وعمر معا إلى الجنوب إلى ديار جدالة.

ثم بدأ عبد الله هدفه الثانى فاتجه إلى بناء رباط يأوى إليه وصحبه. ولذا عرفوا باسم المرابطين يتعبدون ويتزهدون ويجهدون فى جزيرة فى

البحرعند نهر السنغال.

اتخذ عبد الله هذا الرباط حيث أن خطر إغارة ممالك الزنوج على جدالة أتت من تلك الناحية حيث وقعت غارات الممالك الزنجية على مضارب الملثمين وحددت طريق القوافل وتكرر استيلاؤهم على مدينة أودغشت وطردهم منها أكثر من مرة فجعل عبد الله بن ياسين رباطه عند نهر السنغال هو الحد الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزنوج، جعله ليكون بقصد الجهاد ونشر الاسلام فى ديار الزنوج وصدهم عن العدوان.

دور عبد الله بن ياسين فى الرباط:

جعل عبد الله بن ياسين من رباطه حصنا يدافع المرابطون فيه عن البلاد ضد الغزاة المعتدين، وكان للرباط مزارع تمده بحاجته من الطعام فضلا عن احتراف الصيد من البر والبحر، كانت حياتهم تتسم بالبساطة والخشونة ينبذون الأثرة، ويعشقون الإيثار فهدفهم التعلق بالروحانيات اكثر منها بالماديات.

بلغ خبر عبد الله بن ياسين قبائل الملثمين الموزعة بين جبال درن فى السنغال وحتى منحنى النيجر فى الجنوب فأسرع الكثير من الملثمين يلتحقون بجماعة الرباط بحوض السنغال حتى بلغ عددهم ألفا، وعرفت صنهاجة موريتانيا باسم المرابطين كما عرفوا من قبل باسم الملثمين.

كان لعبد الله بن ياسين قدرة خارقة على التأثير فى نفوس أتباعه فهو جعلهم أكثر تفهما للأهداف التى أراد تحقيقها وضمن اهتمامهم وحماسهم

وإيجابيتهم فى تنفيذ الخطة بطريقة واقعية حتى يسهل عليهم تنفيذها.

كان عبد الله يقبل أن يضم المريد إليه بعدما يتثبت من إيمانه وصدق رغبته في الانصراف إلى حياة الزهد والجهاد ويمتحن المريد إمتحانا جسديا قاسيا حتى تتطهر نفسه من أدناس الأنانية وحب الذات.

قام عبد الله بقراءة القرآن وتفسيره وروى الحديث وفسره، ثم طلب من أتباعه القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يعدوا أنفسهم دائما لحياة الجهاد والكفاح ضد الأعداء فى الخارج ودعوة الملثمين إلى الدين الحق.

اختار عبد الله بن ياسين يحى بن ابراهيم لدور الحاكم ولما توفى يحى فى عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م صار يحى بن عمر رئيس قبيلة لمتونة الرئيس السياسى للمرابطين.

دور الجهاد:

أصبح يحى بن عمر حاكما للمرابطين وهو الذى عمل على تدريب جماعة المرابطين على القتال للإعداد لمعركة الجهاد.

خرج المرابطون فى عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م إلى الجهاد يقودهم يحى اللمتونى ومعه عبد الله بن ياسين يدعو لهم إلى الإسلام فى سودانى التكرور وحوض السنغال الأدنى وماوراءه من بلاد السودان الغربى فى غانة وفى غيرها .

وفى عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م جاءت مكاتبات سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى من الفقهاء والمصلحين بدعوة المرابطين للجهاد ضد

الحكام المفسدين.

اتجه المرابطون بجيش كبير من المجاهدين الراغبين فى الشهادة فى سبيل الحق ونصرة المظلومين وتحقق لهم النصر وطهروا البلاد من المنكرات ورفعوا عن الأهالى الضرائب الجائرة وعينوا واليا من لمتونة على سجلماسة واستشد يحى بن عمر فى جهاده ضد المشركين فى السودان فى عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م.

عين عبد الله بن عمر مكان يحى أخاه أبا بكر بن عمر اللمتونى فى قيادة المعركة فى الجنوب.

عمل أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين قادة المرابطين على محاربة الرافضة والشيعة وأعادوا البلاد إلى السنة واستولى المرابطون على أغمات وأقاليم حاحة ودكالة واستولوا على نادلة ثم حاربوا برغواطه فى مدينة أسفى على المحيط وفى عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م استشهد عبد الله بن ياسين.

وفى عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م اسرع أبو بكر إلى التوجه إلى صحراء موريتانيا لفك الاشتباك الذى وقع بين قبيلتى لمتونة ومسوفة وجعل ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب الأقصى الذى أسس مدينة مراكش وجعلها عاصمة لدولة المرابطين فى عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ثم اتسع جهاد المرابطين فامتد فى عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م إلى المغرب الأوسط وبلاد الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين بجنوده الذين من صنهاجة موريتانيا.

أما فى الجنوب فكان أبو بكر بن عمر اللمتونى الذى جاهد لرفع راية الرسلام فى أرجاء أفريقيا حتى بلغ أفريقيا الاستوائية وقد بدأ بالتكرور

والسنغال الأدنى أولئك الذين انضموا لجيش أبي بكر وساهموا معه في رفع لواء التوحيد في بلاد السودان وينتشر حتى صار علم التوحيد راسخا رسوخ الجبال لايتزعزع، وقد قاد أبو بكر بجيوشه المجاهدة في تلك البلاد متخذا من منطقة الإدرار في موريتانيا وأزكي وأودغشت قاعدتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا، وظل البطل الاسلامي أبو بكر تؤازره صنهاجة موريتانيا حتى سيطر على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب وأفريقيا.

وفي عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م استشهد أبو بكر بن عمر في ساحة ا لجهاد . ثم عادت غانة وازدهرت وصارت صاحبة السيادة والنفوذ في الأراضي التي بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي، وتبعتها الشطر الجنوبي من موريتانيا ومدينة أودغشت ونيمة وولاته ، ثم ضعفت غانة أمام قبيلة الصوصو الوثنية، وامتد سلطان دولة مالي إلى غانة ثم ضعفت مالي . وظهرت دولة صنغي في حوض النيجر الأوسط شرقي السنغال وقويت ثم استقلت عن مالي وازداد نفوذها في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي في عهد اسرة اسكيا واستولي (سنّ علي) ملكها على تمبتكو وامتد سلطانها إلى ولاته وإقليمها في موريتانيا وكان حكامها بعد (سن علي) متمسكين بالإسلام خاصة في عهد محمد بن أبي بكر عام (٨٩٩-٩١٥هـ/١٤٩٣-١٥٢٨م) الذي جعل مدينة تمبتكو عاصمة لدولته، ثم حاولت صنغي الاستيلاء على بعض مناجم الملح مما أغضب الأمير أحمد المنصور الذهبي سلطان الدولة السعدية في المغرب الأقصى فأرسل حملة عسكرية ١٥٧٩/٩٨٧ في عهد حاكمها أسكيا إلى التنازل عن مملتكاته في بلاد مورينتانيا والقبائل الصنهاجية وعادت الحملات العسكرية بالغنائم وبعد تلك الحملة تقدم أمير برنو شرقي صنغي في عام

١٠٠٠هـ/١٥٨٢م إلى المنصور الذهبى يعلن بيعته له ويبعث إليه بهدية.

وعندما سقطت دولة صنغي عملت مراكش على نشر الثقافة الاسلامية عن طريق مبعوثين من العلماء حيث انتشرت الحضارة الاسلامية في مدن ولاتا وتمكتو وجنى.

لقد عمل الفتح المغربى للسودان على اعلاء راية التوحيد الاسلامية كما استفاد المغاربة ماديا من الثروات الطبيعية التى تزخر بها أرض السودان.

كما أن رجال الجيش المغربى كانوا من جنسيات مختلفة وتزوجوا من النساء السودنيات وخالطوا أفراد الشعب السودانى ولكنهم كانوا مميزين بين السودانيين.

على أن موريتانيا عادت لأرضها التى كانت قد استولت عليها دولة صنغى كما أن بعض الجنود الذين كانوا قد شاركوا فى الحملة استقروا فى ض موريتانيا منهم عرب المعقل قبيلة حسان التى نزلت بعض عشائرها من شنقيط كما نزلت قبائل حسان فى أنحاء متفرقة أخرى من موريتانيا قد ساعدت تلك الخطوة فى تعريب موريتانيا.

العلويون (١٠٦٥-١٢١٨هـ/١٦٥٤-١٨٠٣م)

تنتمى العائلة العلوية فى المغرب الأقصى إلى العرب الأشراف الذين عاشوا فى المغرب منذ القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى واستطاعوا أن يجمعوا حولهم قلوب الأهالى حتى أنهم قدموهم على غيرهم لقيادة البلاد.

لقد تطلع المغاربة إلى قيادة ترفعهم من عثرتهم وتعيدهم إلى مجدهم السابق، وترفع عنهم الأغلال. لقد بايع المغاربة مجمد بن الشريف فى سجلماسة.

لما ضعفت الدولة السعدية تطلع الشعب المغربى إلى العائلة العلوية لقيادته ليستعيد مجد البلاد المغربية من جديد.

وهكذا بايع المغاربة محمد بن الشريف فى مدينة سجلماسة ثم شرع هو فى توسيع رقعة نفوذه فاستولى على درعة ثم اتجه إلى مدينة فاس فاحتلها وبعد وفاته تولى أخاه الرشيد بن الشريف العلوى (١٠٧٥-١٠٨٣هـ/١٦٦٤-١٦٧٢م).

وقد تمكن الرشيد من إخضاع البلاد كلها لسيطرته عدا المدن الساحلية حيث كان الاستعماريون الأوربيون قد استولوا عليها فكان على عاتق الأمير اسماعيل استرداد المهدية والعرائس وطنجة.

وفى خلال أقل من قرن كان المغرب قد توحد واتسعت أطراف الدولة العلوية حتى وصلت إلى مجاهل الصحراء فى مناطق السودان وتوحدت القيادة المغربية العلوية حيث أنتهى عهد حكام الولايات التابعة للحكومة المغربية.

توفى السلطان الرشيد ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م وخلفه السلطان اسماعيل (١٠٨٣-١١٣٥هـ/١٦٧٢-١٧٢٧م). ثم بعث السلطان بالحملات العسكرية التى قضت على الثورات فى مهدها. ثم بدأ فى تنظيم جيشه وجعله تحت سيطرته وضمن بذلك احكام الرقابة واحكام قبضته على البلاد وصد عنه

أعدائه بجدارة وبجسارة.

اتخذ السلطان اسماعيل سياسة استعادة البلاد التى استولى عليها الأسبان والانجليز، وغزا المعمورة فى عام١٠٩٢هـ/١٦٨١م ثم غزا طنجة بعد حصارها وأدخلها إليها سكان إقليم الريف ثم استرد لاراش فى عام١١٠١ هـ/١٦٨٩م وأرزيلا فى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م.

ثم اتجه السلطان اسماعيل إلى شواطئ البحر الأبيض واستولى على مليلا.

كما أرغم العثمانيين على الوقوف عند الحدود الجزائرية فلم يتخط جنودهم أرض المغرب الأقصى. وتوالى بعده سلاطين علويون دبروا أمر البلاد فى حزم وحكمة وحسن إدارة لدفة الأمور وتصريف شئون الرعية فدافعوا عنها ضد الأجانب ونشروا فيها الوية العلوم والمعارف والأداب والفنون وأقاموا بين ربوعها العمران ونعمت البلاد ردحا من الزمن بالاستقرار السياسى والاجتماعى ودخلوا فى علاقات مع معظم الدول الأوربية إلى أن بدأ احتكاكهم بالتدخل الأجنبى إبان القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى الذى اتخذ صورة الحرب تارة والمكر والخديعة تارة أخرى إلى أن بدأ هؤلاء السلاطين يعجزون عن مقاومة الأخطار الخارجية والداخلية بالرغم من الجهود الصادقة التى بذلوها فى سبيل إنقاذ البلاد والحفاظ على كيانها ودعم وحدتها.

لقد أخذت فرنسا تولى إهتمامها نحو استغلال الصحراء الجنوبية بعد عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م فعمل الفرنسيون على فرض نفوذهم فى جنوب المغرب الأقصى فى موريتانيا.

واستطاعت فرنسا السيطرة على ترارزة فى عام ١٣٢١هـ/١٩٠٣م ثم اتجهت إلى الأدرار ثم تراجع الفرنسيون بعد ظهور المقاومة الموريتانية التى قادها ماء العينين محمد بن فاضل الذى تمكن من صدهم عن الزحف داخل البلاد ولما عاود الفرنسيون محاولتهم فى مهاجمة الأدرار عقد الشيخ ماء العينين اجتماعا مع مشايخ القبائل فى عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م وبعثوا إلى الأمير عبد العزيز سلطان المغرب لنجدتهم وصد العدوان الفرنسى فبعث السلطان عبد العزيز جيشا يقوده الأمير إدريس للدفاع عن موريتانيا.

وفى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م بدأت المعارك بين المغرب وفرنسا حتى انتهت فى عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م باستيلاء الفرنسيين على الأدرار.وظلوا يواصلون توغلهم فى موريتانيا حتى أخضعوها لسلطانهم فى عام ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م إلا أن المقاومة فى بلاد المغرب من الجنوب إلى الشمال ضد فرنسا ظلت مستمرة حتى عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م وقد واجه الفرنسيون صعوبات فى إدارة البلاد حيث تعذرت سيطرتهم على تحركات القبائل فى البلاد ولذلك ظلت القيادة فى إدارة البلاد فى يد العسكريين ثم عادت الإدارة الفرنسية فى موريتانيا فى عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م إلى اسناد الادارة إلى المدنيين.

وفى عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م رفع المرابطون من الصوفية راية الجهاد ضد فرنسا إلا أنها لم تستمر حيث تمكن الفرنسيون من إخمادها.

لقد سار نظام الحكم فى موريتانيا قبل قدوم الفرنسيين إليها وفقا لحدود معينة لكل قبيلة تتبع شيخ القبيلة المسئول عن إداراتها باستقلالية. فلما جاء الفرنسيون نزعوا من المشايخ سلطاتهم وجعلوهم همزة الوصل بين الشعب

والإدارة الفرنسية فصار شيخ القبيلة مجرد متلق الأوامر وناقل لها فكان ذلك من أسباب ضعف شيخ القبيلة.

وقسم الفرنسيون موريتانيا إلى دوائر وجعلوا لكل دائرة مدير فرنسيا ويعاونونه ثلاثة أفراد من الأهالى وكان جمع الضريبة من الشعب من مهامهم الرئيسية أمام الإدارة الفرنسية وشكل المجلس الوطنى من أربعين عضوا بالانتخاب ويرأسهم فرنسي والمجلس هو الذى يحدد مقدار الضريبة التى يجمعها رؤساء الدوائر.

كما أن هناك مجلس عام تشكل أعضاؤه من بين أعضاء الجمعيات الإقليمية، ويرتبط ممثلو هذا المجلس بالجمعية الوطنية الفرنسية.

ويوجد كذلك مجلس تنفيذى عن الإدارة الحكومية فى الإقليم وللجميعة البرلمانية حق التشريع ومهمة الحكومة تنفيذ القوانين، ورئيس المجلس التنفيذى هو حاكم الاقليم.

وفي عام١٣٧٧هـ/١٩٥٧م شكلت أول حكومة موريتيانية ذات استقلال ذاتي.

السكان:

عدد السكان بسيط بالنسبة لمساحة البلاد وينقسم المجتمع الموريتانى إلى عدة طبقات مرتبطة ببعضها.

فقبائل بنى حسن العربية وهى الطبقة المحاربة والتى نزلت موريتانيا وكان لها دور بارز فى تعريب موريتانيا خاصة وأن أهل موريتانيا كان لهم إقبال على التعلم.

نزلت قبائل حسان (بنى حسن) التى استقرت فى أدرار وتيرس فى الجنوب الغربى من موريتانيا والبرابيش الحسانين فى مدينة تيشيت والأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين ودان وولاته، فشغلت قبائل حسان العربية جميع موريتانيا.

ثم المرابطون وهم من صنهاجة التى خالطت العرب ثم تحولت إلى ممارسة الشعائر الدينية وتفرغوا للعبادة وكانوا موضع الرعاية من جانب الأهالى.

ثم جماعات السود وقد جمع الاسلام بين هؤلاء جميعهم وعمل على تعليمهم وحفظهم للقرآن والعلوم الاسلامية فهم يتعلمون فى الزوايا التى هى بمثابة المعاهد الدينية ويشرف عليها العائلات العريقة فى المراكز الكبيرة فيهى تقوم بتحفيظ القرآن والتعريف بمبادئ الدين.

ومنهم من يتجه إلى مراكز العلم فى الشمال ليواصل تعليمه العالى فى جامعة القرويين وفى غيرها.

وفى نفس الوقت عمد الاستعمار الفرنسى فى موريتانيا إلى إدخال السود فى المدارس الفرنسية ليعملوا على إحداث فجوة ثقافية بين أفراد الشعب الموريتانى الواحد.

على أن المرابطين رأوا فى خطة التعليم الفرنسية فى البلاد مايهدد شئون التعليم ويجعل ازدواجية ضارة بمصلحة الشعب الموريتانى إذ يجعل من الثقافة الواحدة المميزة والتى ترفع من شأن الوطن ثقافتين قد تتعارض مع ماهو متبع فى موريتانيا.

كما أن الاستعمار الفرنسى لموريتانيا عمل على تقييد حرية الشعب الموريتانى فى إنشاء المدارس الحرة داخل المدن. فضلا عن تقييد حريتهم فى مواصلة التعليم فى مراكز التعليم المتقدمة فى الشمال. فضلا عن ذلك فإنهم يتربصون بمن يواصل تعليمه فى الشمال فيحرمونه من عودته إلى البلاد من المشاركة فى العمل داخل المجتمع الموريتانى، لقد كان هدف الاستعمار الفرنسى إبعاد شباب موريتانيا عن بقية الشعوب العربية التى تتمتع بحرية الفكر.

أما خريجو المدارس الفرنسية فيعمد إلى تسخيرهم فى خدمة أغراضه الاستعمارية.

الموارد الاقتصادية:

منذ الحملة العسكرية فى عهد السلطان منصور الذهبى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى وتوغلها فى أراضى السودان وتنازل اسكيا داود عن ممتلكاته فى موريتانيا، كذلك إعلان أمير برنو شرقى صنغى إعلان تبعيته للسلطان منصور الذهبى، واختلاط رجال جيشه بالسودانيات وزواجهم بالنساء السودانيات.

كما أن قبائل المعقل وخاصة قبائل حسان الذين بعث بهم المنصور الذهبى من مناطقهم فى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى ليوطد بهم فتوحاته فى بلاد السودان تلك القبائل الصنهاجية ورجال الحملة العسكرية استقروا فى الزرض الموريتانية وصاروا من هلها لقرب سكانها من أماكنهم التى جاءوا منها من الشمال.

وقد اشتغلت تلك القبائل بالرعى متنقلين وراء الكلأ وفى أرض تيرس غربى أدرار الممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى يرعون فيها أنعامهم وإبلهم.

وقد استعان الصنهاجيون بعمالهم من السودان يكلفونهم بأعمال الزراعة والسقى ورعى الأنعام والمواشى وحفر الأبار ويزاولون الصيد البرى مثل الوعل والنعام والماعز وتنبت ولاته الدخن والذرة أما شنقيط فبها نخل كثير ويزرع فى جبالها القمح والشعير والدخن واللوبيا، وفى أدرار يزرعون القمح والشعير فى أرض النخل، كما يزرعون الفندى فى الأودية والرمال بطيخ أبيض اللون وأخضره والبطيخ الأبيض يصنعون من بذره دقيقا يخلط بدقيق الدخن ويكونوا منه العصيدة. وغالب طعام أهل المدن اللبن والتمر.

كما يشتغلون بصيد الأسماك على طول الساحل الأطلسى كما يقومون باستخراج الملح والنترات فى اماكن متفرقة من البلاد ويوجد النحاس فى كجوجيت والحديد فى فورجورزو. وتوجد صناعات يدوية مثل صناعة السروج والأنسجة الصوفية وغيرها.

*****

حركة التحرر الوطنى

أخذت الحركة الوطنية الموريتانية شكلا إيجابيا حيث تكون جيش التحرير الموريتانى بقيادة الأمير سيسيه زكريا، وذلك عقب حصول المغرب على الاستقلال فى عام ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م. وبدأ جيش التحرير الموريتانى

يشن هجمات وغارات قوية على قوات الاحتلال عام ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧م إلا أنه لم يكتب لهذه الحركة الموريتانية النجاح حيث دبرت فرنسا خطة لاعتقال زعيمها سيسيه زكريا وتبدد أعضائها فدخل بعضهم فى دائرة الحكومة الفرنسية فى موريتانيا ولجأ البعض الآخر إلى المغرب مطالبين بالإنضمام إلى المغرب.

وفى عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨ عقد ممثلوا الصحراء الغربية إجتماعا بصحراء المغرب يعلنون فيه تأييدهم للمغرب فى مواصلة الكفاح لاسترجاع بقية الأرض المغربية، واستنكار السياسة الفرنسية الغاشمة فى الأرض الموريتانية ثم عقد مؤتمر طنجة فى نفس عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م جمع ممثلين من الجزائر وتونس والمغرب الذى أعلنوا فيه تأييد كفاح شعب موريتانيا ضد الاستعمار الفرنسي ومؤازرتها للانضمام إلى المغرب العربى.

لقد بلغ الوعي القومى درجة عالية إلى الحد الذى دفع ببعض الشخصيات السياسية الموريتانية إلى الاتجاه إلى الشمال وتعلن عن قوميتها المغربية وتنادى بالدفاع عن موريتانيا ضد الاستعمار الفرنسي.

ومن أجل تلك الأهداف عقد مؤتمر الرباط فى عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م الذى تشكلت فيه اللجنة التحضيرية من مشايخ قبائل موريتانيا ومن بعض كبار رجال الحكومة الموريتانية وأصدر ذلك المؤتمر قرارات أكدت إجماع موريتانيا على الحصول على الاستقلال مع الاتحاد مع المغرب.

وأعلن الملك محمد الخامس ملك المغرب تأييده لعقد هذا المؤتمر وقال عنه أنه دليل على يقظة موريتانيا والصحراء وانتشار الوعى القومى فيها وعزم شعبها على التحرر والوحدة.

وتكلم فى المؤتمر السيد أحمد حورمه ولد بابانا المستشار فى شئون الصحراء بوزارة الداخلية وقال لقد أصبحت الحرية بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت وأعلن رفضه للمؤامرات الاستعمارية الفرنسية لفصل موريتانيا عن المغرب.

ثم تكلم الشيخ ماء العينين فقال : « إن انضمام الجزء الجنوبى للمغرب واتصاله به سلسلة متصلة الحلقات من القرن الأول للفتح العربى الاسلامى على يد عقبة بن نافع الفهرى على اختلاف الدول إلى عام إتيان الوفود الشنقيطية الصحراوية إلى السلطان مولاى عبد العزيز فى فاس وإتيانهم إلى السلطان مولاى عبد الحفيظ فى مراكش ثم وفودهم التى مازالت تتحرى بعد الاستقلال على جلالة مولانا محمد الخامس نصره الله بطل التحرير ورمز الوحدة» ثم واصل المؤتمر إجتماعاته واتخذ عدة قرارات أهمها:

أولا: أن ممثلى موريتانيا والصحراء يجددون ولاءهم وإخلاصهم الدائم للمقاوم الأول محرر الوطن صاحب الجلالة محمد الخامس وتعلقهم بالعرش العلوى المجيد.

ثانياً: يؤكدون أن موريتانيا والصحراء جزء لايتجزأ من المغرب كما يؤكدون عزمهم على التحرر من النظام الاستعمارى المفروض عليهم والالتحاق بالجزء المحرر من الوطن المغربى الكبير.

ثالثا: يطالبون بعرض قضية موريتانيا والصحراء على منظمة الأمم المتحدة فى أول مناسبة.

موريتانيا فى السياسة الدولية

اتجهت سياسة المغرب بعد إعلان استقلالها فى عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م إلى السعى لحل مشكلة الحدود الجنوبية إلا أن فرنسا أصرت على تنفيذ خطتها فى فصل موريتانيا عن المغرب.

قامت سياسة المغرب بطلب انضمام موريتانيا إليه على اساس جغرافى وقومى وتاريخى، ويؤيد مطالب المغرب فى استرجاع حدوده الأصلية حجج كثيرة منها، أن الروابط السياسية بين موريتانيا والمغرب بدأ على الأقل منذ قيام دولة المرابطين فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى كما يؤكد سلطة الدولة المغربية واستمرارها عدة قرون إلى أن فرضت الحماية على ا، مجموعة من الدول الإفريقية بإيحاء من فرنسا عمدت إلى عقد مؤتمر فى أبيجان عاصمة ساحل العاج قبل إعلان استقلال موريتانيا بيومين وأعلنت فى المؤتمر أن المؤتمر قرر وجوب تأييد استقلال موريتانيا لدى بحث هذه القضية فى الأمم المتحدة وتأييد انضمامها إلى عضويتها.

وفى عام ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠م تقدمت حكومة المغرب بطلب تسجيل قضية موريتانيا فى جدول أعمال الدورة الخامسة عشر للجمعية العامة للأمم المتحدة.

وبعد مناقشات بين الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة انتهى رأى اللجنة السياسية التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة إلى إعلانها تأييد منح موريتانيا الاستقلال.

وهكذا حصلت موريتانيا على استقلالها وأعلن قيام جمهورية موريتانيا الإسلامية فى نهاية عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م وانتخب ولد داده رئيس التجمع الموريتانى رئيسا للجمهورية وانضمت الدولة الجديدة إلى الأمم المتحدة عام ١٣٨١هـ/١٩٦١م ثم انضمت بعد ذلك إلى جامعة الدول العربية.

البـــاب السادس

الســـودان

السودان من الفتح العربى إلى الاستقلال

* الوصف الجغرافى
* السكان
* حركة تعريب السودان
* الدين والحركات الصوفية فى السودان
* استقلال السودان

مع أن هذا الكتاب يتحدث عن تاريخ دول المغرب العربى فإنه يتناول أيضا تاريخ السودان وذلك للدور الذى لعبته القبائل المغربية والعربية فى دخول الاسلام إلى السودان ثم انتشاره بين ربوعه خاصة السودان الغربى فلزم الحديث عن السودان باعتباره امتداد لحركة الجهاد الاسلامى العربى. أما شرق السودان وشماله وجنوبه فقدمت إليه هجرات عربية من مصر منذ بداية الفتح الإسلامى وخلال العصور الإسلامية لمصر وخاصة عصر المماليك.

*****

والسودان هضبة فسيحة تنعزل عن شمال وادى النيل فالصحراء يجرى فيها النيل ويحده من الشرق مرتفعات البحر الأحمر ومن الغرب منطقة جدباء يجرى فيها الروافد التابعة للنيل الأعظم ولاتوجد حدود فاصلة بين الدول الجنوبية، وإنما هى حدود سياسية، ويسير خط الحدود مع حافة بعض البحيرات متعرجا حتى نيمولى فيمتد منها باستقامة الى الساحل الغربى لبحيرة رودلف مجتازا أراضى وعرة ويقطع مستقلعات عالية عند اقترابه من البحيرة وتركه لها. ثم يتابع خط الحدود مسيره مع حافة هضبة الحبشة وهضبة أريترية حتى البحر الأحمر ثم يسير مع البحر الأحمر إلى خمسمائة ميل مع الإقليم المصرى.

فالسودان ترتبط حدوده مع شمالا ومع اريتريا والحبشة شرقا ومع أوغنده والكنغو فى الجنوب وفى الغرب مع دولة تشاد وتفوق مساحة السودان ضعفى مساحة مصر ولذلك تباعدت خطوط العرض فى بلاد السودان وكان لهذا التباعد نتائجه فى تنوع الظواهر المناخية والحياة النباتية

والحيوانية والبشرية وتعددت النواحى الحضارية الريفية الصحراوية كما تنوعت المجتمعات البشرية وتعدد الاقتصاد.

فيوجد على النيل العظيم المجتمع الحضرى وفى جبال النوبة فى جنوب شرق كردفان المجتمع القبلى وكذا عند روافد النيل الجنوبية .

كذلك يوجد المجتمع الرعوى والمجتمع الزراعى. وتتداخل المناطق فى السودان . فهضبة السودان المستوية يجرى فيها نهر النيل وروافده ويحيط بها المرتفعات من الشرق والجنوب ومجموعة متعددة من التلال منها مرتفعات النوبة التى فى جنوب شرقى كردفان.

ويحيط بنهر النيل الذى يجرى فى هضبة السودان الصحراء التى تمتد على شاطئه من الشرق كما تمتد من الغرب حتى حدود المحيط الأطلسى فى أقصى الغرب.

وتعلو أرض الصحراء التى تغطيها الرمال والحصى بعض التلال التى لايزيد ارتفاعها عن بضع مئات من الأمتار وهى متناثرة، تبدو متباعدة أحيانا وتتقارب أحيانا أخرى تشكل سلسلة جبال متتالية.

وتختلف شكل الأرض فى الناحية الشرقية فهى عند البحر الأحمر صخور صلبة بلورية الشكل وتصل فى ارتفاعها إلى آلاف الأقدام مع الانحدار الفجائى الشديد إلى الداخل وتمتد حتى تربط مرتفعات الإقليم المصرى من ناحية والإقليم الأريترى من ناحية أخرى

على أنه يوجد سهل ساحلى ضيق يفصل تلك التلال عند ساحل البحر كما توجد روافد مثل العلاقى. هذا بينما يغطى مظهر الصحراء ناحية

الغرب الذى تمده المياه الجوفية من ينابيع تشكل واحات تسليمه ونخيله والعطرون، فى هذا الجزء الغربى يوجد وادى الملك الجاف الضحل الذى يتراوح عرضه بين ميل وميلين وينتهى إلى النيل قرب بلدة الدبة، كما يوجد وادى المجدم وينتهى عند بلدة كورتى.

ويبدأ من النيل الأبيض فى الجنوب فى هذا المجال الصحراوى إقليم رملى التربة ويمتد نحو الغرب حتى دارفور تتخلله بعض التلال التى يوجد بها بعض الأودية التى تخفيها الرمال شمالا.

والسودان الشمالى ويقع بين وادى حلفا والخرطوم. أما فى السودان الأوسط ويقع بين الخرطوم وحوض نهر السوباط وبحر الغزال فتبدأ التربة السوداء التى تشمل كل منطقة السودان الأوسط والتى تمتد من الشرق حتى تضم كل الأجزاء الجنوبية منكسلا. كما تشتمل على البطانة فيما بين النيل الأزرق وعطبرة وهى منطقة خصبة التربة تسقط بها كمية من الأمطار تكفى لإقامة بعض المزروعات وبه مراع واسعة على شاطئ النيل ونهر عطبره ويزرعون الحبوب والقطن.

والسودان الجنوبى الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبى لنهر النيل.

وفى الجنوب إلى حوض نهر بحر الغزال يوجد حوض مستوى السطح تشقه عدة روافد مجارى مياه تفيض مياهها على جوانبها وتعطى مظهر المستنقعات وهى تعرف بمنطقة السدود وبعض هذه المجارى تواصل سيرها حتى بحر الغزال أو بحر الجبل. وهذه الناحية الجنوبية من السودان تغطيها الحشائش والأدغال.

أما منطقة المستنقعات فتغطيها الغابات والبردى وبعض الحشائش الأخرى. وترتفع بعض أجزاء فى المنطقة يبنى عليها سكانها قراهم وير عون أغنامهم ويزرعون بعض البقاع ومنه من يشتغل بصيد الأسماك ويصطادون فى الغابات.

أما عن المناخ فى السودان فهو يتدرج من المظاهر الصحراوية فى الشمال المناخ الجاف شديد الحرارة إلى المظاهر المدارية فى الجنوب حيث المطر الغزير وحيث الرطوبة فتقل درجة الحرارة عنها فى الشمال.

وتتعرض سهول السودان لنوعين من الرياح فتهب الرياح التجارية الشمالية الشرقية من صحراء العرب فى شهر نوفمبر وتستمر حتى شهر أبريل.

ثم تأتى الرياح الجنوبية المشبعة بالأمطار من شهر مارس حتى يبلغ الذروة فى شهرى يوليو وأغسطس ثم يقل تدريجيا حتى شهر نوفمبر، بينما يأتى الجفاف فى ديسمبر ويناير وفبراير.

والمطر أهم العوامل المناخية فى السودان وذلك بسبب وجود مناطق كثيرة لاتنتفع من مياه الأمطار وروافده وتزرع أرضها بالأمطار بما يزيد عن ثمانية فى المائة من أرض السودان المنزرعة وحيثما تكثر الأمطار يكثر ازدحام السكان، وحيث يقل المطر تقل كثافة السكان وتختفى حرفة الرعى للإبل والماشية، وتكثر الأمطار كلما كان الإتجاه جنوبا، كما يطول موسم الأمطار.

أما فى منطقة الخرطوم فيتمد موسم الأمطار من يونيو إلى أغسطس.

أما فى أقصى الجنوب فى جوبا فيمتد من فبراير إلى نوفمبر ويستمر المطر مدة أربعة شهور فى واد مدنى.

وفى السودان الشمالى حيث تمتد السهول الشرقية ناحية البحر الأحمر فيزرع الذرة فى تلك السهول وعلى شواطئ النيل وتسكنه قبائل البجة . كما تكثر المراعى فى تلك النواحى التى ينتقل فيها الرعاة من ناحية إلى أخرى للرعى.

وتكثر فى السودان الجنوبى وتغطيه الحشائش والأدغال وفى جنوب نهر السوباط وبحر الغزال.

ويتحول فى الجنوب إلى مستنقعات تغطيها الغابات والبردى والحشائش التى تتسبب فى فقد كثير من المياه المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الغزال.

السكان:

الزنوج هم سكان السودان الأصليين وهم العنصر الأسود(السود) على أنه دخل السودان جماعات من الحبشة ومن بلاد العرب شرقا ومن مصر وشمال أفريقيا (بربر) شمال وغربا. على أن قدوم تلك الجماعات إلى بلاد السودان كان بغرض التجارة والعبيد. وكان لدولة المرابطين دور فى نشر الاسلام فى أفريقيا وامتداده من جنوب غرب المغرب الأقصى من موريتانيا إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكانم من الملثمين الذين دخلوا فى الاسلام ثم قاموا بحمل لواء نشر الدعوة الاسلامية وتمكنوا من فترات رحلاتهم للتجارة من تغلغل النفوذ الاسلامى من تشاد إلى غرب السودان

وأرض النوبة. كما أن الكتلة الكبيرة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت فى فزان وهاجرت إلى اقليمى وادى دارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها عرب الشوا وهم رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان اسلامات وخزام والجعادنة والمحاميد والدكاكير ثم بعد ذلك أولاد سليمان وهؤلاء أقاموا مملكة اسلامية فى اقليمى دارفور ووادى حوالى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.

على أن القبائل العربية التى اندفعت إلى أرض النوبة ونزلتها، وبقى بعضهم فى دنقلة ثم واصلوا سيرهم مع النيل حتى وصلوا إلى النيل الأبيض ثم اتجهوا إلى الجنوب بغرب منتشرين فى أرض كردفان.

أما سكان جبل النوبا فهى تعد وحدة جنسية من سلالات الفنج التى تمتد إلى دارفور وحتى نيجريا وساحل الذهب (غانة) حيث كانت إقامتهم فى مناطق جبلية عالية تحول بينهم وبين الامتزاج مع العنصر العربى فى تلك المناطق.

وينقسم السودان إداريا تسع مديريات هى المديرية الشمالية وعاصمتها دنقلة ومديرية الخرطوم وعاصمتها أم درمان ومديرية كسلا وعاصمتها كسلا ومديرية كردفان وعاصمتها الأبيض ومديرية دارفور وعاصمتها الفاشر ومديرية النيل الأزرق وعاصمتها واو ومديرية أعالى النيل وعاصمتها الملاكال والمديرية الاستوائية وعاصمتها جوبا.

والزنوج قبائل كثيرة من الشلك غربى النيل الأبيض عند بحيرة نو فى قرى متسلسلة لكل قرية شيخ ولكل مجموعة من القرى ناظر وأفرادها أقوياء وشجعان طوال القامة أما قبائل الدنكا فتسكن شرقى النيل الأبيض

سود الوجوه وهم أجمل الزنوج شكلا. أما قبائل النوير فتقيم فى بحر الغزال وبحر سبت فى منطقة السدود والمستنقعات والجزر ثم النوبة التى تسكن أفرادها جنوبى كردفان وأجسامهم عارية.

ويحترف الزنوج الذين يطلق عليهم اسم العبيد أو السود أو النجرو الصيد وتربية البقر والماشية ولكل قبيلة لغة ساذجة قليلة الألفاظ وهم فى غالبيتها وثنيون.

أما الصحراء الشرقية بين النيل وساحل البحر الأحمر فهناك قبائل البجة وهم أيضا بقايا شعوب إيثيوبيا القديمة ويقال أنهم من سلالة أولاد كوش ابن حام بعد الطوفان وكانوا وثنيين ثم صاروا مسلمين وفى البجة قبائل العبابدة ويتصلون بالسودان والبشارية من القصير إلى سواكن والاحرار والهندوة وهم أقوى البجة بين خوربركة والعطبرة وطريق بربر سواكن وقبائل بنى عامر والحباب.

كما أن سكان الجزيرة العربية من نزح إلى السودان فى تاريخ بعيد، غير أن نزوح القبائل العربية كان أوضح واكثر فالعرب الذين سكنوا السودان بعد الاسلام هم أكثر السكان عددا وأوفرهم حضارة وذكاء وعلما.

ففى عهد الخليفة عثمان بن عفان اتجه عبد الله بن أبى سرح بحملة عسكرية إلى أرض النوبة حتى دنقله وعقد مع أهل النوبة معاهدة اشترط عليهم فيها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون فى دنقلة وحماية المسلمين الذى يقدمون إلى النوبة وقد مهدت هذه الخطوة للعرب التوجه إلى أرض النوبة والعيش فى تلك الأراضى فى بلاد مريس بأرض السود وبأرض المعدن ببلاد بجة فى شرق السودان.

وفى العصر العباسى فى عهد الخليفة المعتصم حرم العرب من المرتبات التى كانت تدفع لهم كجنود، ونزل جماعات من عرب بلى وجهينة ومن اليمينية إلى أرض المعادن أرض المعادن ارض البجة وفى عهد المتوكل العباسى نزلت قبائل من ربيعة كذلك.

وقد منعت هذه الهجرات العربية قبائل البجة - سكان شرق السودان - من الاغارة على الصعيد كما تمت مصاهرة بين العرب من ربيعة والبجة وصارت معادن الذهب بالعلاقى فى أيدى العرب الذين اتسع نفوذهم وكثرت أموالهم وصارت لهم مكانة فى بلاد البجة وبنوا القرى وحفروا الآبار وعمرت بهم المنطقة وكثر العرب من مضر من بنى سليم وغيرهم وفى العصر الفاطمى. دخل جماعات من بنى قره بلاد النوبة بعد خلاف وقع بينهم وبين الحكام الفاطميين واستقروا بها بعد خلاف وقع بينهم وبين الحكام الفاطميين واستقروا بها.

وفى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم حصل زعيم ربيعة بشر بن اسحاق من الخليفة الحاكم على لقب كنز الدولة مكافأة لوفائه للفاطميين.

وفى العهد الأيوبى

اختلف الأيوبيون وبنى الكنز فانسحب بنو الكنز من مصر واتجهوا إلى الجنوب واستقروا فى بلاد مريس وهؤلاء هم جماعة الكنوز الذين فى بلاد النوبة لم يخرجوا منها وظلوا على حالهم لاينازعم فيها أحد.

وفى العصر المملوكى

ظهرت حركة المقاومة العربية التى قادها الزعيم العربى حصن الدين

ثعلب الذى قال ان العرب هم أصحاب البلاد ومنع الأجناد من تناول الخراج باعتبار أن العرب أحق بالحكم من المماليك.

جمع حصن الدين العرب الذين بلغ عددهم اثنى عشر الف فارس وحارب بهم المماليك بقيادة عز الدين أيبك سلطان المماليك.

وقامت المعارك الحامية بين العرب والمماليك وانتهت بخروج العرب من مصر فاتجهوا إلى بلاد السودان ، فكاثروا هناك أهل البلاد حتى صار لقبائل بلى وجهينة ومجيد ومهرة وجيدان من اليمينية الغلبة على بلاد النوبة.

وفى عهد السلطان المملوكى قلاوون وصلت جهينة كما جاء فى نسب السودانيين إلى مايزيد على خمسين قبيلة على النيل الأزرق حتى تونس. واستقر بعضهم فى الجزء الممتد من الجنوب إلى كردفان ودارفور.

وفى غرب السودان يوجد جماعات تنتسب إلى الهلاليين أو إلى أبى زيد مثل التنجور والفور والزريقات وهلالية البرق والزيادية وقد نتج عن التمازج بين العرب والسودانين صعوبة التمييز بينهما.

كما أن هناك جماعات من قبائل بنى سليم وبنى فزارة تعرف باسم بنى سليم وتنتهى إلى مجموعة البقارة وتعيش على النيل الأبيض من الناحية الغربية فى كردفان. ومن قبائل فزارة القيسية التى فى شرق ووسط كردفان فتتألف من دار حامد وبنى جرار والزيادية والبزعة والشنابلة والمعاليا. ثم انتسب الزياديون فيما بعد إلى أبى زيد الهلالى.

أما البزعه فقد قدموا من شمال أفريقيا كما قدمت قبائل هوارة من

صعيد مصر إلى السودان ونزلوا في شمال السودان وغالبيتهم بدو رحل ومنهم من استقر في دنقله، وترحل هوارة في فصل الامطار بقطعانها إلى غرب السودان ويقومون بالرعي مع الكبابيش من وادى الكاب إلى حدود دارفور. ثم يعودون إلى الشرق في فترة الجفاف.

ويعيش جماعة أخرى من هوارة بالقرب من الأبيض في كردفان حول خمي وأم دليكه وقد اختلفت سحنة بعض هوارة من العناصر الزنجية لشدة إختلاطهم بهم.

أما قبيلة قريش فإنهم كانوا أكثر إندماجا مع عرب السودان من غيرهم. فمنهم البكريون والعمريون والزبيريون والطالبيون والعباسيون والأمويون.

على أنه يمكن تقسيم العرب في السودان إلى ثلاث فرق جهينة والطالبيون والعباسيون، على أن أكثر الطالبين يجتمعون في ركاب غلام الله بن عائذ أما العباسيون فتجمعهم قبائل الجعليين على أن غالبية عرب السودان تنتسب إلى جهينة.

ومن القبائل التي تنتسب إلى جهينة الشكرية ومن قبائل قريش من جاء السودان من مصر ومنهم من جاء من بلاد المغرب العربي.

ومن القبائل التي تنتسب إلى أبي بكر الصديق قبيلة نجد المسلمية، كما أن هناك جماعات تنسب نفسها إلى البكرية وهؤلاء يعيشون في الجزيرة وعلى ضفتي النيل الأبيض، وغالبيتهم يمارسون الزراعة ومنهم شعبه تمارس البداوة وتعيش في البطانة.

واشتهر الجعليون وهم أكثر عددا فى السودان بأنهم عباسيون ويعيش الجعليون على نهر النيل فى المنطقة بين الخرطوم وبلاد النوبة وفى شعب وفروع البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ونحو الغرب إلى كردفان والغالب أنهم أتوا إلى السودان من مصر.

وسكن الطالبيون وادى الكنوز ووادى النوبة إلى حدود دنقلة ويبدو أن هناك صلة تربط بين الطالبيين والكنوز ثم قدم إليهم جماعات منهم الجوابرة والغربية وجاوروهم.

أما قبائل الركابية فيسكنون أواسط بلاد المحسن فى دنقله وينتسبون إلى جد من نسل الحسين بن على بن أبى طالب وهو ركاب بن غلام الله. وقد هاجر هؤلاء إلى غرب السودان.

أما الجعافرة فقد نزلوا بلاد المحسن ومنهم جماعة تعيش فى كردفان ولها اتصال بالجوامعة والعليقات وهى عشيرة كانت فى وادى العلاقى فى أرض المعدن ومنهم جماعة سكنت بين المضيق وكدسكو ومنهم جماعة الصوارة فى بلاد المحسن.

أما أسرة سوار الذهب من البيت الهاشمى فقد عاشت فى دنقله. وأما جماعة الفادنية فقد سكنت فى بوحصين وهؤلاء يرجع نسبهم إلى محمد بن الحنفية.

على أن جماعات كثيرة فى أنحاء متفرقة فى السودان تنسب إلى قريش منهم العبابدة وهم من نسل الزبير بن العوام ويتصلون بالكواهلة والعبابدة والكواهلة من قبائل بطحاء مكة وقد هاجروا من مصر إلى غرب

السودان ولهم فى كردفان اثار. ثم اشتغلوا بالرعى وهم جماعة القنن أبناء عمهم، ونزلوا بالضفة الشرقية للنيل شرقى الجريفات وإلى مابعد شرقى الحلفاية شمالا وملوك سنار (الفونج) وهم أيضا من قريش وهى أول سلطنة اسلامية فى السودان، ظل الفونج يحكمون على مدى ثلاثة قرون منذ بداية القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى وهم من بنى أمية وهم ممن جاء من الغرب ويحتمل من الجنوب من الحبشة حيث أن الكانم والبرنو يذكرون أن جماعة من بنى أمية قدمت إليهم عقب تتبع العباسيين لبنى أمية.

ومن قريش أيضا قبيلة كنانة بن خزيمة ويذكر أن كنانة ممن نزح إلى السودان فى عهد المماليك قدمت كنانة إلى السودان بزعامة منصور ومنهم تشعبت بطون كنانة الستة منهم أولاد سوار، وسكنوا سواكن ثم غادروها إلى دنقلة واستقروا بها وقتا ما ثم افترقت جماعتهم فذهبت جماعة منهم إلى كرن جنوبى تقلى فى كردفان وذهب أخرون إلى الكبابيش، واستقر آخرون منهم وهم الغالبية فى شرقى النيل الأبيض وظلوا بها لم يبرحوها .

لقد تحول السودان الشمالى ليكون موطنا للقبائل العربية وبقى السودان الجنوبى كجزء من الجنس الزنجى فى أفريقيا. ففى السودان الشمالى شبه الصحراوى توجه جماعات حامية، وتتباين هذه الجماعات من ناحية التنقل والإقامة فهى مستقرة أحيانا مثل الكتورة والدناقة والمحسن والسكوت.

وفى المديرية الشمالية يعيش الناس على جانبى النيل فيما بين حلفا وبربر. أما الجماعات المتنقلة مثل البشارية والأدرار والهدندوة فهم يعيشون

فى صحراء عتاباى ومرتفعات البحر الأحمر وقد امتزجت النوبة فى شرق السودان بالبجة ومع العرب. ويتحدث البشارة والبجة العربية. والبجة عادة قوم رعاة ومنهم أيضا من يعمل بالزراعة فى دلتا الجاشى ودلتا طوكر وأيضا فى بور سودان.

أما السودان الأوسط، فيوجد العرب فى مديريات الخرطوم وكردفان ودارفور وجنوب كسلا فى الجبل الأبيض، ويعيش بعض الأجناس الأخرى فى تلك المناطق مع العرب مثل زغاوه والفور يعيشون فى دارفور والماليت وتعيش جماعات ميدوم فى جبال ميدوم.

وتقوم الجماعات العربية فى الشمال برعى الإبل بينما يعمل أخرون فى الحواف الجنوبية برعى الأبقار.

أما مجموعة جهينة من قحطان فهى:

أ) مجموعة رفاعة واللحويون والعوامرة والخوالدة والشكرية وهم يعيشون فى مديرية النيل الأزرق وفى البطانة.

ب) مجموعة دار حامد وبنى جرار والزيادية والبزغة والشانبلة والمعاليا ويعيش هؤلاء فى مديرية كردفان فى المناطق الشرقية والوسطى.

ج) مجموعة الدويحية والمسلمين والبقارة والمحاميد والماهرية ودارفور وبعضهم مثل الدويحية والمسلمية تعيش فى أرض الجزيرة ومديرية النيل الأزرق، على أن البقارة الذين فى كردفان تتشعب منهم بنى سليم وأولاد حميد والهبانية والحوازمة والمسيرية والحمر والمسيرية الزرق.

أما البقارة الذين فى دارفور فتتشعب إلى الزريقات الهبانية والتعايشة

وتنقسم الكبابيش الذين حول وادى الملك إلى عدة قبائل:

وفى جنوب السودان:

يعيش البقارة فى منطقة وفيرة الزرع والمطر وهم يرتحلون كرعاة للبقر فهم يعيشون فى الشتاء الجاف على ضفاف بحر العرب فى الأطراف الجنوبية لدارفور وكردفان أما فى فصل الأمطار حيث تتحول المنطقةإلى مستنقعات.ويهاجم الذباب الماشية فحينئذ يتجهون صوب الشمال ثم إذا انتهت فترة الأمطار فإنهم يبدأون فى الاتجاه صوب الجنوب إلى بحر العرب فيتقابلون مع النيلين ـ سكان مجارى أعالى النيل ـ من الدنكا والنوير والشلوك وينتشرون فى مديرتى بحر الغزال وأعالى النيل، ويعيش قبائل النوير والدنكا فى المرتفعات بعيدا عن المجرى المائية التى تغمر الأرض فى فصل الفيضان ثم ينحدرون متجهين إلى الأرض المنخفضة بعد انحسار المياه فى فترة الجفاف وتنمو الحشائش فيرعون فيها ماشيتهم.

فقبائل الدنكا تعيش حياتها بين الأراضى المنخفضة والأراضى المرتفعة التى يبنون فيها بيوتهم حماية لهم من مياه الفيضان التى تغمر الأرض المنخفضة فى فصل الأمطار ويعودون إلى الأرض المنخفضة فى فترة الجفاف حيث يقومون بزراعة الأرض خلالها.

على أن اعتماد القبائل النيلية فى الجنوب على الأمطار بشكل عام على الرغم من عدم انتظام هطول الأمطار خلال العام. ولاتقوم تلك القبائل بالاستفادة من لحم ماشيتها وانما تستخدمها للمبادلة بالحراب.

وأما قبائل النوبا التى فى جنوب السودان فهى مستقرة وتعمل بالزراعة.

*****

الدور العربي في تعريب السودان في العصر المملوكي

القت الدولة الأيوبية بكل ثقلها لحماية الثغور المصرية الشامية من الخطر الصليبي ولكن الحدود الجنوبية لمصر لم تلق مثل تلك العناية إلى حد أنه أهمل شأن الحامية العسكرية التي كانت قائمة على الحدود عند أسوان مما أدى إلى قيام ملك النوبة بشن غارات على المناطق الملاصقة لحدود مصر الجنوبية وتمكن من أسر جماعة من أهلها.

حقيقة أن الخطر كان يجئ دائما لمصر من الشمال أو الشرق إلا أن الجنوب كان أيضا في حاجة إلى عناية الدولة وحمايتها لأهله. أما في عصر دولة المماليك فقد اسبغت الدولة عنايتها واهتمامها بحدود مصر الجنوبية، ونشطت العلاقات بين مصر والنوبة، فكان لمصر دور فعال في حماية عرش النوبة من مغتصبيه.

ومن الجدير بالذكر أن القبائل العربية في مصر شاركت في هذا العصر في الحملات الحربية ضد النوبة.

ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٥-٦٧٦هـ/١٢٥٧-١٢٧٧م) وقع صراع بين شكنده ملك النوبة وبين خاله داود على العرش عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م واستطاع داود إبعاد شكنده عن عرش النوبة فلجأ إلى مصر واستنصر بالظاهر بيبرس لإعادته إلى العرش ولما كان ملك النوبة الجديد يسعى جاهدا إلى توسيع رقعة ملكه واتجه بالفعل إلى جنوب مصر مهددا حدودها فقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين مصر والنوبة وعزم الظاهر بيبرس على مواجهة داود، وسبق ذلك لقاء تم بين شكنده ملك النوبة المخلوع والظاهر بيبرس في مصر وفي هذا اللقاء عرض شكنده على

الظاهر طلبه فقبل الظاهر معاونته ، فجهز حملة عسكرية شاركت فيها القبائل العربية بالوجه القبلي.

خرجت الحملة من اسوان وتقابلت مع الجيش النوبي بقيادة الملك داود ووقع القتال بين الفريقين ثم تمكن العرب والمماليك من إيقاع الهزيمة بالملك داود وإعادة شكنده إلى العرش، ثم وقع شكنده في مقابل ذلك وثيقة يتعهد فيها ببذل جزية سنوية لمصر.

وقد نصت الوثيقة على أن تكون الحصون المجاورة لأسوان ملكا لمصر، وأن يعين نائبا للسلطان شرط على النوبيين طاعته ويطلق سراح الأسرى المصريين الذين كانوا محتجزين بالنوبة.

وهكذا شارك العرب في حملات الدفاع عن حدود مصر الجنوبية. واسهموا في بسط سلطان مصر على بلاد النوبة وافتتاح عدد من المدن الواقعة من أعلى الجزائر حتى بلاد العلي (١) .

في عهد المنصور قلاوون (٦٧٩-٦٨٩هـ/١٢٨٠-١٢٩٠م) عاد ملك النوبة إلى شق عصا الطاعة على مصر فاضطر السلطان لتجهيز حملة مملوكية لتأديب ملك النوبة وإخضاعه. واشترك في هذه الحملة أيضا قبائل العرب من أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد الشريف شعبان وأولاد الكنز وبني هلال وغيرهم وقد تمكنت الحملة من إيقاع الهزيمة بملك النوبة وأسره وتعين ملك آخر على البلاد وأعادت مصر فرض الجزية السنوية عليها على النحو الذي كان جاريا في عهد بيبرس.

---

(١) بلاد العلي علوه وهي المعروفة ببلاد النوبة العليا وكانت قاعدة مدينة (سوبة) الواقعة على النيل الأزرق جنوبي الخرطوم بمسافة ٢٤كم النجوم الزاهرة، جـ١ صـ١٨٩ .

وفى عـام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م أضطرت الظروف السلطان قـلاوون إلى ارسال حملة أخرى إلى بلاد النوبة وبلغ عـدد من اشتـرك من العرب فى هذه الحملة أربعون ألف من عرب الوجهين القبلى والبحرى وقد نجحت هذه الحملة المصرية من تحقيق أهدافها فانتصر المماليك على النوبيين وتتبعوا ملك النوبة إلى مابعد مدينة دنقله بمسيرة خمسة عشر يوما وعادت الحملة الى مـصـر فى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م بعد أن تمكن قادتها من تنصيب اسرة الملك داود عرش النوبة وإقرار الجزية السنوية لمصر .

وفى عهد الناصر قلاوون (٦٩٣ـ٧٤٠هـ/١٢٩٣ـ١٣٣٩م) قامت حملة حـربية من مـصـر عـام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م بناء على طلب من ملك النوبة (إياى) الذى قدم بنفسه إلى مصر وقد اشترك فى هذه الحملة جماعة كبيرة من العرب. وكان نتائج تلك الحملات الحربية انتشار العرب فى بلاد النوبة واستقرارهم فى تلك البلاد وقيام علاقات مصاهرة بين العرب والنوبيين وأخيرا انتقال ملك النوبة إلى العرب.

وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله «ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم واستوطنوها وملكوها »[1].

كان تغلب العناصر العربية وانتشارها بالسودان عاملا رئيسيا من عوامل الاستقرار الدائم الذى لم يساعد على تأمين الحدود الجنوبية لمصر ضد غارات النوبيين فحسب بل ساعد أيضا على تعمير وتأمين بلاد النوبة نفسها وحمايتها من الغزو العثمانى الذى تعرضت له مصر والشام، ولم تنج من مساوئه.

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٥ ، صـ ٤٩٨.

في أوائل القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى أرسل السلطان سليم العثماني إلى الملك عمارة دنقس (٩١٠-٩٤٠هـ/١٥٠٥-١٥٣٤م) يدعوه إلى الدخول فى طاعته أو اعلان الحرب عليه، و قد واجه الملك العربي الموقف بشجاعة فأرسل إلى السلطان العثمانى فى كتابا يرغبه فيه عن حرب أهل السودان لأنهم مسلمون يدينون بدين الاسلام وليسوا على استعداد لتقديم جزية سنوية لأنه ليس لديهم مايقدمونه، ثم ارفق بكتابه كتابا بأنساب قبائل العرب فى تلك المنطقة. وقد عدل السلطان العثمانى عن عزمه وانسحب بغير حرب. وبهذه الشجاعة العربية امكن تجنيب البلاد حالة الحرب حيث قبل السلطان سليم دفاع ملكها وانسحب دون إراقة نقطة دم واحدة.

وهكذا تحقق الأمن لمملكة سنار، وكذلك ساهم العرب فى تعمير البلاد فإن مدينة سنار نفسها إنشاء الملك عمارة وقد بلغ انتشار العرب واندماجهم بالمصاهرة مع النوبيين إلى الدرجة التى لايمكن عندها تفرقة العربى عن النوبى إذ أن الجميع أصبحوا يتكلمون العربية وهى لغة الكتاب عندهم ولايوجد لغة غيرها وهم يتكلمون بلهجة حسنة.

ومن القبائل العربية فى السودان خمير وربيعة وبنو كاهل وبنو ذبيان وبنوعبس وفزارة وبنو سليم وأغلبها من القبائل التى كانت بمصر ثم هاجرت إلى السودان واستقرت به.

ومن مناطق استقرار العرب نجد أنه فى جزيرة (أبا) شرقى النيل الأبيض وغربيه نزلت كنانة وسكنت سليم فى جنوبهم وفى بلاد أبى حراز وعبود و ود مدنى سكن العراكيون من بنى جعفر الطيار وسكن معهم

الكواهلة وينتسبون إلى الزبير بن العوام وفى شرقى وغربى النيل الأرق سكن العلاطيون وبنو حسين واللحويون والقواسمة الحمده والعقيليون وجميعها تنتسب إلى جهينة ويتضح مما سبق أن القبائل العربية التى هاجرت من مصر فى عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية هى التى قامت بمهمة تعريب السودان. وظلت بلاد السودان منطقة جذب للعرب المقيمين فى صعيد مصر حتى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى. وهكذا بفضل جهود العرب أصبحت الحدود الفاصلة بين مصر والسودان منطقة عبور آمنة للطرفين. وبواسطتها كان يتم التبادل التجارى وأنواع النشاط الأخرى المختلفة. وازدهرت الهجرة للعلم بالأزهر بالقاهرة بجانب نشاط المصلحين من أفراد القبائل العربية وتطور دور القبائل العربية فى التعريب حتى أصبح السودان فى القرن الرابع عشر الهجرى/ العشرين الميلادى عربيا فى لغته مسلما فى دينه.

*****

الدين:

انتشر الاسلام فى شمال السودان وصارت الغالبية مسلمين سنة، كما انتشر فى غرب السودان أيضا إلا أن غالبية غرب السودان من الوثنيين ويوجد عدد محدود من المسلمين والمسيحيين.

وتقوم بارساليات التبشير فى السودان كما توجد بعض البعوث الاسلامية.

على أن الاتصال بين الشمال والجنوب مستمر وغير منقطع مما يبشر بوحدة السودان المستمرة.

على أن السودانيين قد أقبلوا على الدين الاسلامى بقلوب متفتحة وراغبة. وقد عرف السودان المسيحية فى النوبا السفلى وظلت هناك حتى بداية القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى ثم أقبلت القبائل العربية من الشمال إلى الجنوب وتتبعوا مجرى النيل حتى وصلوا إلى النيل الأبيض. ثم ساروا إلى الجنوب ثم إلى الغرب فى أرض كردفان. وللجنوب بشرق مع مجرى العطبرة والنيل الأزرق فى البطانة ثم فى الجزيرة.

ونزل الخوالد بها حول كابوشين والجعليون حول شندى والجوامعة على النيل الأبيض وتحولت رفاعة فى الجزيرة خاضعة لحكم الفونج. كما سارت البقارة مع النيل إلى أن وصلوا دنقلة ثم اتجهوا غربا إلى دارفور. ثم تحول جماعة منهم نحو الشرق.

كما أن الجمراء الكبابيش التى اختلطت بغيرها من الأهالى مما أثر فى حركة تعريب السودان بشكل سهل انتشار الاسلام فى انحاء مختلفة من

البلاد.

كذلك قامت ممالك اسلامية فى انحاء السودان منها سلطنة دارفور ١٠٤٧ـ١٢٢٠هـ/ ١٦٣٧ـ١٨٠٥م التى قامت فى غرب السودان بجهود من الكنجارة القادمين من إقليم بحيرة تشاد ومملكة تقلى التى أقامها جماعة الجموعين فى جبال النوبا السفلى فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى وبقيت هناك حتى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى. وقد أخذ المسجد دوره فى نشر العقيدة الاسلامية فى ربوع السودان فالمسجد هو الاساس الأول لكل نهضة واصلاح فى إطار الأمة الإسلامية التى اشرفت على الدنيا من خلال المسجد شمس هداية ونور ومعرفة ورائد حضارة منذ أربعة عشر قرنا فللمسجد دور هام ورسالة عظمى فى بناء الأمة بناء قويا سليما يضطلع عن جدارة واستحقاق باعباء نشر الدوة وإيصالها إلى كل البشر لسعادة الإنسان.

فالمسجد قلوب متعاطفة عامرة بالإيمان وقلوب وعقول نيرة تنعم بالعلم والمعرفة وأرواحا تصقل وتهذب وجنودًا يهتمون برسالة التوحيد الاسلامية.

لقد امتزج الاسلام بواحدنيته وبسيادته وارتبط السودانيون بعقيدتهم الاسلامية وصاروا يفخرون بها وصار ولاوهم كبيرا لديهم ونظروا إلى الحياة نظرة اسلامية صحيحة حتى اجتذب الصالحون انتباه الناس لقيادتهم وقد ساعدت جماعات الصوفية التى ظهرت فى السودان والتى من أهمها:

الطريقة الميرغنية:

اسسها الإمام ابو عثمان الميرغنى فى١٢٠٨-١٢٧٠هـ /١٧٩٣-١٨٥٣م) الذى قام برحلات في جنوب السودان ونشر الطريقة الميرغنية (الختمية) كما انتشرت فى شمال وشرق السودان.

الطريقة المجدوبية: (١٢١١-١٢٤٨هـ/١٧٩٦-١٨٣٢م)

التى اسسها محمد المجدوب الصغير.

الطريقة الادريسية : التى أسسها الشيخ ابراهيم الرشيدى فى عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م.

هذا ويرجع الفضل فى ظهور الطرق الصوفية الثلاثة إلى تلاميذ السيد أحمد بن ادريس الفاسى المتوفى ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م والطريقة القادرية الجيلانية التى أنشأها الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى ٥٦٢هـ/١١٦٦م والتى قام بادخالها الى السودان تاج الين البهارى.

التيجانية:

التى أنشأها احمد بن محمود بن المختار التيجانى وهى منتشرة فى غرب أفريقيا.

الدعوة السنوسية:

وهى الدعـــوة التى نادى بهـــا مـــحـــمـــد بن على السنوسى (١٢٠٢هـ/١٢٧٦ـ١٧٨٧/١٨٥٩م) وهو جــزائرى المولد ـ وهذه الدعــوة السنوسيـة هى أول مـراحل التـحـرر الاسـلامى المنظم والتى عـملت على تحقيق وحدة الشعوب الاسلامية.

لقد بلغ من نجاح الدعـوة السنوسيـة فى المغرب العـربى أن اتـخـذها شريف سلطان (وادای) بالسودان أساسا روحيا للمنطقة التى كان يحكمـها وهي منطقة متاخمة من الغرب لمديرية دارفور.

قـامت الدعـوة السنوسيـة بنشر الزوايا التى تعد منارات لنشر الدعـوة الاسلامية وخدمة المجتمعات الاسلامية ونشر العمران وتشكيل قوات مدربة عسكريا للدفـاع عن البلاد حـتى بلغت الزوايا السنوسيـة مـايزيد عن المائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان وطريق مصر وطريق واداى بالسودان. وقد سيطرت السودان جنوبا كما شارك دينار سلطان دارفور السودانية محمد المهدى السنوسى فى مقاومة الاستعمار الأجنبى.

الدعوة المهدية:

بدأ صاحب الدعـوة المهدية وهو محمد بن عبد الله بالالتحاق بالدعوة الصـوفيـة السـحـانيـة وهى فـرع من الطريقـة الخلوتيـة، وقد أدخل الطـريقـة السمانية إلى السودان الشيخ أحمد الطيب البشير، وحفيده الشيخ الفقيه محمد شريف نور هو استاذ المهدى محمد بن عبد الله (صاحب الثورة المهدية) اختلف المهدى مع الشيخ محمد الشريف شيخه فى الطريقة السمانية وجدد

عليه العهد.

ولد المهدى فى عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م ونشأ نشأة دينية فدخل الخلوة وتعلم القرآن وحفظه ودرس علوم الدين ومال إلى الزهد والتصوف ثم بدأ يدعو الناس لدعوته بأنه المهدى المنتظر الذى على يديه سيعود المسلمون إلى مجدهم القديم ويقهرون أعداءهم.

واتسعت الدعوة المهدية وكثر أتباعها ورأى ضرورة التحصن ضد الدولة فاختار منطقة تقلى فى مديرية كردفان فى جبل قدير وبذلك أمكنه التغلب على أعدائه من العسكر الانجليز، ثم اتجه المهدى إلى الأبيض وجعلها مقرا له وقد تحولت الدعوة المهدية إلى حركة سياسية.

ظل المهدى يكافح الإنجليز فى السودان حتى تمكن من التغلب عليهم وبسط سلطانه على السودان.

وفى عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م توفى المهدى بعدماعهد بخلافة نائبه عبد الله التعايشى لقيادة الحركة المهدية.

ظل عبد الله التعايشى يقاوم الانجليز إلى أن تغلبوا عليه فى عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م وخضع السودان للانجليز.

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢/ذى القعدة ١٣٧٢هـ أخذت هذه الثورة تعمل على مساعدة السودان فى الحصول على حريته واستقلاله والتخلص من الاستعمار وانسحبت القوات الأجنبية عن السودان.

واجريت انتخابات وتشكل برلمان وطنى وتكونت حكومة وطنية وأعلن استقلال السودان بعد أن تمت سودنة الوظائف وانضم إلى جامعة الدول

العربية ثم إلى الأمم المتحدة ثم وقع اضطراب فى بلاد السودان حتى قام فريق من الضباط بقيادة اللواء جعفر نميرى فى عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م الذى أعلن قيام جمهورية السودان الديمقراطية ثم شرع السودان فى الاتجاه لتقوية عرى الصداقة بين السودان وأشقائه من الدول العربية.

*****

الخاتمـــة

بدأ الفتح العربى للمغرب حيث انتقلت القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية إلى أرض المغرب وكانت غالبية تلك القبائل من عرب اليمن والحجاز وتبعتها الإمدادات الوافدة صحبة كل أمير جديد. مما أدى إلى إقامة مدن عربية كانت بمثابة مراكز تجمع لتلك القبائل فى المغرب.

وابتداء من القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى بدأت تفد كثير من القبائل القيسية المستقرة بالشام إلى المغرب فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٢م) بعد ظهور ثورات البربر والمنازعات العصبية القبلية فى عهد الدولة الأموية. وقد رأى الخليفة الأموى هشام أن يعدل من التكوين العربى فى بلاد المغرب للحد من سيطرة القبائل اليمنية التى كانت تمثل الغالبية من عرب بلاد المغرب خاصة بعد ماظهرت بعض المشاغبات القبلية فى المغرب وايجاد توازن فى نفس الوقت بين العناصر العربية اليمنية والقيسية. وبينهما وبين البربر مما يقلل من خطر قيام البربر بثورات تهدد النفوذ العربى فى بلاد المغرب.

ونتيجة لكثرة العناصر العربية ظهرت الدويلات العربية المستقلة بالمغرب فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى والتى قامت بتأسيس مدن عربية جديدة كما كانت مراكز جذب قوية للقبائل العربية سواء من خارج بلاد المغرب أو من داخلها للعمل بخدمة تلك الدول مما ساعد على نشر الحضارة الاسلامية فى المناطق التى خضعت لنفوذها كدولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م . والأغالبة بأفريقيا فى عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م واعتبار من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى خلفت

الدولة الفاطمية الشيعية هذه الدويلات العربية فى حكم بلاد المغرب واعتمد الفاطميون على أسر عربية خليقه تؤازرهم فأسندوا إلى بنى حمدون إدارة المسيلة والزاب والى الكلبين حكم جزيرة صقلية وعملوا على تشكيل بلاطهم من الوزراء والكتاب والقضاة من العناصر العربية وغيرها.

ثم جاءت الهجرات الهلالية في منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى حيث حركتها الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر تلك الهجرة التى نجحت فى نشر الدين الاسلامى واللغة العربية وتكوين الدويلات العربية المستقلة فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ببلاد المغرب فأتت الهجرات الهلالية لتعريب تلك القبائل البربرية وتعديل التكوين الجنسى والعنصرى لسكان المغرب ونتج عن امتزاج العرب والبربر أجيال أقوى شكيمة وأشد مراسا من أجدادهم. كما ساهموا فى نشاط الدول المغربية الاسلامية التى قامت بعد ذلك فى بلاد المغرب مثل دولة المرابطين التى شملت المغربين الأقصى والأوسط والصحراء وامتد نفوذها إلى الأندلس واستمر نحو قرن حتى منتصف القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وتلاهم الموحدون الذين وجدوا المغرب كله مع الأندلس فى دولة واحدة مدة قرن من الزمان ثم انهارت دولتهم وقامت على أنقاضها ثلاث دول مستقلة هى الدولة الحفصية بتونس وبنى عبد الواد بتلمسان والدول المرينية بفاس بالمغرب الأقصى .

وبينما اصطنعت قبائل البربر بعد اسلامها أنسابا عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية وتشارك فى الحياة السياسية الجديدة خلال الأربعة قرون الأولى للهجرة عمدت بعد ذلك بعض الدول المغربية ذات الأصل البربرى لأن تنشئ لنفسها خلافة خاصة تستند إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب

النبوى والأصل العربى لهذا قال الموحدون بانتماء خلفائهم إلى الرسول عن طريق الأدارسة واتخذوا اللون الأخضر شعارا لهم كى يظهروا ميلهم للدعوة العلوية. بينما زعم الحفصيون أنهم من سلالة الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب. ولقد حرصوا على الاعتزاز بهذا الأصل وإظهاره فى كل مناسبة ويظهر ذلك واضحا فى أقوال كتاب وشعراء تلك الدول بل لقد حرص ملوك وأمراء بنى مرين على مصاهرة القبائل العربية المقيمة فى المغرب فتزوجوا النساء العربيات واستخدموا فى الحجابة والكتابة رجال من ا لعرب. ولعل تلك السياسة العربية التى أنتهجتها تلك الدول المرينية كانت وازعا ضروريا لاكتساب الشرعية الكافية فى مواجهة جيرانها وأعدائها من الموحدين والحفصين وبنى عبد الواد الذين أدعوا لأنفسهم هذا الأصل العربى والنسب النبوى، كما اتخذوا أحلافا من القبائل العربية.

كما أن القبائل العربية لعبت دورا أساسيا فى صراع الموحدين مع بنى غانية (بقايا دولة المرابطين) والمماليك الغز الذين انتقلوا من مصر إلى أفريقيا. إذ قام العرب بمحالفة بنى غانية ومناصرتهم حتى بدأ أن دولة المرابطين تبعث من جديد فى أفريقيا بمعاونة القبائل العربية إلا أن الموحدين قضوا على هذا التحالف وتتبعوا بنى غانية بالقتل والتشريد. كما نقلوا القبائل العربية التى عاونت بنى غانية إلى المغرب الأقصى. حيث استقرت رياح ببلاد الهبط وجشم ببلاد تامسنا واستخدموا المماليك الغز فى جيوشهم.

ولاشك أن هذه الاضطرابات التى لعبت فيها القبائل العربية دورا واضحا أدت إلى تعيين أبى حفص واليا دائما على أفريقيا مما ساعد على قيام الدولة الحفصية المستقلة بعد ذلك.

كما ساهمت القبائل العربية بدور إيجابى فى السياسة الجهادية للدول المغربية ببلاد الأندلس فما أن استنجدت الأندلس ببلاد المغرب لمقاومة الغزو المسيحى بقيادة مملكة قشتالة حتى لبت تلك القبائل النداء للدفاع عن الأندلس .

وقد أشاد المؤرخون ببلاء الفرسان العرب فى موقعة إقليس فى عام ٥٠١هـ/١١٠٨م فى العهد المرابطى وفى موقعة الأرك فى عام ٥٩١هـ/١١٩٥م فى العهد الموحدى. وحتى حينما نجح القشتاليون فى الانتقام لهزيمة الأرك وتمكنوا من دحر الموحدين فى موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م كانت القوات العربية أخر من ترك ميدان المعركة وقام بعض فرسانهم بمعاونة الخليفة الناصر على الفرار.

وفى عهد الدولة المرينية ازدادت مشاركة القبائل العربية عند اشتراكهم فى الجيوش المرينية بل كانت جموعهم تشكل الجانب الأكبر من الامدادات التى وصلت من المغرب إلى الأندلس. ولم يقتصر دورهم فى العمليات الحربية على تنفيذ مايصدر إليهم من أوامر عسكرية بل شارك شيوخها كمستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لإبداء الرأى حول الخطط العسكرية وأسند إلى القبائل العربية حماية الممتلكات المرينية بالأندلس والدفاع عنها.

ونتيجة لقيام ثلاث دول متنازعة على أنقاص دولة الموحدين اضطرت كل دولة إلى الاعتماد على بعض هذه القبائل المستقرة ببلادها إعتمادا يكاد يكون تاما بحيث صار من الصعب استغناء ملوك هذه الدول عن الحفاظ على أمن بلادهم فى حالة تخلى تلك القبائل عنهم. فاعتمدت

الدولة الحفصية على قبائل رياح ثم قبائل بنى سليم وكرفه من عرب الأثبج بعد تمرد رياح عليهم. كذلك حالف بنو عبد الواد قبائل زغبة التى استقرت بالمغرب الأوسط وعرب ذوى عبيد الله وذوى منصور (المنبات وأولاد حسين والعمارنة) من المعقل.

أما الدولة المرينية فقد اعتمدت على القبائل المستقرة ببلادها بقيادة عرب سويد لاستعادة أملاك الدولة الموحدية سواء فى المغرب الأوسط أو فى أفريقيا خلال عهدى السلطان أبى الحسين المرين وابنه أبى عثمان فى الفترة من عام ٧٣١هـ/١٣٣١م إلى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م حيث يصل ملك المرينيين مابين برقة إلى السوس الأقصى.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن جميع القبائل العربية التى استقرت ببلاد المغرب تعطى الود خالصا للدول النظامية التى استقرت بأرضها، فما أن تضطرب الأحوال السياسية للدولة حتى نرى بعضهم ثائرين أو مؤيدين للحركات الخارجية عليها، ويلاحظ أن هذه القبائل بجانب ذلك منحوا تأييدهم ومساعدتهم لمن انتسب من الثوار إلى ذرية على بن أبى طالب لما لهم من مكانة فى نفوس سكان المغرب مما ساعد على انقسام هذه الدول بين أمرائها ثم سقوطها، إذ أن تقسيم أفريقيا بين عرب رياح وسليم أدى إلى انقسام الدولة الحفصية فى عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م إلى قسمين قسم شرقى عاصمته تونس ينعم بمحالفة عرب سليم المستقرين فى المنطقة من الممتدة من قابس إلى بونة ونفطة غربا وقسم غربى عاصمته بجاية يحظى بمحالفة عرب رياح المستقرين بالجانب الغربى بضواحى قسنطينة وأدى الصراع بينهما إلى ثورات العرب المتعددة وقيام الأسر القوية بتأسيس إمارات لهم تنعم بالحكم الذاتى بفضل موقعها المنعزل واعترفت بالإسم لا

بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت هذه الإمارات بمثابة جمهوريات صغيرة يحكمها مجالس من الأعيان العرب أو يلى أمرها أسر عربية من ذوى النفوذ العريض.

ولقد حاربت هذه الإمارات الحفصية طوال القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى تعاونها القبائل العربية المستقرة حولها. كذلك عادت قبائل الثعالبة وبعض عرب ذوى عبيد الله من المعقل وحصين وسويد من زغبة ودولة بنى عبد الواد بسبب ماكان لبعضهم من وضع متميز مع الموحدين حرموا منه بانهيار دولتهم.

وفى المغرب الأقصى استغلت القبائل العربية ضعف قبضة الدولة المرينية على أطرافها واستقلت بأوطانها ببلاد الهبط وتامسنا وتادلة والسوس.

ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعود مواطن استقرارها فى جميع انحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى إلى تطور مفاهيم القبلية العربية بالمغرب فيما يختص بالعلاقة التى تربط الرجل بالمرأة والزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى ورحلة الشتاء والصيف ومساكنهم وطعامهم وإختيارهم لشيخ القبيلة ومساعديه من وزراء ووكلاء وكتاب وغيرهم، وتأثرهم فيما يختص بالمعتقدات والعادات وتأثر ثقافتهم بطريقة التعليم فى المغرب لحاجة القبيلة المستمرة إلى الرئيس والوزير والوكيل والكاتب والمفتى لمساعدة زعيمها فى حكم القبيلة متأثرة فى ذلك بما شاع فى الجاهلية بشبه الجزيرة العربية وبطريقة حياة القبيلة البربرية ببلاد المغرب وبما أضافه الإسلام من قيم تربوية جديدة.

فإلى جانب المظهر الدنيوى الصاخب للقبيلة العربية ببلاد المغرب كان هناك مظهر آخر في حياة بعض رؤسائها وأفرادها الذين كرسوا حياتهم على عمل الخير ونشر العلم والدين وإقامة الزوايا والروابط والمساجد فى مختلف أنحاء المغرب، ويلاحظ أن هذه النزاعات الصوفية الإصلاحية لم تلبث أن أخذت تزداد انتشارا بمرور الوقت بين القبائل العربية فبعد أن كانت فى بداية الأمر قاصرة على بعض أفراد القبيلة وأهليهم ومريديهم إذ بها فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى تشمل رئيس القبيلة ومعه قبيلته التى تعاهده على اتباع طريقته ونحلته.

وتظهر هذه النزعات الصوفية الإصلاحية فى اهتمام العرب بركب الحجيج من المغرب إلى مصر إذ يرافقه كثير من زعماء القبائل العربية سواء لقضاء فريضة الحج أو مصاحبة إحدى أميرات الدولة خصوصها زوجات الخلفاء العربيات أو القيام بحماية الركب على طول امتداد بلاد المغرب لمروره فى مناطق استقرار القبائل العربية وكثيرا ماانضم إلى الركب من يريد من زعماء هذه القبائل على طول الطريق.

كذلك تظهر هذه النزعات الإصلاحية فى قيام هذه القبائل بالمساهمة فى تعريب المغرب ونشر الثقافة العربية ببلاد السودان لسيطرتها على طرق التجارة من شمال أفريقيا والمغرب إلى موريتانيا وإلى الجنوب.

ولقد شاركت هذه القبائل فى النواحى الإدارية والعسكرية ببلاد المغرب إذ أنشأت إمارات قوية فى عصرى الموحدين والحفصية وبنى مرين ومدح الشعراء والكتاب أمراءها الذين نجحوا فى إدارتها فأضافت الدولة إليهم مزيدا من الإقطاعات لإدارتها واضطرت لإقرارهم على ما بأيديهم بمرسوم

صادر من السلطان بالتقليد والخلع كما أسندت الدولة الحفصية إلى بعض أمراء العرب وظائفها الإدارية مثل جباية ديوان البحر بتونس وجباية سائر الأعمال التونسية كما أسندت وظائف القضاء والفتيا إلى العلماء من هذه القبائل خصوصا فى المدن التى تسيطر القبائل العربية على نواحيها وازدادت مكانة شيوخ القبائل العربية خلال سيطرة الدولة المرينية على جميع بلاد المغرب حتى عين أبو عنان المرينى، يوسف بن منصور والى بكسر والزاب فى طبقات وزرائه وتصدروا المجالس السلطانية وأصبحوا ضمن أهل المشورة وانضم بعضهم إلى مجلس منادمته فى خلوته كما اختار السلطان منهم بعض وزرائه وسفرائه إلى جيرانه من الملوك.

أما عن دورهم فى النواحى العسكرية فنظرا لحبهم للقتال اهتمت القبائل العربية بأسلحتها من النوع الخفيف الذى يتلائم مع حياة الترحال التى يعيشونها وأهمها السيف والرمح والقوس والسهم والجنبية والخنجر وأحسنوا استخدامها حتى شكلت الدولة المرينية منهم فرقة رماة القسى العربية تستعين بها فى حروبها بجانب الأسلحة الثقيلة التى اضطرت القبائل إلى استخدامها فى ظروف خاصة مثل المنجنيق خلال حصارهم لعدوهم والدروع البيض والدرق اللمطية والقسى الخطية خلال حروبهم المقدسة بالأندلس.

واعتمدت هذه القبائل فى حروبها على الكر والفر ويتغنى أمامهم شاعر القبيلة يحرضهم على القتال وتأثرت القبائل البربرية بهم وحذت حذوهم فى المغرب. كما اتخذوا الرايات والطبول التى اقتصرت فى الدولة الموحدية والمرينية على راية صغيرة وطبل صغير أيام الحرب فقط وزادت فى الدولة الحفصية إلى أعلام من الكتان البيض تمتاز بها القبيلة.

أما مكانتهم فى الجيوش المغربية فإلى جانب وجودهم فى الجيش النظامى للدولة الموحدية وإثباتهم فى ديوان العطاء فقد كان يعتمد على القبائل العربية بأفريقيا عند نشوب الحرب فتستدعيهم الدولة فى الوقت المناسب. ويخرج الخليفة بنفسه لتفقد قواتهم فى إحتفال مهيب يعرف بالتميز وكانوا يتميزون فى الأعـ ـات والمرتبات. فرسانا ورجاله . على الموحدين وغيرهم من الجند وازدادت هذه المكانة فى الجيش المرينى لتزوج معظم أمراء الدولة المرينيه من النساء العربيات واستخدامهم لأخوالهم من العرب فى الحجابة والكتابة لزعمائهم فى قيادة الجيوش للقضاء على الثورات الداخلية بالدولة ولايستبعد حصولهم على نصيب الأسد من المقررات والمرتبات المخصصة للجند.

ولقد أثرت هذه الحياة الاقتصادية المغربية تأثيرا واضحا إذ نقلوا إلى المغرب خبرتهم الطويلة فى تنمية الثروة الحيوانية والتدخل الصناعى فى توليد الأنعام وتكثيرها وانتخاب الأنواع الأصيلة منها، حتى اشتهرت المنطقة الممتدة من برقة وحتى تلمسان بتربية الخيول « العتاق» الأحساب المدربة عند الأعراب وتأثرت بعض القبائل الزناتية بخبرة القبائل العربية فى هذا المضمار فأخذوا عنهم تربية الخيول وتحسين أنسابها فظهرت الخيول الفزازية فى منطقة تادلا والخيول المحمدية فى قبائل غمارة، مما أدى إلى ازدهار تربية الخيول ببلاد المغرب، وأصبحت الخيول العربية الهدية المملوكية المفضلة بين ملوك بلاد المغرب والأندلس ومصر.

وصلت محل الهدايا من الإبل، كما اسندت إليهم كل من دولة بنى عبد الواد والدولة المرينية إدارة مراعيهم وتربية أنعامهم فقام عرب بنى صبيح من سويد بإدارتها الانفراد بها حتى أصبحت متوارثة فيهم حتى آخر الدولة

المرينية واكبر دليل على نجاحهم فى إدارة هذه المراعى وتربية الأنعام اطلاق لفظ «المرينى» على أجود أنواع الغنم.

كذلك ساهموا فى الزراعة والفلاحة ونجحوا فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى فى إعادة تعمير المنطقة الممتدة من برقة إلى طرابلس وزراعتها حتى تشتهر قراها بأنواع خاصة من المحاصيل كسفرجل قرية تاجورة بوطن عرب الجوارى . كذلك اشتهار امارات الجريد والزاب العربية بتعدد انتاجها من الثمار وانتشار الصناعة فى بعض مدنها واعتمادها بصفة رئيسية على زراعة النخيل وتصنيعه كما ساهم من اندمج من هذه القبائل فى الحياة الاقتصادية بالبلاد.

ولقد سيطرت القبائل العربية على طرق التجارة الداخلية فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم ووسعوا نطاق هذه التجارة بين التل والصحراء واحتكروا تموين بعض المدن الأفريقية مقابل توزيعهم لمنتجاتهم ، مثال ذلك توزيع المرجان المستخرج من مرسى الخرز.

كما سيطروا على التجارة الخارجية خصوصا مع بلاد السودان ومصر فاجتكروا استخراج الملح سواء فى أفريقيا أو المغرب وأمدوا به بلاد السودان وصدروا لمصر الخيول والأغنام كما اشتهروا بتصدير نوع من الملح يستعمل كنوع من العقاقير إلى الممالك المسيحية.

*****

المصادر العربية المخطوطة

ابن منكلى (الأمير محمد)

التدبيرات السلطانية فى الفنون الحربية بدون تاريخ مكتبة أسكندرية رقم ١١٤٧ب.

القادرى (محمد بن على)

المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة ، مكتبة اسكندرية ٣٨٦١ج بدون تاريخ.

القلقشندى (أحمد بن عبد الله) (ت٨٢١/١٤١٨)

قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان . معهد إحياء المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية (ميكروفيلم رقم ٣٨١)

الكرمى (مرعى بن يوسف)

نزهة الناظر فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين. مكتبة اسكندرية ١٤١٦ ج بدون تاريخ.

النويرى (محمد بن قاسم السكندرى)

الإلمام بما قضت به الأحكام المقضية فى وقعة اسكندرية. نسخ مصورة من مخطوطات الهند بمكتبة بكلية الآداب ج اسكندرية رقم ٧٣٨.

المصادر والمراجع

ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد اللهو (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)

المقتضب من كتاب تحفة القادم. نشر ابراهيم الإبياري ، القاهرة ١٩٥٧

الحلة السيراء جزءان نشر د/ حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣ .

ابن الأثير: أبو الحسن بن على بن محمد بن أبى الكرم الجزرى (ت٦٣٠/١٢٣٢)

أسد الغابة فى معرفة الصحابة (القاهرة ١٢٨٠هـ)

الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠٣هـ)

ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ط بولاق ١٣١٢ .

ابن الأحمر: أبو الوليد بن الأحمر (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م)

روضة النسرين فى دولة بنى مرين

نشر عبد الوهاب منصور (الرباط ١٩٦٢)

ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة (أربع أجزاء مصر ١٩٣٩)

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن على البغدادى (٣٨٠هـ/ ٩٠٠م) صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨)

ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (٧٧٦ ، ١٣٧٤م)

أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام (الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشر مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤).

ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٥٦-١٩٥٨)

مقدمة ابن خلدون (المكتبة التجارية القاهرة).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (مصر ١٩٤٨ تحقيق محى الدين عبد الحميد خمسة أجزاء.

ابن عبد ربه: العقد الفريد (مصر ١٩٥٣) تحقيق العريان فى ثمانية أجزاء.

ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها (نشر ماسية القاهرة ١٩١٤)

الإدريسى: أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت٥٤٨/١١٥٤) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس.

الأندلسى: محمد بن محمد الأندلسى، (ت١١٤٩/١٧٣٦)

الحلل السندسية فى الأخبار التونسية جـ١ تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس ١٩٧٠.

الدباغ : (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى ت ٦٩٦/١٢٩٧) معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان. تحقيق ابراهيم شبوح تونس ١٩٦٨.

ابن أبى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى

القيروانى ت أواخر القرن الحادى عشر / السابع عشر الميلادى المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس. تحقيق محمد شمام عام ١٩٦٧ .

سيده الكاشف: مصر فى فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٧)

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير القاهرة ١٩٦٦ .

شقير (نعوم) تاريخ السودان القديم والحديث دار المعارف .

عمار عباس المدخل الشرقى لمصر (المعهد الفرنسى القاهرة ١٩٤٩) .

عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله (ط ثانية القاهرة ١٩٥٦)

المراجع الأجنبية

- Abun-Nasr, J.:

Ahistory of the maghreb. London. 1975.

- Arkell.

A history of the Sudan. London. 1955.

- Bel, A. Le region Musulmane en Berberie. Paris. 1938.

- Brunschving, R.

La tunisie dans le Haut moryen age, Le cairo 1948.

- Faurnel, H. Les Berberes, Etude sur conqueste de L'Afrique par les Arabes, vols. 1,2. paris 1875.

- Hill, D.

Islamic Architecture in north Africa. London 1976.

- Mac-Michael (cambridge 1912) the tribes of northern and centeral Kordofan.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
الباب الأول: ليبيا	٦
الفصل الأول: ليبيا من الفتح العربى إلى العهد الموحدى	٧
الفصل الثانى: ليبيا من العهد العثمانى إلى الاستقلال	٥٢
الفصل الثالث: الدور الحضارى الليبى	٧٧
الباب الثانى : أفريقيا (تونس)	٩١
الفصل الأول: أفريقيا من الفتح العربى حتى قيام دولة الأغالبية	٩٢
الفصل الثانى: أفريقيا من عهد الأغالبة حتى الاستقلال	١١٣
الباب الثالث: المغرب الأوسط (الجزائر)	١٣٩
الفصل الأول: الجزائر منذ الفتح العربى حتى دولة بنى عبد الواد	١٤٠
الفصل الثانى: الجزائر من العهد العثمانى حتى الاستقلال	١٦١
الفصل الثالث: المجتمع الجزائرى	١٨٧

الباب الرابع: المغرب الأقصى ١٩٧

المغرب الأقصى منذ الفتح العربى إلى قيام المملكة المغربية ١٩٨

الباب الخامس: موريتانيا ٢٥٤

موريتانيا منذ الفتح العربى حتى قيام الجمهورية ٢٥٥

الباب السادس: السودان ٢٨٤

السودان من الفتح العربى إلى الاستقلال ٢٨٥

الخاتمة ٣١٢

المصادر العربية المخطوطة ٣٢٢

المصادر والمراجع ٣٢٣

المراجع الأجنبية ٣٢٦

الفهرس ٣٢٧

Bibliotheca Alexandrina
02298295